اختصار

القدح المعلى في التاريخ المحلى

لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى

٦١٠ هـ - ٦٨٥ هـ

اختصره

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل

تحقيق

إبراهيم الأبياري

دار الكتاب اللبناني

بيروت

اختصار

القدح المعلّى في التاريخ المحلّى

لابن سعيد أبي الحسن على بن موسى
٦١٠هـ - ٦٨٥هـ

اختصره
أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل

بتحقيق
ابراهيم الأبياري

الناشر
دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

TELEX-K.T.L 22860 LE
BEIRUT

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قيل لحكيم: ما خيرُ مالكَ ترجو به عظيم الأجر؟
قال: قاربتُ أن أدركه في سِفرٍ أخرجتُه للناس،
انتفعوا بما فيه، ولم أرزأهم عليه درهماً ولا ديناراً.

إبراهيم الأبياري

كلمة أولى

منذ أعوام تربى على العشرين قليلا أخرجت هذا الكتاب – اختصار القدح المعلى – فى طبعته الأولى ، وكان ذلك سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) .

وكان المطبوع منه فى تلك الطبعة الأولى عددا محدودا لم يجاوز الألف . لذا لم يأخذ حظه من الشيوع والذيوع ، ولم يعلم نبأه إلا قلة قليلة من المتصلين بالحياة الأدبية .

ومرت السنون بعد ذلك تلفتنى إلى أنه لابد من عودة على الكتاب لطبعه طبعة ثانية تذيع وتشيع .

وهأنذا أخرجه للقراء الذين أعوزهم اقتناؤه فى طبعته الأولى بعد أن نظرت فيه نظرة معدلة .

والله أسأل أن ينفعنا جميعا بعمل العاملين ، ،

ابراهيم الأبيارى

شوال سنة ١٤٠٠ هـ

اغسطس سنة ١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه كلمة لن ينال « ٱبنَ سعيد » منها شيء ، فهى لهذا الكتاب خالصة من دونه ، قصدت فيها أن أعرِّف بالكتاب جاهداً فى ٱستقصاء ما حوله ، مهملا الحديث عن صاحبه إلى لحق سيكون جزءا ثانيا ، ينتظم الحديث عن آل سعيد جملة ، يجمع ما لم جمعا شاملا ، وسيكون « علىّ بن موسى » لا شك أوفرهم خبرا . لهذا رأيت التعريف به فى ظل هذا التقديم اقتطاعا لترجمة أحب أن تكون متصلة ، وأحبها مع هذا الاتصال أن تكون حلقة من حلقات أسرة يتسق حديثها بٱتساق حلقاتها ، لا سيما والأخبار يُملى بعضها بعضا ، وتتولد فروعها عن أصولها .

⁂

ما من شك فى أن لابن سعيد أبى الحسن على بن موسى (٦١٠ هـ — ٦٨٥ هـ) كتابا اسمه « القدح المعلى » .

ذكره ابن رشيد الفهرى أبو عبد الله محمد بن عمر (٦٥٧ هـ — ٧٢١ هـ) فى رحلته[1] ، ولم يزد على هذه الفقرة ، كما لم يقِف عليها بأخرى .

وذكره ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلمانى (٧١٣ هـ — ٧٧٦ هـ) فى كتابه « الإحاطة » ناقلا عنه فى موضعين[2] ، ولم يزد هو الآخر على هذه الفقرة .

وذكره المقرى أحمد بن محمد التلمسانى (— ١٠٤١ هـ) فى كتابه «نفح الطيب» ناقلا عنه فى موضعين أيضا ، وسماه كما سماه ٱبن رشيد وٱبن الخطيب .

---

(١) رحلة ابن رشيد (لوحة ١٠١) مصورة الجامعة العربية .

(٢) الإحاطة (١ : ٢٢٠ ، ٢٤٤) طبعة دار المعارف .

وتحمل مخطوطة تونس اسم الكتاب فى ثنايا كلام جاء فى صفحة زائدة على الكتاب تفيد تحبيسه على خزانة الجامع الأعظم بتونس باسم صاحب كرسيها ، وليس معها مزيد عما فات ، مع ما نعرف من أن الحبس — الوقف — فيه تفصيل ضابط واستطراد مميز[1] .

ثم نجد ابن الخطيب يضع كتاباً على نهج كتاب ابن سعيد ، ويسميه « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى »[2] ويخصه برجال عصره ، كما خص « ابن سعيد » كتابه .

وهذا إن وكد أن « القدح المعلى » لابن سعيد ، لا يوكد لنا أن اسمه ليس عليه مزيد ، وإن كان لا ينفى أن يكون الاسم فقرة واحدة ، كما ساقه من ساقه على هذا النحو .

وبعد هذا نجد مخطوطة باريس تحمل الورقة الأولى منها اسم الكتاب مزيدا عليه فقرة أخرى للتقفية ، وهى « فى التاريخ المحلى »[3] .

ويقف « بروكلمان » مع كتاب لابن سعيد ذكره المقريزى[4] باسم « المحلى بالأشعار » ويرجح أن يكون هذا الكتاب هو « القدح المعلى فى التاريخ المحلى » . فيذكر هو الآخر « القدح » اسماً ذا فقرتين ، كما جاءت به المخطوطة الباريسية[5] .

∴

وإن الناظر فى مؤلفات « ابن سعيد » يكاد يرى الكثرة من أسماء كتبه من ذوات الفقرتين ، من ذلك :

(١) تفريج الظلام وترصيع العالم بالأعلام — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٢) الحلة السيراء فى طبقات الشعراء — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٣) حيا المحل وجنى النحل — ذكره القلقشندى فى صبح الأعشى — ٢ : ٩٣ ، ١٤ : ١٩١

---

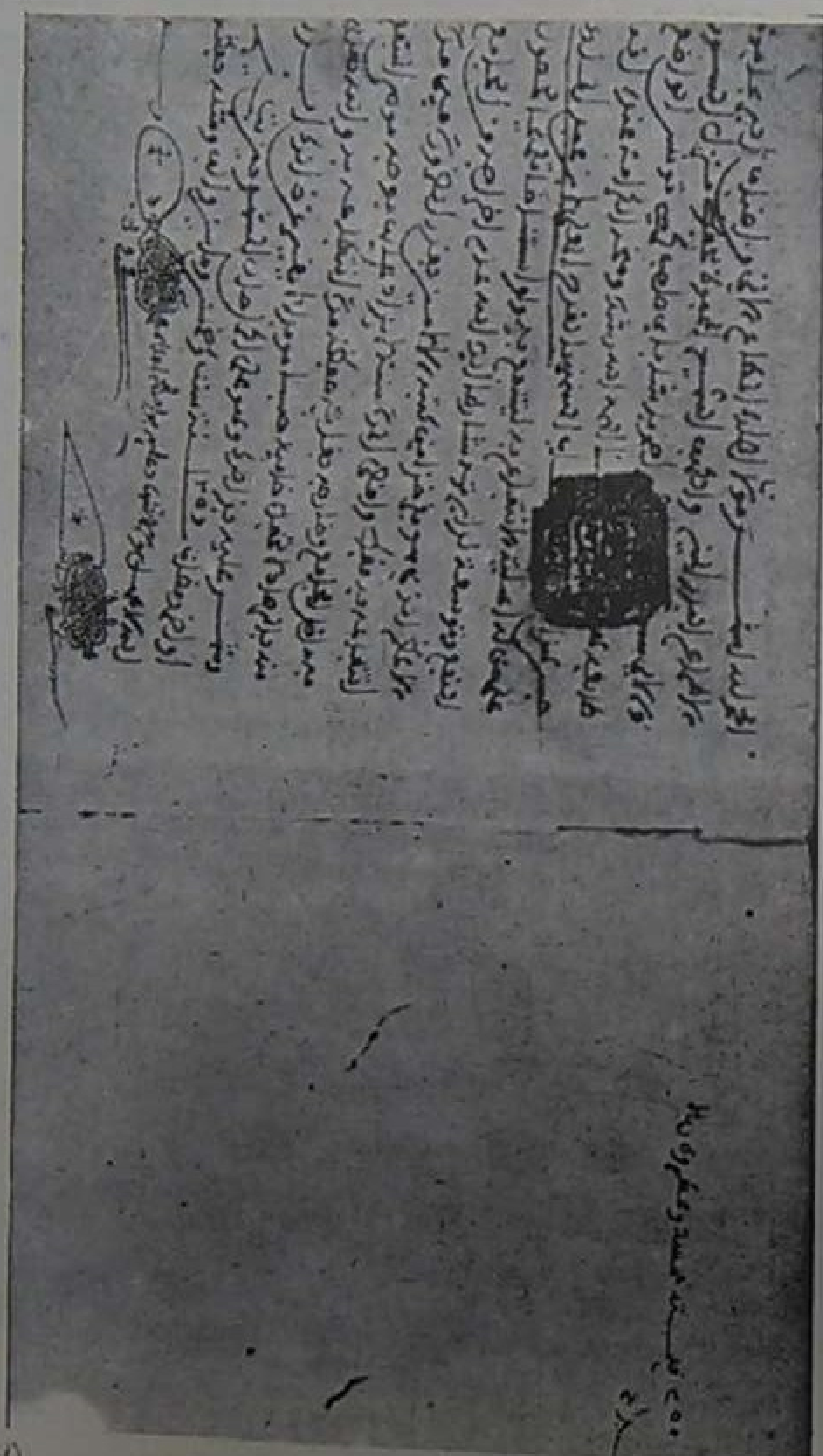
(١) انظر الورقة الأولى من مخطوطة تونس .

(٢) انظر الإحاطة (١ : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٤٨ ، ٣٣٧ ، ٣٥٣ ، ٥٠٢) ونفح الطيب (٨ : ٣٣١) .

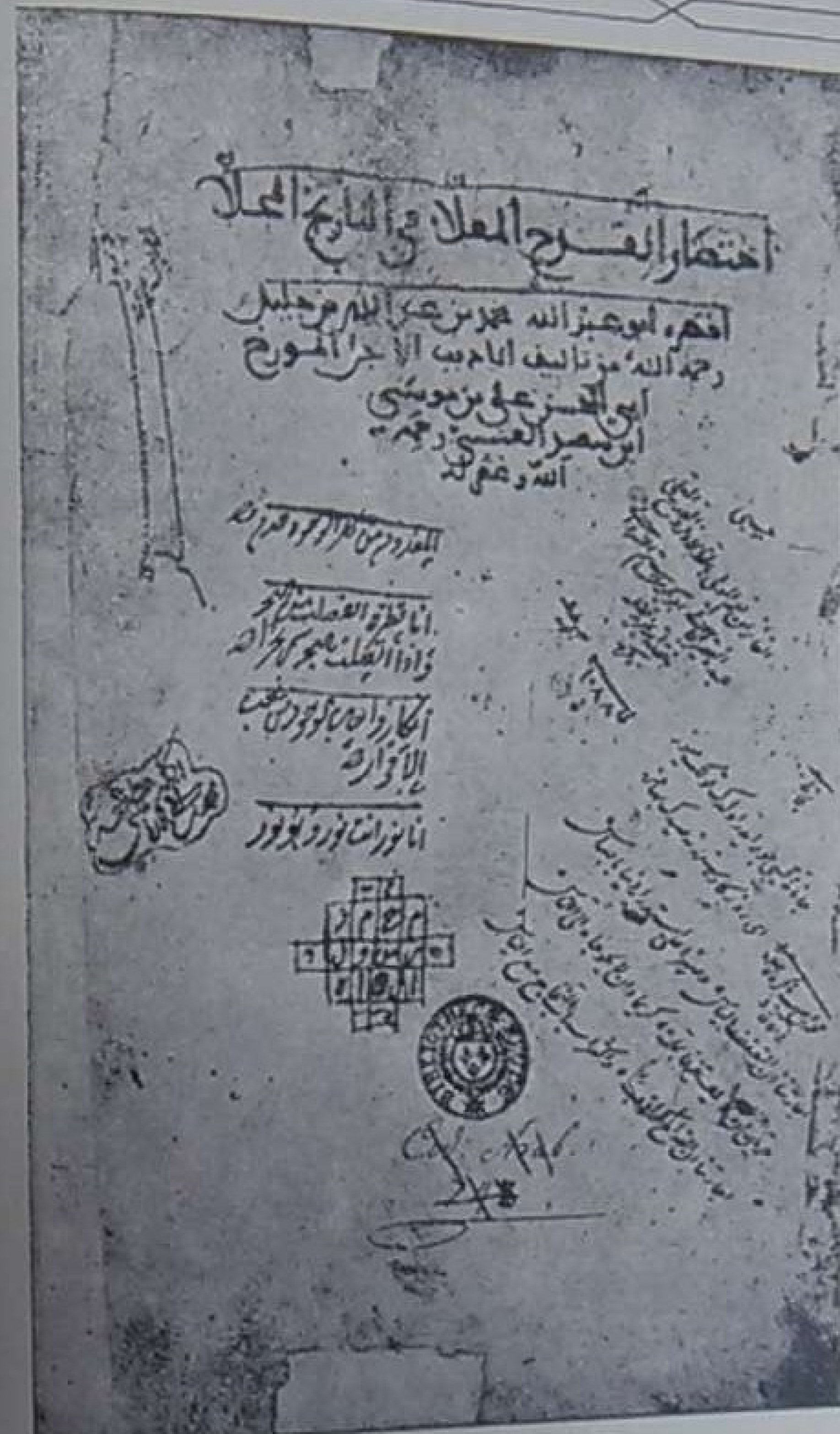
(٣) انظر الورقة الأولى من مخطوطة باريس .

(٤) الخطط (١ : ٤٨٥ ، ٢ : ١٨١) .

(٥) Brockelman (I, P. 337)



الورقة الأولى من مخطوطة تونس



الورقة الأولى من مخطوطة باريس

(٤) الحدود الموزدة فى محاسن الأوزان المولدة — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٥) رايات المبرزين وغايات المميزين — طبعة مدريد بتحقيق الدكتور جرثياجومث.

(٦) رقم الحلل فى معرفة الملل والدول — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٧) السمر المذاب فى طبقات الخطباء والكتاب — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٨) الشجرة المثمرة بالأعلام المشتهرة — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٩) الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد — ذكره ابن الخطيب فى الإحاطة (١ : ٢٢٣) والمقرى فى النفح (١ : ١٧٨ ، ٣ : ٣٨) والسيوطى فى حسن المحاضرة — والسخاوى فى الإعلان بالتوبيخ (١٢٨)

(١٠) عدة المستنجز وعقلة المستوفز — ذكره المقرى فى النفح (٣ : ١٣)

(١١) عنوان المرقصات والمطربات — طبع الجزائر سنة ١٩٤٩ م .

(١٢) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة — بتحقيق — طبع دار المعارف — القاهرة .

(١٣) كنوز المطالب فى آل أبى طالب — ذكره ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى (٢ : ٤٥٣)

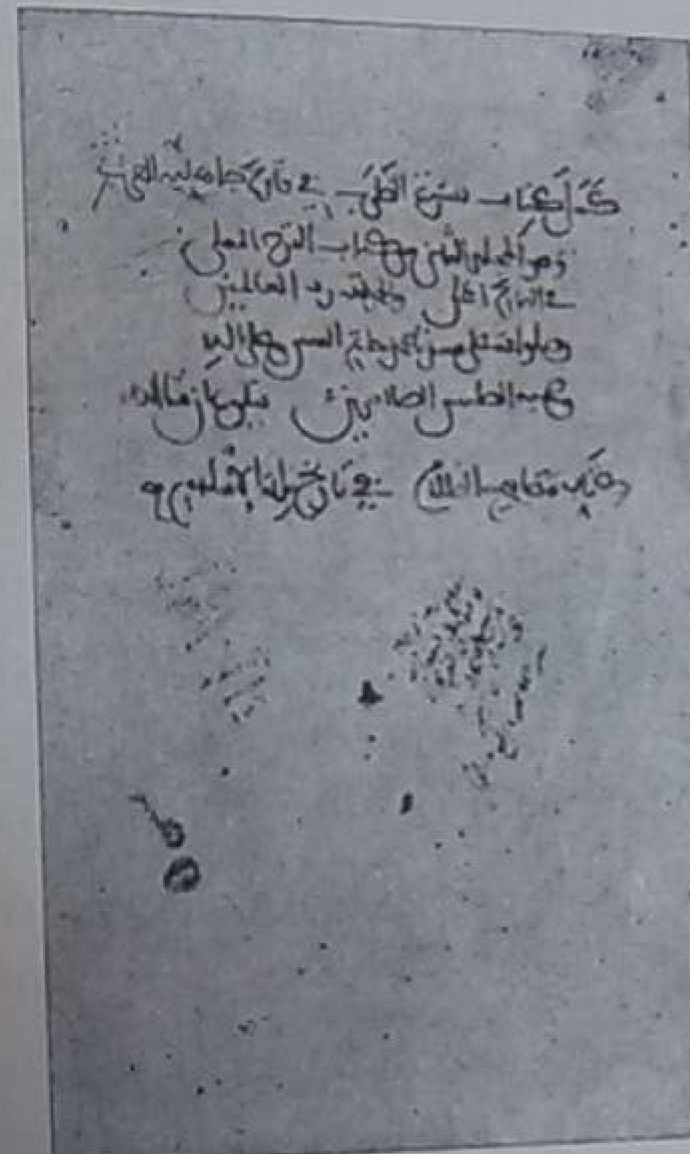
(١٤) لذة الأحلام فى تاريخ أمم الأعجام — ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون (رقم ٦٧٥٢)

(١٥) المشرق فى حلى المشرق — منه مخطوطة برقم ٢٥٣٢ تاريخ — تيمور — دار الكتب المصرية .

(١٦) مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الإسلام . وهو الجزء الثانى من كتاب القدح[١] .

---

(١) انظر اللوحة (هـ 203) من مخطوطة توبنجن .



(30 A)

(١٧) المعرب عن تاريخ سيرة أهل المغرب — ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون برقم (٢٣١٦) .

(١٨) المغرب فى حلى المغرب — طبع بتحقيق الدكتور شوقى ضيف — دار المعارف — القاهرة .

(١٩) المقتطف من أزاهر الطرف — منه مخطوطة بمكتبة سوهاج برقم ٣٣ — أدب .

(٢٠) المهاد فى أوضاع البلاد — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٢١) نتائج القرائح فى مختار المراثى والمدائح — ذكره حاجى خليفة برقم (١٣٥٥٨) .

(٢٢) نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب — منه مخطوطة بمكتبة توبنجن بالمانيا . وهو المجلد الثانى من كتاب القدح . وقد صوره معهد المخطوطات بجامعة العربية بالقاهرة .

(٢٣) النفحة المسكية فى الرحلة المكية — ذكره المقرى فى النفح (٣ : ٤٠)

(٢٤) وشى الحلل فى معرفة الملل والدول = رقم الحلل

∴

كما يجد منها شيئا ذا فقرة أو ما يشبه الفقرة ، من ذلك :

(١) جنى النحل — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

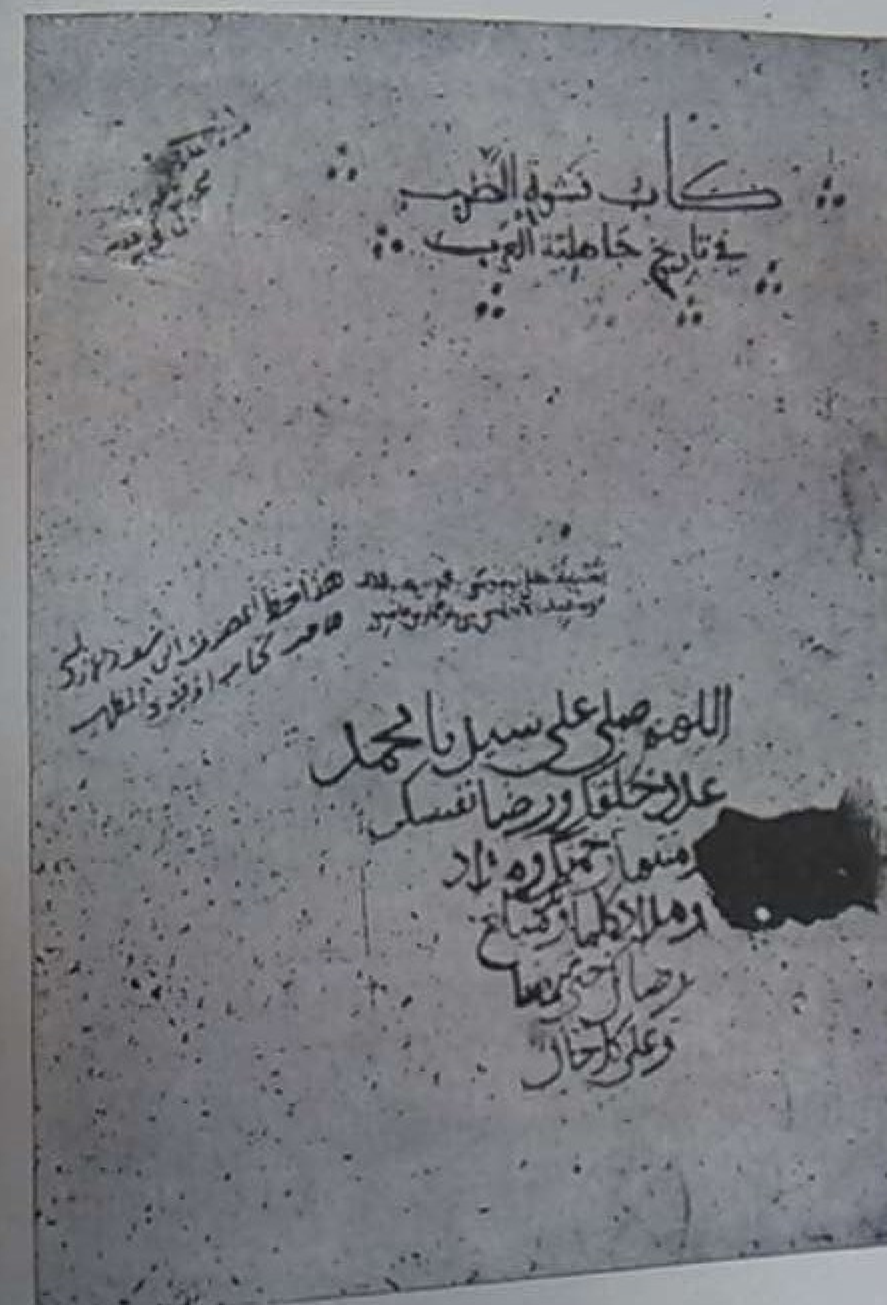
(٢) حلى الرسائل — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٣) ريحانة الأدب — » » » » — » ١٠١ — وحاجى خليفة فى كشف الظنون برقم (١١٠٨٧) .

(٤) الغراميات — ذكره ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى .

(٥) غنج المحاضرة — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

(٦) اللمعة البرقية — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١



(٧) ملوك الشعر — ذكره ابن شاكر فى الفوات (٢ : ٩) والمقرى فى النفح (١ : ٦٥٧) طبعة أوربة .

(٨) ملوك الكلام — ذكره ابن رشيد فى رحلته — ورقة ١٠١

∴

غير أنا مع هـذه الكتب ذات الفقرة غير مطمئنين ، ولسنا على يقين أن المؤلف لم يقف عندها ، يسوقنا إلى الشك اجتزاء ابن رشـيد فى أسماء بعض ما أورد منها بفقرة واحدة ، على حين يسوقها المقرى ذات فقرتين ، من ذلك :

١ — النفحة المسكية — ٢ — المقتطف — ٣ — الطالع السعيد
فقد ساقها ابن رشيد هكذا ذات فقرة وأكملها المقرى ، كما مر بك .

ولكن منها أشياء ذكرها ابن رشيد ، وذكرها ابن الخطيب ، وذكرها المقرى ، وذكرها ابن تغرى بردى ، وذكرها حاجى خليفة ، مقتصرين فى تسميتها على فقرة واحدة ، من ذلك :

(١) القـدح المعلى .

(٢) ملوك الشعر .

(٣) ملوك الكلام .

(٤) الغراميات .

(٥) جنى النحل .

(٦) غنج المحاضرة .

(٧) اللمعة البرقية .

منها ما اتفق عليه ثلاثة ، وذلك مثل «القدح المعلى» ، فقد اتفق عليه ابن الخطيب ، وابن رشيد ، والمقرى ؛ ومنها ما اتفق عليه اثنان ، وذلك مثل «الغراميات» فقـد اتفق عليه ابن تغرى بردى ، وحاجى خليفة . ومنها ما جاء غير متفق عليه ، وهى سائر ما ذكرنا من ذوات الفقرة الواحدة .

∴

ونلاحظ أن «القدح» مقصود فيه إلى جمع رجالات الأدب، لم يُقصد فيه إلى غيرهم.

وإلى هذا تشير المقدمة حيث تقول : « من أخبار أدباء عصرنا هـذا ومن عنه يؤخذ وإليه يسند ، مكللة بشذور النثر ، موشحة بنفيس الشعر » . يسوق المؤلف بين يدى كل ترجمة نبذة لا تمعن فى التاريخ ، ولـكن تمهد لشئ من النثر ولآخر من الشعر .

وما تكاد تلك الإشارة التى تضمها المقدمة ، وذلك المساق الذى ساق المؤلف عليه تراجمه، يبعدانا عن الإيمان بتلك الكلمة التى حملتها المخطوطة الباريسية، مزيدةً على العنوان، حتى تردنا إلى الإيمان به تلك النقول التى فاضت بها « الإحاطة » وفاض بها « القدح » نقلا عن « التاج المحلى » ، الذى وضعه مؤلفه ابن الخطيب يساجل به ابن سعيد[1] .

فإنا نرى «ابن الخطيب» يجمع ما بين التاريخ والأدب، يكاد يطغى الأدب على التاريخ مرة ، ويطغى التاريخ على الأدب أخرى ، وهو بهذا وذاك يرى كتابه مساجلة لكتاب ابن سعيد ، قد ساقه على نهجه ، وما رأى نفسه مخالفا .

∴

ولقد عودنا «ابن سعيد» فيما ثبت له من مقدمات، يسمى فيها كتابه، أن يسوق الاسم كاملا لا يجتزئ ، ويبسط نهجه فيه وغايته .

يقول فى مقدمته لكتابه « رايات المبرزين »[2] : « وسميته رايات المبرزين ، وغايات المميزين » . ويقول فى مقدمته لكتابه «الغصون اليانعة» : « فهذا كتاب الغصون اليانعة ، فى محاسن شعراء المائة السابعة ، وهو الثامن للكتب التى اشتمل عليها : جامع طبقات الشعراء »[3] .

ونحن فى مقدمة هذا الكتاب نفقد ما عودنا إياه «ابن سعيد»، فلا نقرأ له فيها إلا تلك النبذة القصيرة التى تحدد الغرض من الكتاب فى اختصار ، والتى سقناها قبل .

---

(1) الإحاطة (١ : ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ٢٤٨ و ٣٣٧٣ و ٣٥٣ و ٥٠٢ طبعة دار المعارف ، ٢ : ١٨٢ و ١٩٥ و ١٩٨ و ٢٠٠ و ٢٠١ طبعة مصر) . ونفح الطيب (٨ : ٣٣١ و ٣٣٦ و ٣٦٣ و ٣٦٤ و ٣٦٧ و ٣٧٠ ، ٩ : ٣٠٣ طبعة المكتبة التجارية) .

(2) رايات المبرزين (ص ٦) طبعة مدريد .

(3) الغصون (ص ١)

وكما نخاف أن تكون كثرة مؤلفات «ابن سعيد» ، وضياع وفرة منها ، قد أدخلتها الاضطراب فزووج بين بعضها ، وفـصل منها بعضها ، فنال اسم هذا الكتاب شئ من هذا وذاك ، وبقى مظهره يشير إليه ذلك الخلاف بين من ذكروه فقرة واحدة، وبين من ذكروه فقرتين.

∴

وإذا كتاب « نشوة الطرب » تقع مخطوطته لنا ، يحملها إلى مصر صديق له خطوات مشكورة فى هذا الميدان العلمى ، هو الدكتور « صلاح المنجد » مدير معهد المخطوطات بالجامعة العربية بالقاهرة ، وإذا هذه المخطوطة ترد الأمور إلى نصابها ، وتقطع فى الأمر قطع جهيزة .

لم يكن كتاب « نشوة الطرب » كتابا مستقلا لابن سعيد ، كما كنا نظن قبل أن نراه . وإنما هو جزء من أجزاء «القدح المعلى» ، وأنه هو الجزء الثانى منه ، وإذا عبارة الفراغ منه فى آخره تنص بعد هذا على اسم الكتاب الشامل الذى هو « القدح » نصا كاملا مبينا ، وإذا هذه العبارة تقول : « كمل كتاب نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب ، وهو المجلد الثانى من كتاب القدح المعلى فى التاريخ المحلى . والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين »[1] .

إذن فلقد جلت هذه العبارة اسم الكتاب ، وجلت عنه شيئا آخر ، هو أن الكتاب مجلدات : مجلد أول لا يدرى ما اسمه ، وهو لا شك عن شيء يسبق الجاهلية .

وتزيد العبارة هذه الجملة : « يتلوه إن شاء الله كتاب : مصابيح الظلام فى تاريخ الإسلام »[1] .

وهذه عبارة كما تدل على التجزئة ، تدل على تسلسل الموضوع ، وأن ابن سعيد يتناول عصرا عصرا ، وأمة بعد أمة .

∴

وما ندرى أين يقع الحديث عن الأندلس ورجاله من كتاب « القدح » وفى أى جزء هو ، وما اسم هذا الجزء ، وهل هو كتاب مستقل ذو اسم مستقل، أم هو جزء من جزء .

فالذى لا شك فيـه أن الكتاب بأجزائه اسمه : القدح ، ولكل جزء اسم كما رأيت ، فنشوة الطرب جزء ، ومصابيح الظلام جزء ، والحديث عن الأندلس جزء ، ولكن ترى ما يكون اسم هـذا الجزء ؟ فمجىء النسخة التى بين أيدينا تحمل اسم « القدح » مرة و « اختصار القدح » أخرى ، شيء يثير شكا سنمضى فى جلائه :

---

(1) انظر اللوحة الأخيرة (ه 303) من كتاب : « نشوة الطرب » .

فهذه النسخة الباريسية التى حملت إلينا الاسم مخالفا لهذا الإجماع قد حملت إلينا شيئا آخر ، فقد جعلت الكتاب اختصارا للقدح ، ولم تشأ أن تجعله « القدح » نفسه .

ولقد كنا على أن نُسيئها فى يسر ، لولا أن ردّتنا المعارضات إلى شك ، فلقد نقل ابن الخطيب عن «القدح» ، وكذلك نقل المقرى فى « النفح » :

نقل ابن الخطيب عن « القدح » فى موضعين ، أولها وهو يترجم لأحمد بن محمد بن أبى الخليل مفرج الأموى ، يقول ابن الخطيب :

« ذكره أبو الحسن بن سعيد فى : القدح المعلى ، وقال : « جوّال بالبلاد المشرقية والمغربية ، جالسته بإشبيلية بعد عودته من رحلته ، فرأيته متعلقا بالأدب ، مرتاحا إليه ارتياح البحترى لحلب ، وكان غير متظاهر بقول الشعر ، إلا أن أصحابه يسمعون منه ، ويروون عنه . وحملت عليه فى بعض الأوقات فقيدت عنه هذه الأبيات — وذكر أبياتا أربعة ساقها كما وردت فى القدح — ثم قال : وكثيرا ما يطنب على دمشق و يصف محاسنها ، فما انفصل عنى إلا وقد امتلأ خاطرى من شكلها ، فأتمنى أن أحل مواطنها إلى أن أبلغ الأمل قبل المنون :

ولو أنى نظرت بألف عين ... لما استوفت محاسنها العيون »(1)

⁂

وإليك ما جاء فى القدح «أو اختصاره» لتقيس نصًّا بنص ، يقول ابن سعيد :

" أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الإشبيلى . يُعرف بابن الرومية . جوّال بالبلاد المغربية والمشرقية . جالسته بإشبيلية بعد عودته من رحلته ، فرأيته متعلقا بالأدب ، مرتاحا إليه ارتياح البحترى لحلب وعلمه الذى اشتهر به علم أنواع الحشائش ، ويقال إنه أظهر جملة منها بالمغرب ، وقف على أسمائها وصورها بالمشرق .

وكان غير متظاهر بقول الشعر إلا أن أصحابه يسمعون منه ويروون عنه ، وحملته عليه فى بعض الأوقات فقال تكفيك فيه هذه الأبيات — ثم ذكر الأبيات الأربعة —

(1) الإحاطة (1 : 220)

وكان كثيرا ما يُطنب فى الثناء على دمشق و يصف محاسنها ، فلا أنفصل عنه إلا وقد امتلأ خاطرى من شكلها ، فأتمنى أن أحل مواطنها إلى أن يبلغ الله الأمل والأمانى قبل المنون :

وأنى لو نظرت بألف عين ... لما استوفت محاسنها العيون »

⁂

وثانى الموضعين اللذين نقل فيهما ابن الخطيب عن القدح ، حيث يترجم لأحمد بن محمد ابن طلحة ، فهو يقول :

« قال صاحب القدح المعلى : من بيت مشهور بجزيرة شقر من عمل بلنسيه . كتب عن ولاة الأمر من بنى عبد المؤمن ، ثم استكتبه ابن هود حين تغلب على الأندلس وربما استوزره ، وهو ممن كان والدى يكثر مجالسته ، و بينهما مُزاورة . ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظ من مجالسته .

سمعته يوما يقول : تقيمون القيامة بحبيب والبحترى والمتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتد إليه المتقدمون ولا المتأخرون . فانبرى إليه شخص له همة و إقدام ، فقال : يا أبا جعفر ، أين برهان ذلك ؟ فما أظنك تعنى إلا نفسك . فقال : ما أعنى إلا نفسى ، ولم لا ، وأنا الذى أقول — وذكر أبياتا ثلاثة جاءت فى القدح — فلم يُنصفوه فى الاستحسان ، وردّوه فى الغيظ كما كان . فقلت له : يا سيدى ، هذا والله السحر الحلال ، وما سمعت من شعراء عصرنا مثله ، فبالله إلا ما لازمتنى وزودتنى من هذا النمط . فقال : لله درّك ودرّ أبيك من مُنصف ابن مُنصف ، اسمع وافتح أذنيك ، ثم أنشد — وذكر أبياتا ثلاثة جاءت فى القدح — فقلت : يا لله أعد وزد . فأعاد والارتياح قد ملأ عطفه ، والتيه قد رفع أنفه ، ثم قال — وذكر بيتين ذكرها القدح — فقلت : ما على هذا مزيد فى الاستحسان ، فعسى أن يكون المزيد فى الإنشاد . فزاد ارتياحه وأنشد — وذكر بيتين ذكرها القدح — فقلت : إيه ، زادك الله إحسانا ، فزاد — وأورد بيتين وردا فى القدح — فقلت : فما تكرر و يطول فإنه مملول ، إلا ما أوردته أيضا ، فإنه كنسيم الحياة وما أن يمل ، فبالله إلا زدتنى وتفضلت على بالإعادة فأعاد وأنشد — وأورد بيتين أوردها القدح » (1) .

⁂

(1) الإحاطة (1 : 244) .

وهذا ما جاء فى القدح أو اختصاره ، وهو النص الذى بين أيدينا :

« أبو جعفر أحمد بن طلحة . من بيت مشهور بجزيرة شقر من عمل بلنسية . كتب عن ولاة الأمر من بنى عبد المؤمن ، ثم استكتبه ابن هود حين تغلب على الأندلس ، وربما استوزره فى بعض الأحيان . وهو ممن كان والدى يكثر مجالسته ، وبينهما مزاورة كثيرة . ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه من مجالسه .

وكان شديد التهور كثير الطيش ، ذاهبا بنفسه كل مذهب . سمعته مرة يقول وهو فى محفل : تقيمون القيامة بحبيب والبحترى والمتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى مالم يهتدوا إليه . فانبرى له شخص له حدة وإقدام وقال : يا أبا جعفر ، فأرنا برهان ذلك ، وما أظنك إلا تعنى نفسك . قال : ما أعنى إلا نفسى ، ولم لا ؟ وأنا الذى أقول ما لم يهتد إليه متقدم ولا يهتدى لمثله متأخر — ثم ساق الأبيات الثلاثة التى نقلها ابن الخطيب فلم ينصفوه فى الاستحسان ، وردوه فى الغيظ إلى أشد ما كان . فقلت له : يا سيدى ، هذا والله السحر الحلال ، وما سمعت من شعراء عصرنا مثله ، فبالله إلا ما زدتنى من هذا النمط . فقال : لله در أبيك من منصف ابن منصف ، اسمع وافتح أذنيك ، ثم أنشدنى قوله — وذكر الأبيات الثلاثة التى ينقلها ابن الخطيب — فقلت : بالله أعد وزدنى . فأعاد والارتياح قد ملأ عطفه ، واليقين قد رفع أنفه ، ثم زاد قوله — وذكر البيتين اللذين نقلهما ابن الخطيب — فقلت : ما على هذا مزيد فى الإحسان ، فعسى أن يكون المزيد فى الإنشاد . فزاد ارتياحه وأنشد — وذكر البيتين اللذين نقلهما ابن الخطيب — فقلت له : إيه ، زادك الله إحسانا . فزاد — وذكر البيتين اللذين نقلهما ابن الخطيب — فقلت : كل ما يكرر ويطول فإنه مملول ، إلا ما أوردته آنفا ، فإنه كنسيم الحياة ما إن يمل ، فبالله ألا تفضلت بالإعادة والزيادة . فأعاد ثم قال : وهذا حسبك لئلا تكثر المعانى عليك فلا تقوم بحق فهمها وإنصافها ، ثم أنشد إذ ذاك — وذكر البيتين اللذين نقلهما ابن الخطيب — فقلت : ملأ الله سمعك بكل بشرى ، فمازالت المحاسن على من قبلك تترى[1] » .

..

(1) القدح (ص ١١٤ و ١١٥) .

ويتقل «المقرى» فى «النفح» من «القدح» أيضا فى موضعين ، هو فى أولهما ينقل شيئا من ترجمة أبى عبد الله بن العطار القرطبى ، وإليك ما نقله المقرى :

« قال ابن سعيد : هو حلو المنازع ، ظريف المقاطع والمطالع ، مطبوع النوادر ، موصوف بالأديب الشاعر .

مازجته بالإسكندرية ، وبهذه الحضرة العلية ؛ وما زال يدين بالانفراد ، والتجول فى البلاد ؛ حتى قضى مناه ، وألقى بهذه المدينة عصاه ؛ لا يخطر الهم له ببال ، ولا يبيت إلا على وعد من وصال .

وله حين سمع ما ارتجلته فى السكين بالإسكندرية ، حين داعبنى باختلاسها القاضى زين القضاة ابن الريغى وقال : ما لى إليه سبيل ، حتى يحضر مصرى نيل :

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب ... على يده قطع وفيه نصاب
ستندبه الأقلام عند عثارها ... ويبكيه إن يعد الصواب كتاب

فقال :

أحاجيك ما شئ إذا ما سرقته ... وفيه نصاب ليس يلزمك القطع
على أن فيه القطع والحد ثابت ... ولا حد فيه هكذا حكم الشرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه « القدح المعلى فيما أظن »[2] .

وقول المقرى « فيما أظن » عبارة لها دلالتها ، فهى تفيدنا أن المقرى لم ينقل عن «القدح» ولم يكن يملكه ، إذ لو كان يملكه لرجع إليه ليستوثق ، وإنما كان ينقل عن ناقل ، أهمل المصدر الذى ينقل عنه ، ورده المقرى إلى أصله بذاكرته الواعية ، ولم يكن متأكدا ، ولكنه كان فى شك فأثبت هذا الذى قال .

وإليك ماجاء فى القدح :

«حلو المنازع، ظريف المطالع والمقاطع، مطبوع النوادر، موصوف بالأديب الشاعر.

مازجته بالإسكندرية ، وبهذه الحضرة العلية ، وهو الآن مرتب تحت إحسانها ، مخصوص لاعتقادها وحنانها . وما زال يؤمن بالانفراد ، والتجول فى البلاد ، حتى قضى

(1) القدح (ص ١١٤ — ١١٥) (2) النفح (٢ : ٣٢٥) مطبعة السعادة .

مثاه ، وألق بهذه المدينة العظيمة عصاه ، لا يخطر الهم له ببال ، ولا يبيت إلا على وعد من وصال ، وأظنه نخلوه من الخيال ، لا يطرقه طيف خيال .

ولما سمع ما ارتجلته في السكين بالإسكندرية ، حين داعبنى باختلاسها زين القضاة ابن القاضى الربعى ، وقال : ما إليها سبيل ، حتى يحضر لك فيها معنى نبيل :

أيا سارقا ملكاً مَصونا ولم يجب ... على يده قَطع وفيه نِصابُ

ستندُبه الأقلام عند عِثارها ... وَيبكيه إن يَعدُ الصواب كِتاب

زاد فيه فأستحق ، وإن كان مسبوقاً فقد سبق :

أحاجيك ما شيء إذا ما سرقته ... وفيه نصاب ليس يلزمك القطع

على أن فيه القطعَ والحد ثابت ... ولا حد فيه هكذا حكم الشرع»[1]

أما ثانى الموضعين اللذين نقل فيهما المقرى عن القدح ، فهو حين ترجم لابن الأبار عبد الله القضاعى يقول :

« وقال ابن سعيد فى القدح المعلى فى حقه — أى حق ابن الأبار :

كاتب مشهور ، وشاعر مذكور ، كتب عن ولاة بلنسية ، وورد رسولا حين أخذ بحتق تلك الجهات ، وأنشد قصيدته السينية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وعارض جمع من الشعراء ، ما بين محظى ومحروم ، إذ أغرى الناس بحفظها إغراء بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ، إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء ، بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأعرض تلك العناية ، فارتحل إلى بجاية ، وهو الآن عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف فى فنونه ، مستقل منه بواجبه ومسنونه ، ولى معه مجالسات آنق من خلق الشباب ، أو أبهج من الروض عند نزول السحاب ،

---

(٢) اختصار القدح (ص ٢١٥)

ومما أنشدنيه من شعره :

ياحبّذا بحديقة دولاب ... سكنتْ إلى حركاته الألبابُ

غنّى ولم يَطرب وسقّ وَهو لم ... يشرب ومنه العُود والأكواب

لا يدّعى لطف الهواء أو الهوى ... ماكنت فى تصديقه أرتاب

وكأنه ممّا شدا مُستهتر ... وكأنه مما بكى أوّاب

وكأنه بنقاره ومداره ... فلك كواكبه لها أذناب[1]

والمقرى هنا واثق غير ظان فيما نَقل عن « القدح »

...

وهذا نص ما فى القدح :

« كاتب مشهور ، وشاعر مذكور ، كتب عن ولاة بلنسية إلى أن كان آخر من كتب عن منهج زيان بن أبى الحملات ، ووفد رسولا عنه إلى هذه الحضرة العلية حين أخذ النصارى بحتق تلك الجهات ، واستصرخ مولانا الأمير المفدى — سقى الله عهده صوب العهاد ، بقصيدته التى سارت بها الركبان فى أقطار البلاد :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وعارضها كثير من الشعراء ما بين محظى ومحروم ، وأغرى الناس بحفظها إغراء بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ، واختار المقام تحت الإحسان الأميرى فلم يقل بالإياب ، وصار صاحب العلامة فى بيت الكتاب ، إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة وقلصت عنه ظل تلك النعمة ، فأخرج عن تلك الغاية ، فارتحل عن إحسان دار إلى بجاية ، وهو الآن عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف فى فنونه ، مستقل بواجبه ومسنونه .

ولى معه مجالسات آنق من خلق الشباب ، وأبهج من الروض غب نزول السحاب ، ولم أجتمع به إلا فى هذه الحضرة العلية ، وبقيت من فوائده فى النفس بقية .

---

(١) النفح (٤ : ٢٨٢) طبعة السعادة .

مما أنشدنيه من محرر نظامه، فأطلعته فى هذا الكتاب كالزهر من أكمامه ، قوله » .

ثم ساق مقطوعتين إحداهما نونية والأخرى بائية كلتاهما ذات ثلاثة أبيات، ثم ساق هذه المقطوعة التى نقلها المقرى[١] .

وبعد هذه المعاوضة التى سقنا أمثلتها بين « القدح » وبين كتابين نقلا عنه ، هما : الإحاطة، والنفح، نحب أن نسوق نقلا آخر، حمله صفحات اندست على مخطوطة «الغصون» ولم تكن منها ، ورأى المتصلون بمخطوطة الغصون أنها من كتاب لابن سعيد لم يبينوه[٢] ، ونرى نحن الآن أنها من القدح، من نسخة أخرى من نسخ القدح، التى لم تخالف مخطوطتى تونس وباريس ، إلا فيما تخالف فيه النسخة النسخة ، فيما اتفقت كلها على إيراده .

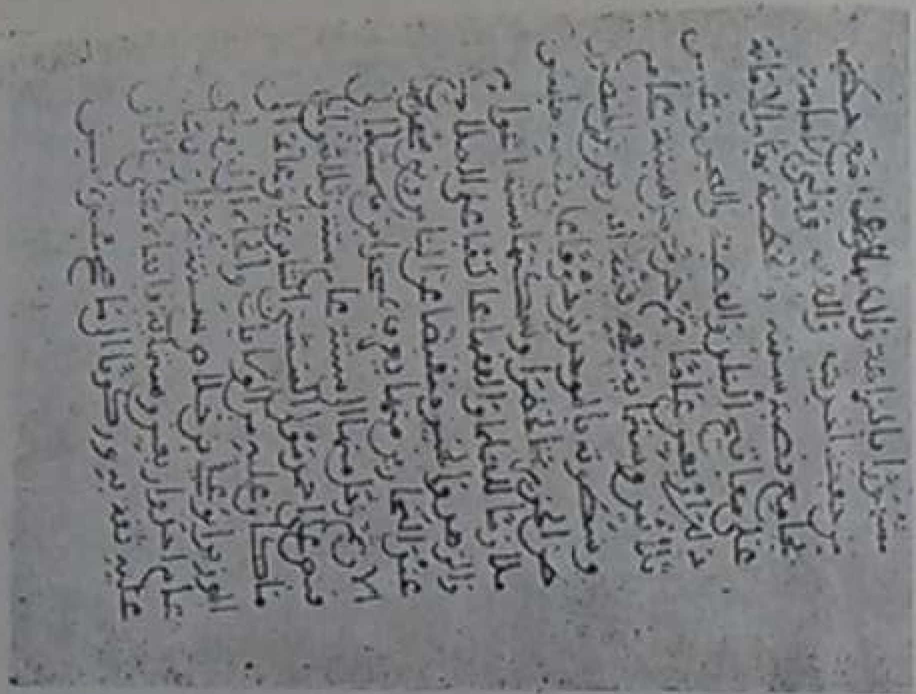
وهذه الصفحات الاثنتا عشرة التى تتصل كلها بترجمة «ابن همشك» جاءت غير متعاقبة فرتبناها ، وها هى ذى مصورة عن أصلها[٣] .

وما نحب أن نثقل بإعادة الصفحات المقابلة من الأصل، ولكنا نجتزئ بالإشارة إليها لترجع إليها مقابلة[٤] .

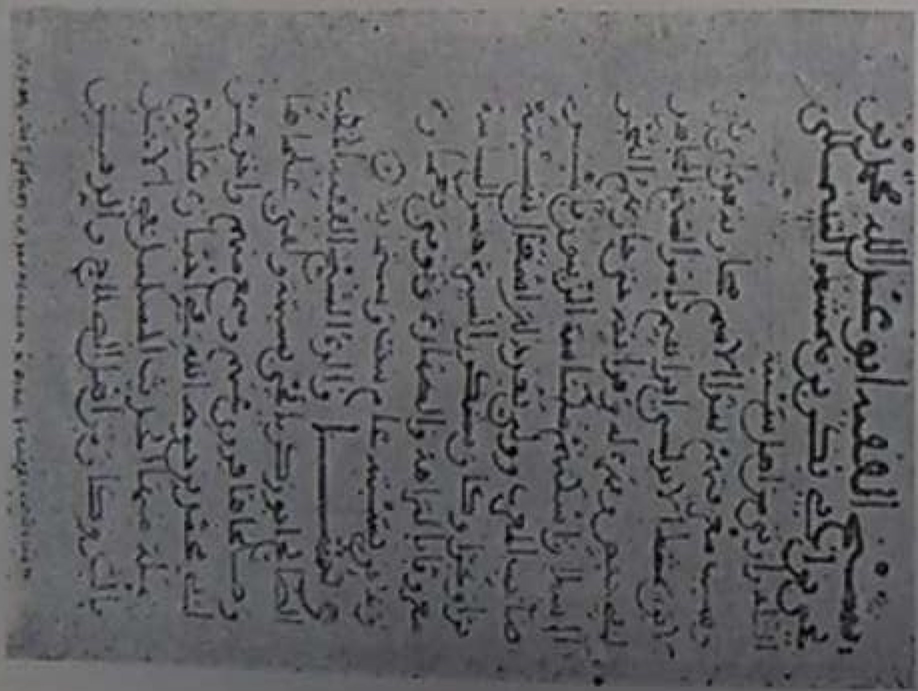
وستجد ستًا من هذه الصفحات الاثنتى عشرة لها ما يقابلها على قرب من الأصل قربا وثيقا ، كما ستجد ستا أخرى ، هى لاشك تتمة لترجمة «ابن همشك» .

ونحب أن نقف هنا وقفة نناقش معها هذه المقابلات ، ما جاء منها مشتركا بين الإحاطة وبين الأصل ، وما جاء منها مشتركا بين النفح وبين الأصل ، ثم ما حملته تلك الصفحات الاثنتا عشرة من ترجمة لابن همشك اتفقت مع الأصل فى ست وأربت عليه بست . وهى فيما أربت به لم تورد كثيرا مما ورد فى الأصل ، منه ما يكون خلال الحديث

(١) اختصار القدح (ص ١٩) .
(٢) انظر الغصون اليانعة (ص س) من المقدمة ، طبعة دار المعارف .
(٣) انظر صفحات (١ — ٦) من القدح المصورة .
(٤) انظر ترجمة ابن همشك (ص ٩٨ — ١٠٧) من القدح .



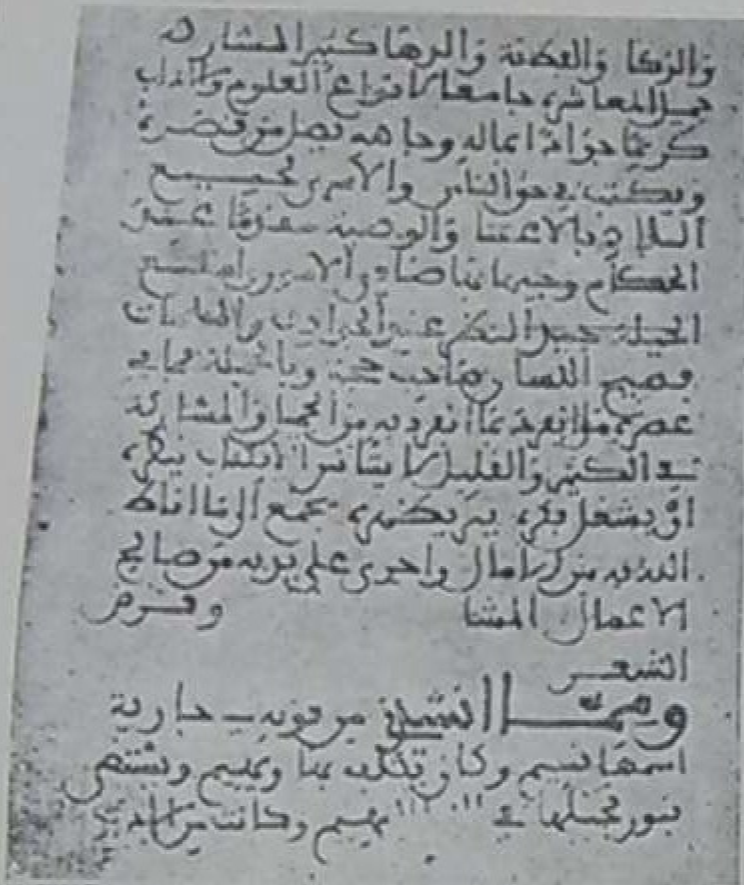
٢ — صفحات من القدح



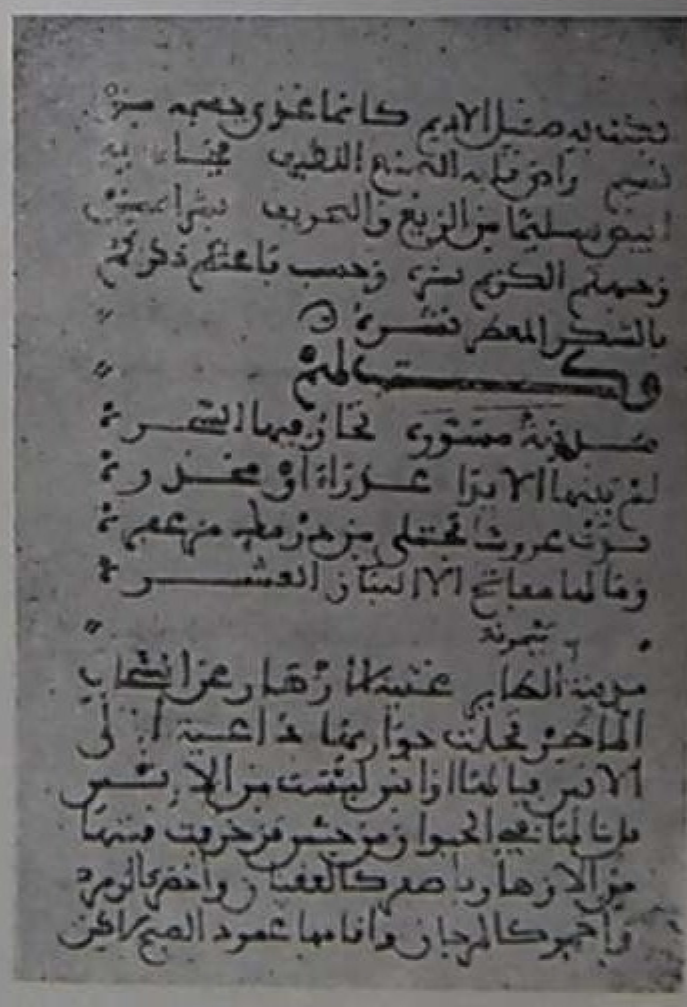
١ — صفحات من القدح



٣ — صفحات من القدح



٤ — صفحات من القدح



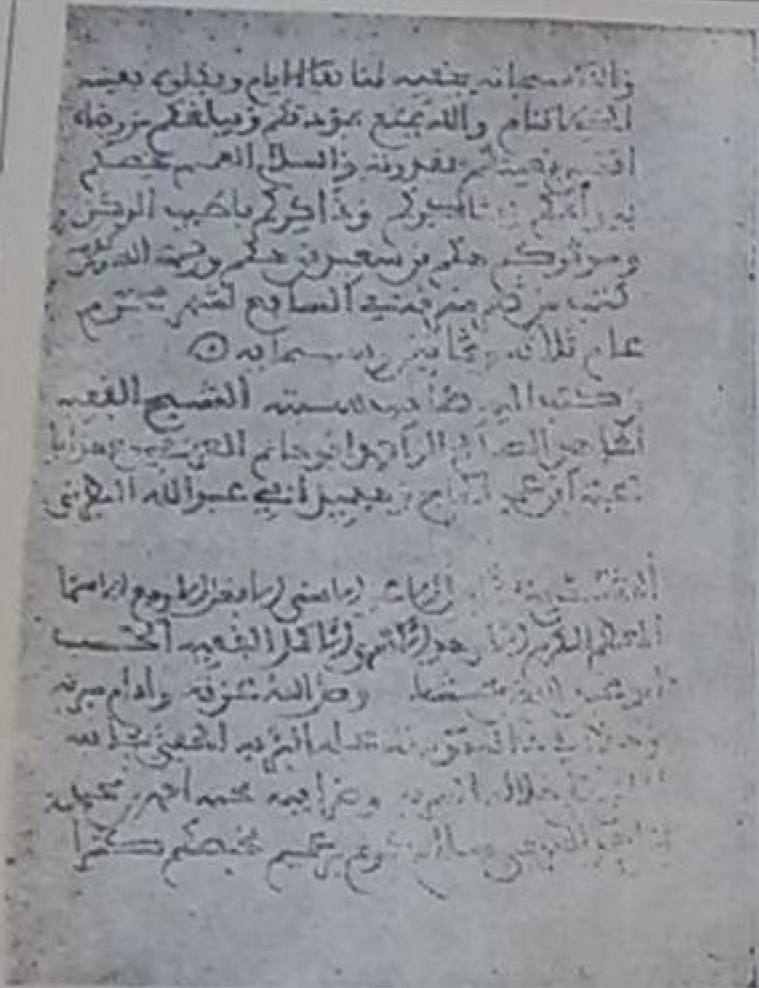
٥ — صفحات من القدح



٦ — صفحات من القدح



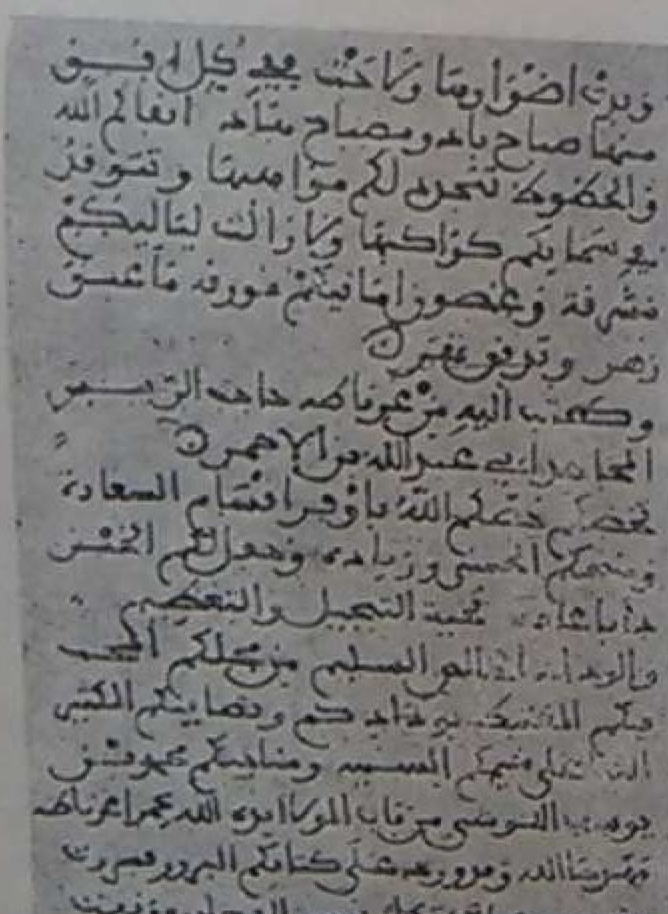
٧ — صفحات من القدح



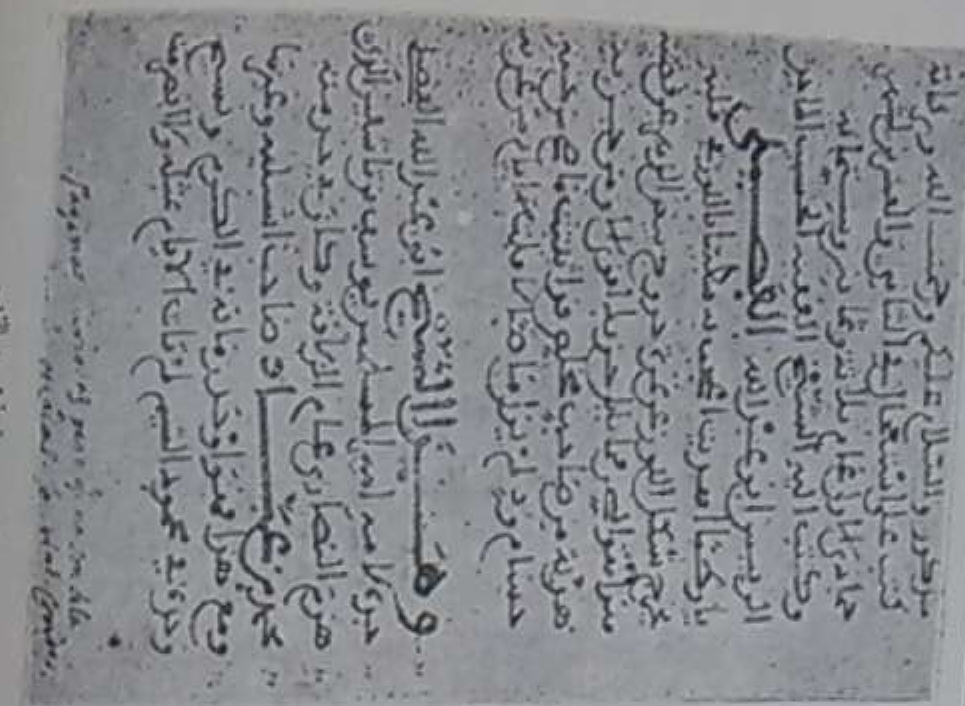
٨ — صفحات من القدح



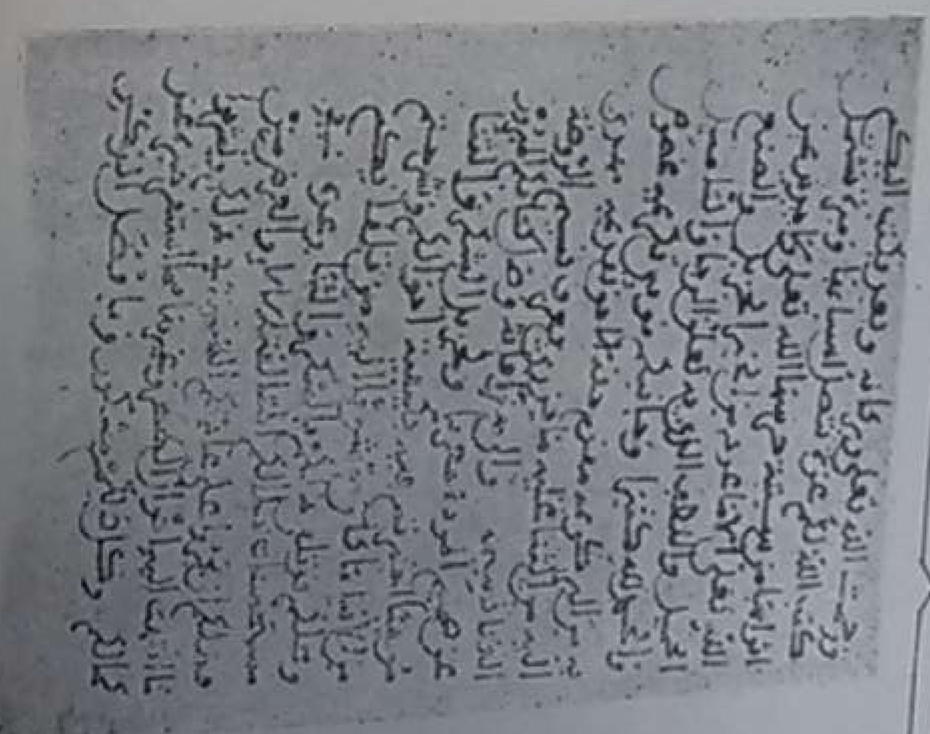
٩ — صفحات من القدح



١٠ — صفحات من القدح



١٢ — صفحات من القدح



١١ — صفحات من القدح

الوارد هنا وهناك ، والذى قد يكون مرده إلى مغايرة الأصول ، ومنه ما يكون منفصلا عن هذا ، ومرده الى أن هذه الصفحات لم تستوعب الترجمة كلها ، أو أن هذه الصفحات المفقودة هى التى تحمل هذه الزيادة .

**

وأنت ترى معى أن ما جاء فى الإحاطة أو النفح ، نقلا عن «القدح» لا عن «اختصاره» كما أشار إلى ذلك الناقلان : ابن الخطيب ، والمقرى — يكاد يملى أن ما بين أيدينا هو القدح لا اختصاره ، بل هو يكاد يؤكد هذا بما حمل الأصل من عبارات لم ترد فى الإحاطة والنفح ، وزاد هو بها .

غير أنا لا نكاد نمضى إلى غير تلك الصفحات الست حتى يُنقض علينا ما كان ظننا ، ثم ما كان تأكيدا . فإن هذه الصفحات الست الأخيرة التى تحمل هذه الزيادة الكبيرة ، والتى دات الست الأولى باتفاقها مع الأصل على أنها من القدح ، تدلنا على أن ما بين أيدينا هو المختصر لا النص الكامل .

ولكن ما بال «الإحاطة» ، ثم ما بال «النفح» ، وهما ينقلان عن القدح نفسه ، لم يخالفا فى نهجهما منهج الأصل الذى بين أيدينا ، هذه المخالفة التى تحملها تلك الصفحات .

لو أن شيئا ولو قليلا وقع فيهما لانتفى كل شك ، واستقر الرأى على أن الذى نملكه هو اختصار القدح لا القدح نفسه .

ولكن دليلا واحدا لا يقوى على قهر دليلين لا شك فيهما ، وهذا الدليل يكاد تدفعه الظنة بأن هذه الصفحات — وإن اتفقت فى بعض وزادت فى بعض — قد تكون من كتاب آخر من كتب ابن سعيد التى ضلت ، وغير بعيد أن يترجم تراجم مكررة ، كما ترجم لأبى العباس الغسانى فى الرايات وفى القدح[1] ، وكما ترجم للرئيس أبى عثمان القرشى فى المغرب وفى القدح[2] ، وكما ترجم لأبى الحسن سهل بن مالك فى المغرب والقدح[3] ،

(١) انظر الرايات (ص ١٠٨) والقدح (ص ١٢ — ١٩) .

(٢) المغرب (٢ : ٤٦٩) والقدح (٢١ — ٤١) .

(٣) المغرب (٢ : ١٠٥) والقدح (٦٠ — ٦٨) .

وكما ترجم لأبى بكر الصابونى فى المغرب والرايات والقدح[1]، وكما ترجم لابن سهل فى المغرب والرايات والقدح[2]، وكما ترجم لأبى الحجاج البياسى فى المغرب والقدح[3]، وكما ترجم لأبى جعفر بن طلحة فى المغرب والقدح[4]، وكما ترجم لابن البناء الإشبيلى فى المغرب والقدح[5]، وكما ترجم للدانى فى المغرب والقدح[6]، وكما ترجم للغسانى فى المغرب والقدح[7]، وكما ترجم للزهرى القرطبى فى المغرب والقدح[8]، وكما ترجم للشلوبينى فى المغرب والقدح[9]، وكما ترجم للدباج الإشبيلى فى الرايات والقدح[10]، وكما ترجم للأعلم البطليوسى فى المغرب والقدح[11]، وكما ترجم للهيثم الإشبيلى فى الرايات والمغرب والقدح[12]، وكما ترجم لابن عتبة الإشبيلى فى الرايات والمغرب والقدح[13]، وكما ترجم للأبذى فى المغرب والقدح[14]، وكما ترجم لابن جحدر الإشبيلى فى المغرب والقدح[15]، وكما ترجم للطريانى فى المغرب والقدح[16].

∴

(١) المغرب (١ : ٢٣) والرايات (ص : ٢) والقدح (٦٩ — ٧٢)
(٢) المغرب (١ : ٢٦٤) والرايات (ص : ٢٢) والقدح (٧٣ — ٨٨)
(٣) المغرب (١ : ٢٠٥ و ٤٢٧، ٢ : ٧٣) والقدح (٩٤ — ٩٥)
(٤) المغرب (٢ : ١٣٦) والقدح (١١٤ — ١١٧)
(٥) المغرب (١ : ٢٤٩) والقدح (١١٨ — ١١٩)
(٦) المغرب (٢ : ٤٠٦) والقدح (١٢٣ — ١٢٥)
(٧) المغرب (١ : ٤٣١) والقدح (١٣٠ — ١٣١)
(٨) المغرب (١ : ٢٢٠) والقدح (ص ١٣٥)
(٩) المغرب (٢ : ١٢٩) والقدح (١٥٢ — ١٥٤)
(١٠) الرايات (ص ١٦) والقدح (١٥٥ — ١٥٦)
(١١) المغرب (١ : ٣٦٩) والقدح (ص ١٥٧)
(١٢) الرايات (ص ١٨) والمغرب (١ : ٢٥٨) والقدح (١٥٨ — ١٦٠)
(١٣) الرايات (ص ٢١) والمغرب (١ : ٢٥٨) والقدح (١٦١ — ١٦٤)
(١٤) المغرب (١ : ٣٣٨) والقدح (١٦٨ — ١٦٩)
(١٥) المغرب (١ : ٢٦٢) والقدح (ص ١٧٢)
(١٦) المغرب (١ : ٢٩٤) والقدح (ص ٢٠٢)

فهذه كثرة من تراجم ألمّ بها ابن سعيد فى أكثر من كتاب له، وإن اختلف نوع الإلمام.

وإن الذى يحمل على أن نجعل ترجمة «ابن همشك» من «القدح». ويثير هذا الظن، ما جاء فى تلك الصفحات، وما جاء فى القدح، من تشابه كثير واتصال طويل، يكاد يخالف غيره من مواضع التشابه الأخرى فى التراجم المكررة.

وتكون تلك الصفحات الست الزائدة شيئا من الزيادة التى حملت مثله النسخة التونسية فى موضع[1]، وحملت مثله النسخة الباريسية فى موضع آخر[2].

وعلى هذا التقدير يكون هذا الدليل الذى أثارته هذه الصفحات الاثنا عشرة من أن الكتاب الذى بين أيدينا «اختصار القدح» لا «القدح» غير قائم، ويرتد دليلا مؤيدا للدليلين الآخرين اللذين يشهدان بغير هذا.

∴

ونعود إلى مقدمة الكتاب، فنجدها ليس فيها تصريح لابن سعيد باسم الكتاب — كما عودنا — ولا بيان بنهجه، فهو حين قدم لكتابه «الرايات» يقول: «وسميته برايات المبرزين وغايات المميزين[3]»، ثم يمضى يعرف بمنهجه فى الكتاب بعد أن صرح باسم المُهدى إليه فيقول: «وقسمته قسمين: القسم الأول يختص بجزيرة الأندلس، والقسم الثانى ببر العدوة».

وكذلك فعل حين قدم للغصون فتراه يقول: «فهذا كتاب الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة» ثم يمضى يبين أقسام الكتاب فيقول: «وترتيب هذا الكتاب على ثلاثة أقسام: الأول فى تراجم الذين تحققت سنو وفاتهم ...... الخ[4]».

وقد نعتذر عن ابن سعيد فى سكوته عن نهج الكتاب وترتيبه بأن الكتاب هنا ليس مثل الكتابين السابقين ينتظم أقساما يحتاج معها إلى بيان، بل هو جملة من تراجم عصره

(١) انظر الصفحات (٢٠٣ — ٢٠٦).
(٢) انظر الصفحات (٢١٤ — ٢١٨).
(٣) انظر مقدمة الرايات (٥ — ٧).
(٤) انظر مقدمة الغصون (١ — ٢).

ويكفيه ما قد قال : « فهذه نبذة خاقانية المسلك والمقصد ، من أخبار أدباء عصرنا هذا ومن عنه يؤخذ وإليه يسند » . ولكنا لا نستطيع أن نجد العذر عنه فى سكوته عن اسم الكتاب .

ولعل هذا الطيف من الشك هو الذى حدا المرحوم الدكتور « زكى حسن » إلى أن يحمل هذه المقدمة لغير ابن سعيد ويضمها إلى مختصر للكتاب ، وهو « أبو عبدالله بن خليل » .

ولكنك لا نكاد نبعد قليلا فى المقدمة حتى نجد صاحبها يهدى عمله إلى أبى زكريا ، ابن المستنصر الحفصى أبى عبد الله .

ونحن نعلم أن المستنصر بن عبد الله محمد ، ولى خلافة تونس سنة ٦٤٧ هـ ، وبقى خليفة حتى مات سنة ٦٧٥ هـ .

ونعلم أن ابن زكريا يحيى ولى خلافة تونس بعد وفاة أبيه ، وبقى خليفة حتى مات سنة ٦٧٨ هـ .

ونعلم أن ابن سعيد وفد عليه وفادتين الأولى مآبه من الحج سنة ٦٥٢ هـ ، وبقى فى ظله يخدمه مع صديقه أبى العباس التيفاشى حتى سنة ٦٦٦ هـ . ثم رحل عنه إلى المشرق وعاد إليه ثانية ، وبقى فى تونس حتى وافاه أجله سنة ٦٨٥ هـ .

ونعلم أن إمرة أبى زكريا كانت مدة خلافة والده أبى عبد الله ، أى ما بين سنتى ٦٤٧ هـ ، وسنة ٦٧٥ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها أبو زكريا خلافة تونس .

ونفيد من هذا أن الكتاب ألفه ابن سعيد فى خلافة أبى عبد الله ، حين كان ابنه أبو زكريا أميرا ، لا ندرى إذا كان ألفه له فى زورته الأولى لتونس ، أى ما بين سنتى : (٦٥٢ هـ) و (٦٦٦ هـ) . أو فى زورته الثانية مبكرا قبل أن يوافى الأجل أبا عبد الله .

لهذا نرى أن المقدمة لابن سعيد ، فبعيد أن يضم المؤلف والمختصر عصر واحد ، وبعيد أن يهدى المختصر إلى أمير يعيش صاحب الأصل المختصر عنه فى ظله .

غير أننا لا نكاد نستقرئ الكتاب حتى نجد بين من ترجم لهم ابن سعيد « أبا جعفر أحمد ابن طلحة » ولقد نقل ابن الخطيب شيئا عنه ، وذكر أن نقله هذا من القدح[1] ، ونجد ابن سعيد آخر ترجمته لابن طلحة يقول ، وهو يذكر خبر مقتله : « وذلك فى سنة إحدى وثمانين وستمائة » .

أما سائر التراجم فى الكتاب فتكاد تحصر وفيات أصحابها ما بين سنتى ٦٢٥هـ و ٦٤٦هـ .

وإنك لتسأل معنا : كيف يهدى ابن سعيد كتابا لأمير انتهت إمرته بسنة ٦٧٥ هـ ؟ ثم كيف يهدى إليه كتابا جاوزت ترجمته فيه سنى الإمرة وسنى الخلافة ؟

وإنى لأكاد أجيب بأن « ابن سعيد » الذى أهدى كتابه « القدح » لأبى زكريا الأمير ، ليس بمنكر عليه أن يزيد فيه ما دام الكتاب بين يديه .

∴

ولكننا لا نكاد نفرغ من هذا حتى نجد شيئا فى ترجمة « ابن يامن »[2] . يجعلنا نقف قليلا ، فالمؤلف يقول فى صدر الترجمة : « وهو عندى أظرف من عاشرته بالمغرب من أهل الأدب » ثم يقول : « وكانت معاشرتى إياه بهذه الحضرة » .

ثم يمضى قليلا فيقول : « ومما اشترك فيه مع الحاج ابن سعيد ومع أبى العباس الغسانى » .

ثم يمضى بعد هذا ويقول : « وخرجنا — يعنى الحاج ابن سعيد وابن يامن — مع أبى العباس الغسانى إلى جنة بالجزيرة . . . . فقال أبو الحسن — وهو يريد الحاج ابن سعيد » .

ومن ثم يذكر المؤلف فى ترجمة « الغسانى »[3] « الحاج أبا الحسن » مرة أخرى ، وقد كتب إليه الغسانى شعرا .

---

(١) القدح (١١٤ — ١١٧) الإحاطة (١ : ٢٤٤ — ٢٤٥)

(٢) القدح (٥٢ — ٥٩) .

(٣) القدح (ص ١٧) .

والحاج ابن سعيد أبوّ الحسن، هو لاشك رجلنا المعنىّ هنا: أبو الحسن على بن موسى ابن سعيد .

إذن كيف يحدث المؤلف عن نفسه بهذا الأسلوب، وهو الذى يقول فى الكتاب: «قلت، وأنشدنى، وأخذت عنه، وقابلته» .

ترى هل نحن أمام دليل ينقض علينا ما ذهبنا إليه ورجحناه من أن الكتاب لابن سعيد، وأنه هو القدح لا اختصاره؟ وأن هذا الذى بين أيدينا هنا فى ترجمة «ابن يامن» لون من ألوان الاختصار؟

لقد جمعنا شعر ابن سعيد فلم نجد له هذا البيت الذى ساقه يعارض به أبا العباس وابن يامن، وهو:

كأن الماء قد أمسى سماء   فصاغ له من الشفق الدرارى

ولم نجد لابن يامن ترجمة فى موضع آخر تكشف عن هذا، وتصدير الترجمة هنا لا يختلف عن غيره من التصديرات الأخرى التى امتلأ بها الكتاب. والمؤلف معاصر لابن يامن، ما فى ذلك شك، يحدث عنه فى التصدير صريحا كما قدمت لك. ثم إن الكتاب ملء بما يثبته لابن سعيد لا تكاد تخلو ترجمة من إشارة إلى ذلك .

ثم ما بال المختصر فعلها فى واحدة وكان المجال أمامه متسعا والمشاكلات لهذه كثيرة، وما باله وقف عند هذه ولم يتجاوزها إلى غيرها .

لقد قدم المؤلف فى ترجمة «ابن يامن» رجلا هو أبو عبد الله بن أبى الحسين، شاعرا عارض «ابن يامن» .

وهذا الرجل له ذكر فى أخبار ابن سعيد، ولابن سعيد شعر إليه[1]، اجتمع عليه أبو العباس الغسانى .

(١) القدح (١٠ — ١١) .

ترى هل نحن أمام تحريف فى المخطوطتين، فهؤلاء ثلاثة اجتمعوا فى عصر المؤلف، وكان بينهم اتصال فى القول، هم: أبو عبد الله بن أبى الحسين، وأبو القاسم بن يامن، وأبو العباس الغسانى، كما كان بين اثنين منهم وبين المؤلف اتصال، وهما: ابن أبى الحسين، والغسانى .

والذى يعنينا هنا ذلك الاتصال الذى كان بينهم، والذى نقل «القدح» لنا فى صدر ترجمة «ابن يامن» شيئا منه بين «ابن يامن» وبين «ابن أبى الحسين»، والذى أكاد أظن أنه تمهيد لما بعده، ثم جاءت المخطوطتان فيه متفقتين على شىء لعله تحريف .

وإن صح هذا الظن فلعل «أبا عبد الله بن أبى الحسين» هو أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد، كتب هنا باسمه لا بكنيته، ولعل العبارة الأولى على ظننا: «ومما اشترك فيه مع الحاج ابن سعيد» تعنى أبا عبد الله هذا، ولعل العبارة الثانية على ظننا: «فقال ابن أبى الحسين» .

وإن صح هذا استقامت لنا الأدلة كلها، وإن لم يصح فتكاد تخرجنا هذه الترجمة — أعنى ترجمة ابن يامن — إلى شىء آخر، هو أن هذه الترجمة تحمل شيئا دخل على «القدح» وليس منه، أو لعل هذا الشىء الذى دخل على الكتاب كان حاشية لبعض القارئين انضاف بعد إلى النسخة، لا سيما والحديث الذى يحمل هذا الاضطراب جاء متصلا، وانقطاعه لا يضير الترجمة، بل هى متصلة دونه .

ونحن بعد هذا كله بين يدى ترجمة جاءت فى صدر الكتاب بعد المقدمة، تترجم لابن سعيد، ذات تصدير على غرار غيره من الكتاب، ثم ذات سياق لا تحس أنه غريب عن سواه، واتساق يكاد يكون مع ما عداه .

والطريف فى هذه الترجمة أنها لم يُشر فيها إلى سنة وفاة صاحبها، شأنها شأن تراجم أخرى سكت فيها المؤلف عن وفاة أصحابها[1]، وهو الذى كان حريصا مع تراجم أخرى، إن فاتته سنة الوفاة أن يشير إلى انقطاع أخبار المترجم عنه، أو بُعده منه، وأنه لم يعُد يسمع عنه شيئا .

(١) انظر تراجم: الغسانى (١٢ — ١٩) وابن حازم (٢٠ — ٢٧) والقرشى (٢٨ — ٤١) والقزوى (٤٢ — ٥٢) وابن يامن (٥٣ — ٥٩) وابن مالك (٦٠ — ٦٥) وابن الخيال (٦٦ — ٦٨) وغيرها .

أما الترجمة التى سكت فيها ابن سعيد عن ذكر الوفاة ، فما نشك أنه خلف صاحبها حيًّا ومضى هو ، ولو غير ذلك لذكره إشارة أو تلميحا .

والملحوظ على هذه التراجم ، التى لم تؤرخ فيها وفاة ، أنها تبدو كالمبتورة لا يحس معها وقفة لانتهاء ، وكذلك جاءت ترجمة ابن سعيد .

ولكن هذا المؤلف حين يسكت عن أن يؤرخ عن بعض من لم يؤرخ لم كان عن إحدى اثنتين كما قدمنا :

أولاهما — عن معاصرة لم تنته وعمر محدود يمنع مثلها .

ثانيتها — عن جهل من المؤلف بما صارت إليه حال المترجم له لبعده عنه .

ولو سلمنا أن هذه الترجمة كانت لمختصر اختصر الكتاب ، فهو كذلك بين اثنتين :

الأولى — أن يكون معاصرا لابن سعيد ، وما نظن معاصرا يعنى نفسه باختصار كتاب وصاحبه حى ، ويهديه عنه إلى أمير يعيش صاحب الكتاب فى ظله .

الثانية — أن يكون متأخرا عن ابن سعيد . وما نظن ابن سعيد بالذى يجهل تاريخ وفاته ، وما نظن مختصرا للقدح متصلا بالكتاب ، يجهل المؤلف ويجهل المظان التى كتبت عنه ، وقد فاضت بها الكتب التى ترجمت لابن سعيد ، وما أكثرها .

⁂

إذن بقلم من كتبت هذه الترجمة ، بعد أن نفينا أن تكون لكاتب معاصر أو متأخر .

لقد أغرانا أسلوبها المسجوع وكلامها المتخير بأن تكون لكاتب ممن هذه شنشنتهم كالعمرى[1] (٧٠٠ هـ — ٧٤٩ هـ) وابن الخطيب[2] (٧١٣ هـ — ٧٧٦ هـ) ممن ترجموا لابن سعيد ، وظننا هذه الترجمة عن واحد منهما ، مهملين جانبا إغفالها تاريخ

(1) انظر مسالك الأبصار (جـ ٨ ق ٢ ص ٣٨٢ — ٣٨٨) المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة .

(2) انظر الإحاطة (ص ٧٨) مخطوطة الاسكوريال مصورة دار الكتب المصرية برقم ١٣٨٤٧

الوفاة ، فوجدنا الأسلوب غير الأسلوب والنهج غير النهج ، ورجعنا نشاكل بها كلام ابن سعيد فى تصديره ، فوجدناها شيئا لا يكاد يهدى .

وغير بدع أن يترجم الشيخ لنفسه ، ولقد فعلها ابن سعيد فأورد لنفسه ترجمة فى المغرب[1] ، وغير ابن سعيد من المغاربة نفر آخرون ، منهم ابن الإمام فقد ترجم لنفسه فى «سمط الجمان» ، و«الحجارى» فقد ترجم لنفسه فى «المسهب» ، و«ابن القطاع» فقد ترجم لنفسه فى «الدرة الخطيرة[2]» و «ابن الخطيب» فقد ترجم لنفسه فى «الإحاطة[3]» .

وغير ابن سعيد من المشارقة : السخاوى ، فقد ترجم لنفسه فى «الضوء اللامع» ، و «ابن حجر» فقد ترجم لنفسه فى «رفع الإصر» .

وغير بعيد أن تكون هذه الترجمة هنا هى لابن سعيد أيضا ، كتبها عن نفسه لهذا الكتاب «القدح» أو لغيره ، وما أميلنا إلى أن تكون من تراجم ، «الطالع السعيد فى أخبار بنى سعيد» ، لهذا وقف ابن سعيد عن أن يمضى فيما مضى فيه مع غيره بذكر تاريخ وفاتهم ، ولهذا اجترأ فيها ابن سعيد بما يجترئ عندما يترجم للأحياء المعاصرين .

ولكن شيئا يكاد يشككنا فى هذا الاتجاه ، ألا وهو كيف يجوز لمترجم أن يمدح نفسه هذا المديح الذى يمدح به ابن سعيد نفسه .

⁂

والآن فلنلتفت إلى مؤلف الكتاب فى ضوء ما أثارته مخطوطة تونس حين نسبته إلى محمد بن عبد الملك ، جد ابن سعيد .

والخطب فى ذلك يسير ، فنحن نعرف أن الكتاب كتب بقلم رجل من رجالات القرن السابع الهجرى ، وأنه أهداه إلى أبى زكريا يحيى الهنتاتى الحفصى . الذى كانت وفاته سنة ٦٧٨ هـ . وأن أدنى من ذكر فيه سنًّا هو أبو القاسم بن حسان الإشبيلى الذى كانت وفاته سنة خمس وعشرين وسبعمائة[4] ، وأن أعلى من ذكر سنًّا هو أبو جعفر أحمد بن طلحة ، الذى كانت وفاته سنة إحدى وثمانين وستمائة[5] .

(1) انظر المغرب

(2) انظر النفح (٣ : ٢٩)

(3) انظر الإحاطة

(4) القدح (١٤٩ — ١٥٠)

(5) القدح (١١٤ — ١١٧)

وما أدرك محمد بن عبد الملك القرن السابع ولاقاربه ، فلقد كانت وفاته سنة ٥٨٩ هـ .

ولكن كيف جاء هذا الوهم إلى المخطوطة التونسية ، فدُون مرتين ، إحداهما جاءت فى صدر الكتاب ، والثانية جاءت فى تضاعيف هـذا الإشهاد الذى حبست به النسخة على الجامع الأعظم بتونس [1] .

أما ثانيتهما فدفعها يسير ، لأنها لا شك استمليت من الأولى مع اختصار .

غير أن هذا شىء جدير بالاعتبار ، فلم يكن يضير الناسخ شيئا أن يكتب الاسم كاملا كما جاء فى صدر الكتاب ، لا سيما وهو يوثق وثيقة ، وما أولى الوثائق بالإيضاح وأبعدها عن اللبس والغموض ، فيكتبه : «قد حبس هذا الكتاب المسمى بالقدح المعلى لابن عبد الملك» على حين قد صدر الكتاب كاملا «لابن الشيخ الفقيه أبى عبد الله محمد بن عبد الملك سعيد» .

فاجتزاء الناسخ بما اجتزأ به شبه دليـل على توقفه وتشككه ، ورأى نفسه حين فعل ما فعل واختصر ما اختصر قد تحلل من ورطته شيئا ما ، فكتب الاسم مصدرا إياه بكنية ، قد تعم الأبن الأدنى ومن هو لحماً ، أى قد يندرج تحتها « على » نفسه ، أو مَن هو من ولد عبد الملك .

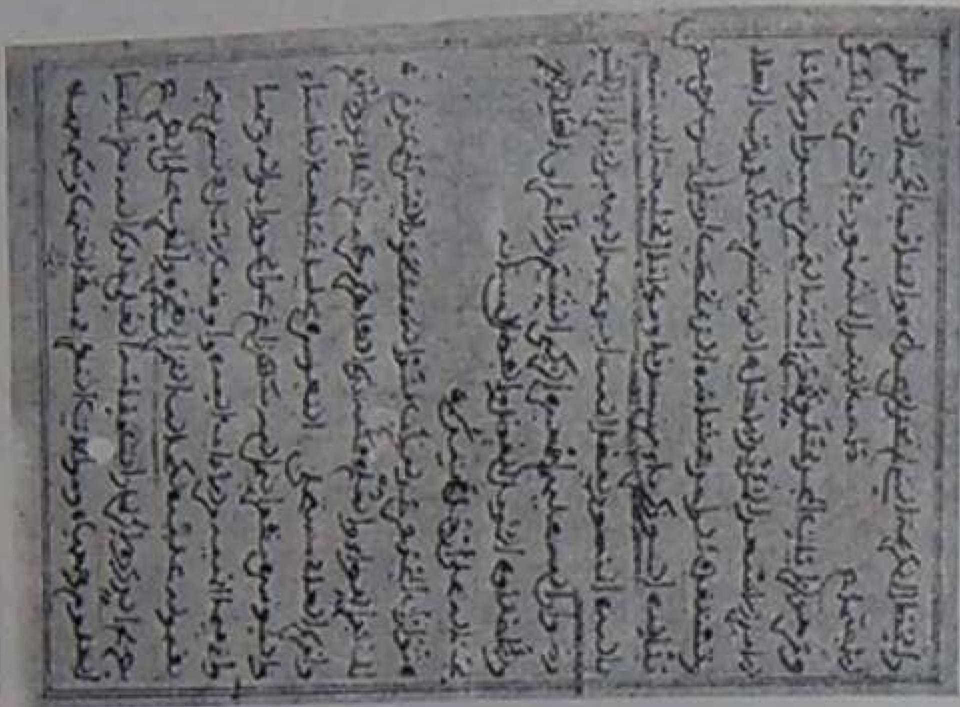
ما نشك أن الناسخ اختصر الاسم لهذا ، وهو يظن أنه قد فعل شيئا يرده إلى بعض الاطمئنان ، حين لم يقو على غيره يرده إلى الاطمئنان كله ، إذ كانت أقل نظرة فى الكتاب تخلص الكتاب من هذا الشك .

ثم إن هذا التعليل الذى سقناه مع الثانية يكاد يدفعنا إلى مثله مع الأولى ، أعنى ما جاء فى صدر الكتاب .

وأكبر الظن أن مخطوطة تونس صورة عن نسخة أخرى تسبقها ، فتاريخ نسخها سنة ١٣٥٦ هـ ، وأين القرن الثالث عشر من القرن السابع ، قرون ستة بعيد أن تمر دون أن يكون الكتاب نسخ مرة ومرة .

---

(1) انظر اللوحة الأولى والثانية من مخطوطة تونس .





الصفحتان الأولى والثانية من مخطوطة تونس

وأكبر الظن أن النسخة الأولى كانت تحمل الاسم كاملا «أبو الحسن على بن موسى ابن محمد بن عبد الملك بن سعيد». فعدا الناسخ سهوا عن بعض الاسم إلى بعضه، وما أكثر ما يقع هذا، بجاء هذا التحريف.

أو لعل النسخة المنقول عنها كانت تحمل مع الاسم طمسا أو شبه طمس، ولم يكن الناسخ ذا بصر، فعدا عنه الناسخ غير معنٍ نفسه.

وبقيت النسخة المنقولة على حالها تلك حتى القرن الثانى عشر الهجرى، فيكل مَلِكُ تونس إلى من يذيع له عليها صيغة الحبس أو الوقف، فيقف من النسخة الموقف الذى أدلينا فيه برأى.

*

وقبل أن نمضى فى مناقشة الكتاب الذى بين أيدينا، هل هو القدح أم اختصاره، يجب أن نعود قليلا إلى ما قدمناه. فالقدح المعلى، كما كتب ابن سعيد آخر كتابه «نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب»، كتاب شامل جامع لمجلدات ليست دون أربعة إن لم تكن أكثر، لكل مجلد منها اسم متميز كاشف عما ينتظم. وإن صح إن ابن سعيد امتد بكتابه «القدح» إلى الأندلس نخصها بمجلد، وما نشك فى ذلك، فما من شك أن هذا المجلد كان يحمل اسما كتلك الأسماء التى وزعها ابن سعيد على مجلدين من القدح، صرح بهما، وهما: «نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب» وثانيهما «مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الإسلام».

ولكن ناقلا له خطره مثل «ابن الخطيب» فى «الإحاطة»، وآخر لا يقل عن الأول تحفظا، وهو «المقرى» فى «النفح»، ينقلان عن كتاب اسمه «القدح المعلى».

وما نظن أنهما أهملا الاسم الخاص إلى الاسم العام، إلا إذا مالاَ إلى التوسع الملبس، وليس يلجأ إلى ذلك مثل ابن الخطيب والمقرى، دون أية إشارة كاشفة.

وهكذا يترك ابن سعيد لنا كتبه تحمل اللبس دائما، سقنا شيئا من هذا فى مقدمتنا لكتاب «الغصون اليانعة» واليوم نعرض لمثله فى مقدمة هذا الكتاب.

ونحن هنا بين دليلين لا يلين أحدهما للآخر، أولهما هذا الذى حمله كتاب «نشوة الطرب» وثانيهما هذا الذى ساقه ابن الخطيب والمقرى.

هذه مشكلة لا نملك فيها رأيا قاطعا، فلعل الزمن الذى أسعف بكتاب «نشوة الطرب» وهو الثانى من الموسوعة، يسعف بما قبله وما بعده، عندها يملك المتكلم أن يقول هذا، ونهج الموسوعة التى تحمل اسم «القدح المعلى فى التاريخ المحلى»، التى ظفرنا منها باسمى مجلدين، ووقع لنا من هذين المجلدين مجلد، هو «نشوة الطرب»، وكشف لنا هذا المجلد عن أسلوب خاص يكاد يكون هو أسلوب الموسوعة، يستوى فيه ما سبق، ولا يبعد عنه ما لحق.

وليس منه — دون شك — أسلوب «القدح» الذى بين أيدينا بل هو نهج جديد بخط آخر، ولو كان منه لحمل اسما خاصا يميز. كما حمل الجزآن الآخران.

ترى: هل وقف ابن سعيد عند مرحلة أو مرحلتين من الموسوعة الأولى، ثم خلع اسما قديما على مؤلف حديث، لمشاكلة قامت فى ذهنه. وهذا ما نميل إليه، لما قدمنا من أن ناقلين لهما خطرهما نقلا عنه وسمّياه باسمه.

أم أن الكتاب الذى بين أيدينا وُجد غفلا من اسمه، ثم حمل هذا الاسم عفو الخاطر، وهذا ما تدفعه لقرب عهد هذين الناقلين اللذين سميناهما من عهد الكتاب وعهد مؤلفه.

ولكن هل نُرد إلى ما نستبعده، ونرى هذه المخالفة بين هذا الجزء الخاص بالأندلس، وبين نهج الكتاب العام بجملة، ما يجعل هذا الكتاب اختصارا حقا، اختار مختصره ما اختار، ثم ألف بين هذا المختار، فكان هذا الكتاب الذى جاء على نمطه آخره يخالف نمط الكتاب العام.

ولكن أين تلك النقول التى جاءت صريحة عن القدح، وعن مختصره ؟

---

(١) انظر الصفحتين المختارتين من «نشوة الطرب».

ولكنا الآن بين كتابين ، كل منها يسمى القدح ، هذا الأول الذى هو موسوعة جامعة ، وهذا الثانى ، الذى هو كتاب خاص ، والذى سنحدثك حديثه ، هل هو «القدح» أم هو اختصاره .

وإذا صح أن هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو «القدح» ، فمن أنى له بهذه التسمية التى حملتها مخطوطة باريس ، وهل للقدح اختصار ؟ وهل مختصره إن صح أن له اختصارا ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل ؟

لقد انفردت مخطوطة باريس وحدها بهذه العبارة التى حملتها فى ورقتها الأولى : «اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى» ثم تقفى بهذه العبارة : «اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل ، رحمه الله . من تأليف الأديب الأجل المؤرخ أبى الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى . رحمه الله وغفرله» .

ثم تزيد فى الركن الأيمن من الصفحة الأولى بخط فارسى مجود : «الفائز من نعم المولى بالحظ الأوفى والقدح المعلى عبده الفقير الجانى ، أبو بكر بن رستم الشروانى ، خصه الله بمزيد فضله وكرمه» . ثم كتب تحتها : «فى سنة ١٠٨٨ هـ»[1] .

أما عن مخطوطة تونس ، وهى متأخرة التاريخ عن مخطوطة باريس بنحو من قرنين ، فلم تدن بشئ من هذا الذى حملته مخطوطة باريس ، وكانت عنه بمعزل ، والنص هو هو ، يزيد عنه ويكمله فى بعض المواضع . وكأن قرنين سبقا لم يكتبا الشيوع لهذا الاسم الذى حملته مخطوطة باريس أن يشيع و يلتفت إليه .

(١) الورقة الأولى من مخطوطة باريس .



١ — صفحة من نشوة الطرب



٧ — صفحة من نشوة الطرب

وأما المظان الأخرى التى سبقت تاريخ مخطوطة باريس ، وذكرت مؤلفات ابن سعيد ، أو نقلت عنها ، وآخرها النفح للمقرى (١٠٤١ هـ) ، فلم تذكر هى الأخرى هذا الاختصار ولم تشر إليه .

وكأن ظهور هذا الاسم الجديد « اختصار القدح » كان بين سنتى (١٠٤١ هـ) و (١٠٨٨ هـ) . ولا يعنينا ما سجله فهرست المكتبة الأهلية بباريس من أن مُختصِر القدح هو المُهديه إلى أبى زكريا يحيى الحفصى، ولا ما أثبته عنه الدكتور «زكى حسن» فى تقديمه لكتاب «المغرب»[١] ، فقد قلنا كلمتنا فى ذلك[٢] .

والغريب أننا لا نحس أثرا لهذا المُختصِر الذى اكتفى بذكر اسمه على الورقة الأولى ، وترك لنا هذا اللبس المبهم . فهو لم يدون لعمله مُقدمة يشرح فيها ما فعل ويدل بها على نفسه ، شأن غيره ممن يتناولون مثل هذه الأعمال ، وهو لم يترك خلال صفحات الكتاب ولا أسطره شيئا مما يشير من قرب أو بعد إلى أنه اجتزأ هنا واختصر هناك ، كما فعل «البلفيقى» مثلا حين اقتضب «تحفة القادم» لابن الأبار[٣] .

ثم هو لم يتوج اسمه بلقب يميزه نعرفه به بين المتصلين بالحياة الأدبية أو التاريخية .

لكن مخطوطة باريس بما حملت ، وعلى الرغم مما قيل ، لن تكون إلا صدى لشئ وقع، وبعيد أن يكون شيئا ابتدع دون حقيقة أولى .

غير أنى أشك فى شئ ، أشك أن الورقة الأولى ليست من كتابها الذى وضعت له ، وإنما ضمت إلى القدح ولم تضم إلى الاختصار ، ودليلى على هذا أنها بخط غير خط الكتاب، وأنها لا تضم وراءها تلك المقدمة التى يجب أن تكون للمختصر ، وأن ما انضمت عليه هو القدح وليس الاختصار .

ولكنى لا أنهى الحديث قبل أن أثير شيئا يخالجنى، هو ظن، ولكن الظنون لا تضير بما هى قد تُثير :

(١) المغرب (م ٢٠) القسم الخاص بمصر .

(٢) انظر (ص ٦) من هذه المقدمة .

(٣) المقتضب من تحفة القادم .

هل يكون بعيدا أن قارئا ألم بمخطوطة من القدح تنقص ورقتها الأولى، وكان على علم بأن لابن سعيد كتابا اسمه القدح ، وكان على يقين من أن هذا المجموع شئ منه ، ولكن شيئين رداه عن أن يكون ما يقرأ هو القدح :

أما أحدهما ، فما فى المقدمة من كلمة تثير شكا وهى « فهذه نبذة . . . اقتضبتها بقصد الاختصار» .

أما ثانيتهما، فهى تلك الترجمة التى جاءت عن ابن سعيد ، وكان فى ظنه أن المؤلف لا يترجم لنفسه .

من أجل هذه وتلك ظن الكتابَ « اختصار القدح » لا « القدح نفسه » . ولعل هذا القارئ كان « أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل » ولعله لم يشأ أن يمر بهذا دون أن يدونه ، فكتب اسم الكتاب كما ظن ، ولما كان هو صاحب ذلك الظن مهره باسمه ، لا على أنه مختصر بل على أنه مستدرك. ثم تتداولت المخطوطة الأيدى فتستحيل الأمور إلى هذا الوضع الأخير ، ويصبح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل ، بعد قليل هو صاحب الاختصار.

* * *

والآن نعود بك قليلا الى هاتين المخطوطتين : الباريسية والتونسية .

أما الأولى فقد عثرت عليها فى زورة لى إلى باريس ، فطلبت تصويرها وحملتها معى لأخرجها .

وما كدت أصل القاهرة ، حتى بدأت أعمل فيها جاهدا ، ولكنى توقفت مع خط ردئ لا يكاد يبين ، ونقص معيب مشين ، وتمنيت لو أن لهذه النسخة الفريدة أخرى .

ويزورنى صديق من المغرب كريم ، وكان قد علم همّى بإخراج القدح ، فاذا هو يحمل معه شريطا لمخطوطة أخرى ، هى مخطوطة تونس التى حدثتك عن شىء منها .

واذا بين يدى مخطوطة طيبة صحيحة ، تكمل نقصا ، وتجلو غامضا ، وتكشف عن لبس ، فُرددت إلى مقنع ، ومضيت أنجز ما بدأت .

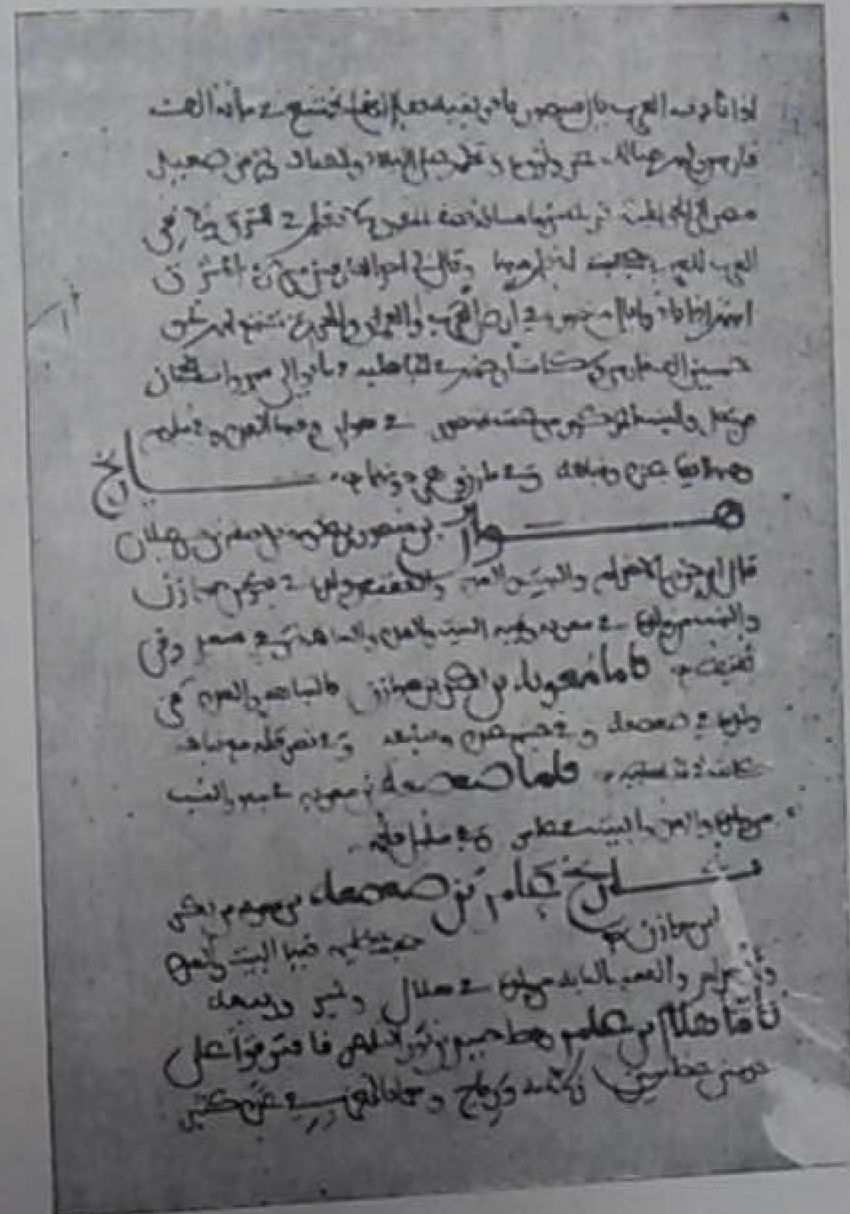
وقد عرفتك بمخطوطة باريس ومخطوطة تونس ، ووضعت تحت بصرك لوحات منهما تراها مع هذه المقدمة .

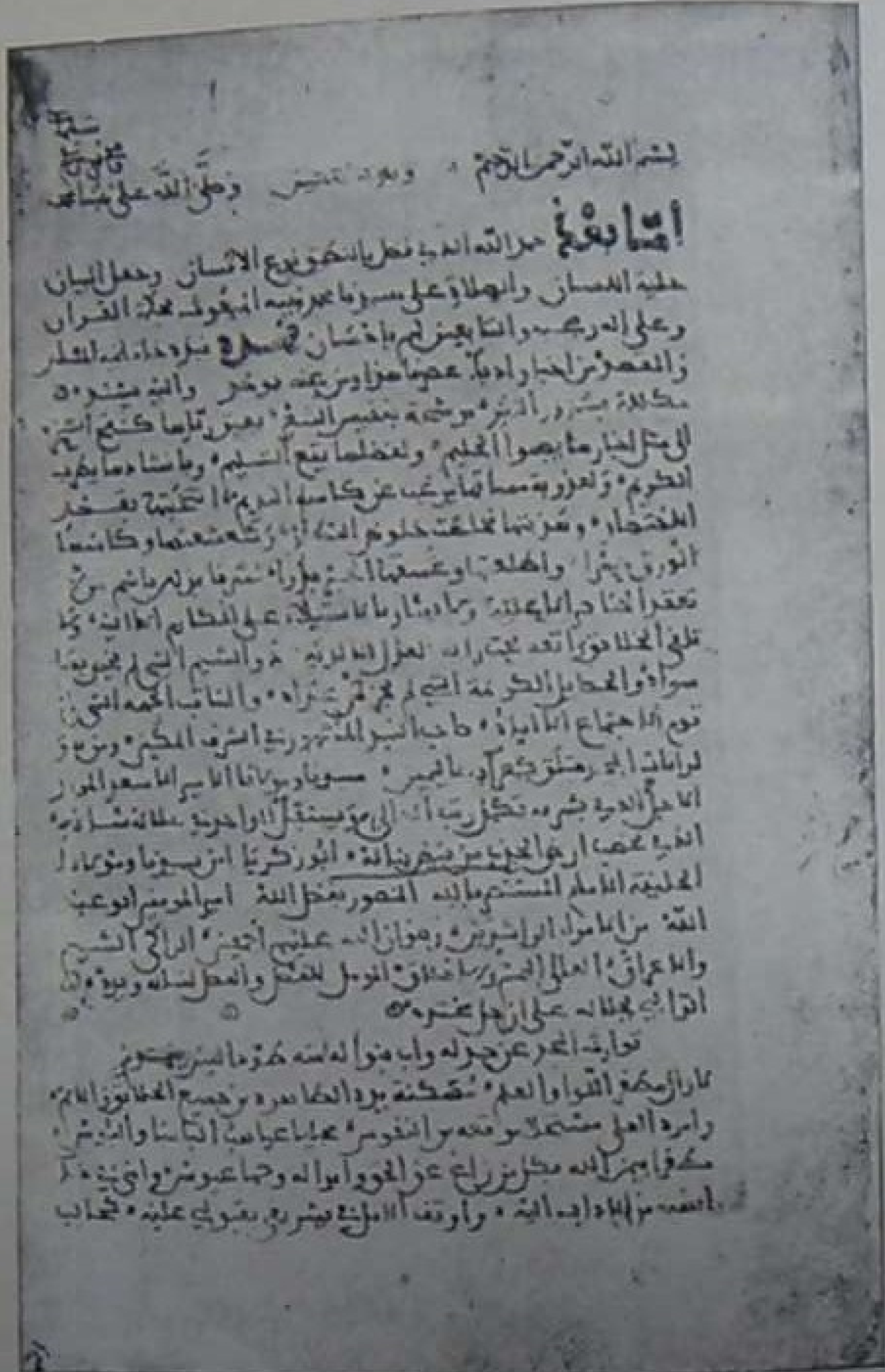
وقد جعلت معتمدى نسخة باريس ، أشرت إلى صفحاتها فى جانب صفحات هذا الكتاب ، لأربط بين شىء وشىء .

وبعد فها هو ذا «القدح المعلى» بين يديك ، تقرؤه فى حروف جلية ، بعد أن قرأته أنا فى حروف غامضة لا تُبين ، قد استقام لك النص أو كاد . وما أحرصنى على أن أعرف ما لم أعرف ، وأهتدى بهدى الراغبين .

بقى علىّ شكر ، هو خير ما يُختتم به الحديث ، أهديه خالصا لأستاذى الكبير ، السيد الدكتور طه حسين ، حين تفضّل فسمع ، وحين تفضل فأجاز .

إبراهيم الأبيارى

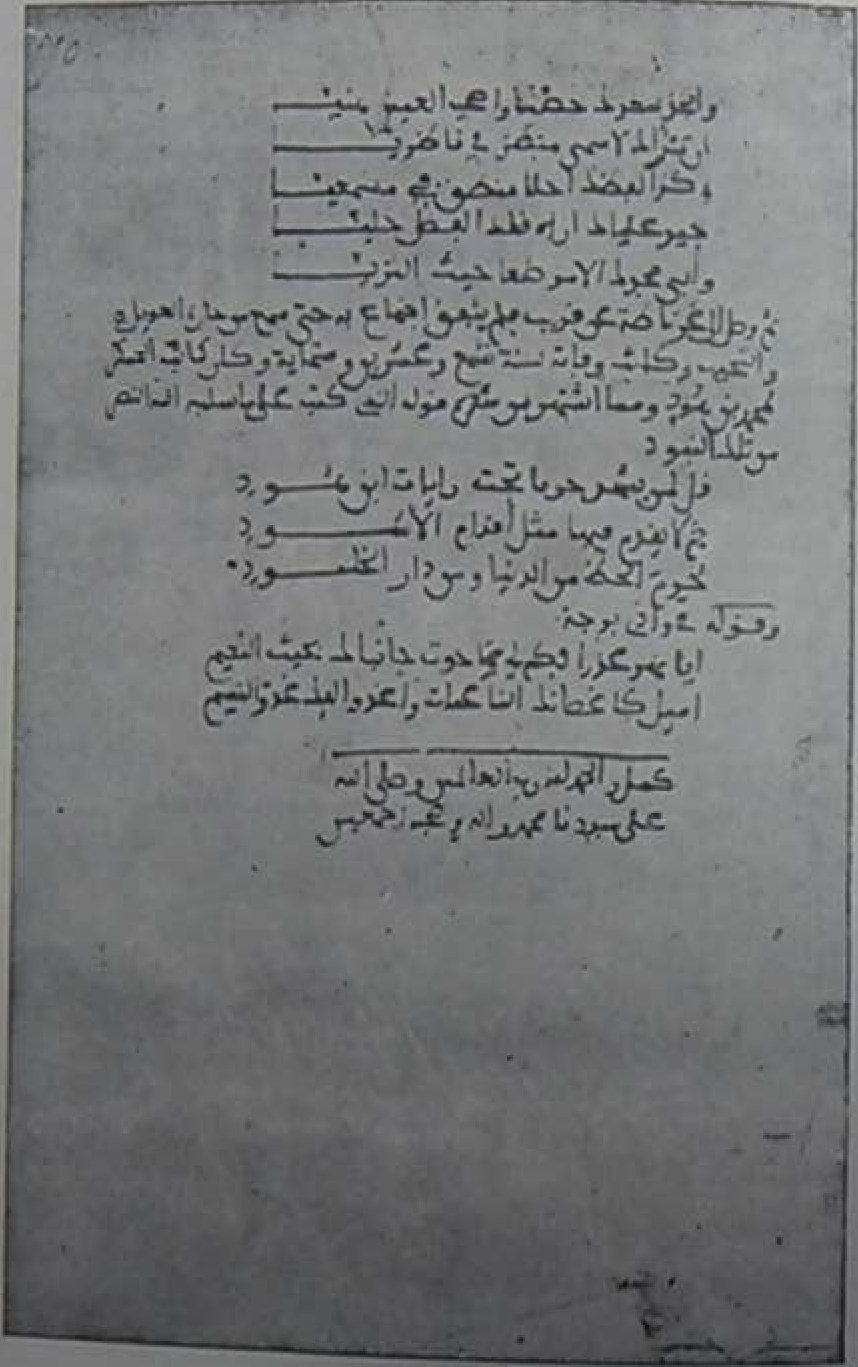




الصفحة الأولى من مخطوطة باريس



الصفحة الثانية من مخطوطة باريس



الصفحة الأخيرة من مخطوطة باريس



ابو عبد الله محمد بن عمار البرجي

صفحة من مخطوطة تونس



الصفحة الأخيرة من مخطوطة تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

[2A]

وبه نستعين . وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليما

أما بعد حمد الله الذى فضّل بالنُّطق نوعَ الإنسان، وجعل البيان حلية اللِّسان ؛ والصلاة [والسلام][(1)] على سيدنا محمد نبيِّه المبعوث بحكمة القرآن، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

فهذه نُبذة خاقانية[(2)] المَسلَك والمَقصِد ، من أخبار أُدباء عصرنا هذا ومن عنه يُؤخذ وإليه يُسند ؛ مُكللة بشُذور النثر، موشَّحة بنفيس الشِّعر ، تعبَق ريَّاها كنفح السحر[(3)] . إلى مثل أخبارها يَصبو الحَليم ، ولِفَضلها يَقع التَّسليم ، وبإنشادها يَطرب الكريم، ولعُذوبة مَساغها[(4)] يَرغب عن كأسه النَّديم . انتخبتُها بقَصْد الاختصار ، وهذّبتها تخَلّصت خُلوص النُّضار ؛ وشَعشعتُها[(5)] وكأنما الورَق ثمرا ، وأطلعتُها وغَسَقها الحِبْر بدرا ؛ مُشرقًا باسم من لا تُعقد الخناصر إلّا عليه ، ولا يُشار بالأَسْتِيلاء على المكارم إلّا إليه ، ولا تُلقى الخلائقُ رائعةً تحت راية العَدل إلّا لديه ؛ ذى الشِّيَم التى لم يَخُصّ بها سواه ، والخصائل الكريمة التى لم تجُز لمن عداه ، والمَناقب الجمّة التى لم تؤم [فى][(6)] الأجماع إلّا إليه . صاحب البَند المشهور فى الشرف المَكين، ومَن هو لرايات المجد مُتلقٍّ كعَرابة[(7)] باليمين[(8)] ؛ سيدنا ومولانا

---

(1) التكملة من ت .

(2) خاقانية : نسبة إلى ابن خاقان ، أبى نصر الفتح بن محمد بن عبدالله بن خاقان بن عبدالله القيسى الإشبيلى، صاحب كتاب قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس . ذكره ابن دحية فى المطرب فقال : « إنى لقيت جماعة من أصحابه وحدثونى عنه بعجائبه وعجائبه . وكان خليع العذار فى دنياه . لكن كلامه كالسحر الحلال والماء الزلال » . قتل مذبوحا سنة تسع وعشرين وخمسمائة . (وفيات الأعيان — المطرب) .

(3) السحر، بالفتح و بالتحريك ، بمعنى .

(4) فى الأصلين : « مساقها » وما أثبتناه ألصق بالسياق .

(5) شعشعتها : مزجتها .

(6) تكملة يقتضيها السياق .

(7) هو عرابة بن أوس بن قيظى الأوسى الحارثى الأنصارى . أحد الأجواد المشهورين . أسلم صغيرا . انظر الإصابة (٧ : ٤٦٦) والأغانى .

(8) يشير إلى قول الشماخ فى عرابة :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

الأمير الأسعد المؤيّد الأجلّ ، الذي بشرفه تكمل رُتَبُ المعالى وتستقل[1] ، الواحدُ في جلالة شأنه ، الذي تُخصب أرضُ الجدب من قبض بنانه ، أبو زكريا[2] ابن سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المُستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين ، أبي عبد الله[3] ، من الأمراء الراشدين ، رضوانُ الله عليهم أجمعين ، الذاكى الشِّيم والأعراق ، العالى الهِمم والأخلاق ، المُؤمَّل للفضل والفضلُ لسانُه ويدُه ، الدّانى بجلاله على أن جَلّ مَحتِده :

[بسيط]

تَوارثَ المجدَ عن جَدٍّ له وأبٍ ... بَنَوْا له منه طَوْداً ليس يَنهدِمُ

لا زال مُظفَّرَ اللواء والعَلَم ، مُمكَّنةً يدُه الطاهرة من جميع الخلائق والأمم ، وأمره العلىّ مُسْتحِلٌّ موقعُه من النفوس ، مُجلّياً غياهب البأساء والبُوس ، مُظفَّراً بيُمْن الله بكلِّ مَن زاغ عن الحق وأبدى له وجهاً عَبُوساً[4] .

وأنّى فيما أنتقيه من الآداب إليه ، وأُوقف الإبلَ فى تَشرُّق بقُبُولى[5] عليه ، كجالب [2B] التمر إلى هَجَر[6] ، أو المُعزِب عن الضَّرع بصَريح الدِّرَر[7] ؛ لكن لمّا رأيتُ مقامه العلىّ — خلّده الله — مُغرًى بأقتناء[8] العلوم وجمعها ، ومُوالاة النظر فى مُطالعتها وسَمعها ؛ لاسيما أنواع الأدب[9] وضُروبه ، والعاكف على التَّهمُّم[10] بفنونه وشُعوبه ، ومن قصر

(1) تستقل : ترتفع وتعلو .

(2) هو أبو زكريا الثانى يحيى بن محمد بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ، وجده أبو زكريا الأول أول من استقل بالملك من ملوك الدولة الحفصية بتونس سنة ٦٢٥ هـ ، وقد أنشأ مدارس عدة ودارا للكتب جمع فيها ٣٦,٠٠٠ مجلد ، وكانت وفاته بتونس سنة ٦٤٧ هـ ، ولابن سعيد فيه مدائح ذكرها المقرى فى النفح (٣ : ٣٠) وقد ولى أبو زكريا الثانى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦٦٥ هـ . وبقى فى الملك إلى أن خلع عنه سنة ٦١٨ هـ . (زنباور : ١١٥ — وابن خلدون ٦ : ٢٩٦) .

(3) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ، من ملوك الدولة الحفصية بتونس . بويع له فيها بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧ هـ ، وكانت وفاته بتونس سنة ٦٧٥ هـ . (دول الإسلام للذهبى ٢ : ١٣٦) .

(4) الوجه فى الوقف على المنون بالفتح إثبات الألف .

(5) قبل قبولا ، بمعنى أقبل .

(6) هجر : قصبة بلاد البحرين . يقال إنها معدن التمر . وهذا مثل . ويروى : كمستبضع التمر إلى هجر . يضرب لمن يحمل الشىء إلى حيث يسترخص .

(7) المعزب : الذاهب المبتعد . والضرع : مدر اللبن . والدرر : جمع درة : وهى اللبن إذا كثر وسال . والصريح : اللبن ذهبت رغوته . أى كمن يجتزئ بالشىء عن أصله .

(8) ب : «باقتناء» .

(9) ب : « الآداب » والضمير لا يستقيم بها .

(10) تهمم بالشىء : طلبه .

نفسه على عِلْمِ مجهوله من منسوبه — فوأنّ فى ذلك لِقاحاً للخواطر ، وفى مُشكلات الأمور أسوة لجلاء شُبَه الرِّيَب عن البصائر ، ولخطرات وَساوس الفكر رادع وزاجر — ألفتُ منه ما يُؤنّس به الجليس ، ويُمتّع من المُحاضرة بأشتماله كُلَّ رئيس ، ويُزرى بنباهة مقصده على المِسك الفتيق[1] والدُّر النَّفيس .

وأنى فيما شرعتُ فيه لمُعترِف بالعجز والقُصور والتقصير ، وراغب فى الإغضاء عن هَذْرِى الكثير ، ومن الله الاستعانة وهو ولىّ التوفيق ، وعليه التوكُّل فهو الهادى إلى سواء الطريق .

(1) المسك ، الفتيق : الذى تستخرج رائحته بشيء تدخله عليه .

١ - ابن سعيد أبو الحسن على

الفقيه الحاج أبو الحسن ، ابن الفقيه أبى عمران بن سعيد . التعريف

بحرٌ لا يُنْتَطَى ثَبَجه[١] ، ولا تُخاض بلُجَجه . علامة الأعلام ، وراوية الجاهلية والإسلام . مالك عِنَان البيان ومُصَرِّفه ، ومُسْتَند حديث العالم ومُصَنَّفه[٢] . إن ذُكر التفسير نُسى الزمخشرى[٣] ، أو التاريخ فمَن الطَّبرى[٤] ، أو التصوف فأين الجُنَيد[٥] والسَّرى[٦] . ذاك الذى رَكب الأخطار ، وجاب الأقطار ، وطاب ذكره شرقًا وغربًا وطار ؛ دَرَّ له حَلَب حَلَب ، وبالموصل وصل إلى ما طَلَب ؛ وزار الزَّوراء[٧] فازدراها ، ورأى الرَّىّ[٨] فقلَّت فى عينه إذ رآها . ولكم أجال فى حِمَى حِمْص فِراخَ لَهْوه ، وجَرَّ على جَيْرون[٩] ذَيل زَهْوه ؛ ومِصْرُ على احتقارها هو مُصِرّ[١٠] ، والإسكندرية خبرها عنده ريح فيها صِرّ[١١] .

---

(١) ثبج كل شىء : معظمه ووسطه وأعلاه .

(٢) يشير إلى « مسند أحمد » وهو كتاب فى الحديث لأحمد بن حنبل جامع ، وإلى « المصنف فى غريب الحديث » لأبى عبيد . يريد أنه قد جمع بين مسند الحديث وغريبه ، فأتى فاق ابن حنبل وأبى عبيد .

(٣) هو محمود بن عمر ، من أئمة اللغة والتفسير والأدب . ولد فى زمخشر من قرى خوارزم . وكتابه « الكشاف » فى التفسير مطبوع ، وكانت وفاته سنة ٥٣٨ هـ . كما كان مولده سنة ٤٦٧ هـ .

(٤) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى . مؤرخ ، مفسر . ولد فى آمل طبرستان سنة ٢٢٤ هـ . وتوفى ببغداد سنة ٣١٠ هـ . وكتابه « تاريخ الأمم والرسل والملوك » معروف . وقد طبع أكثر من طبعة .

(٥) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى . صوفى . مولده ونشأته ببغداد . وكانت وفاته بها سنة ٢٨٧ هـ . (طبقات الصوفية) .

(٦) هو أبو الحسن السرى بن المغلس السقطى . من معروفى المتصوفة . ولد ببغداد . وبها توفى سنة ٢٥١ هـ . وهو خال الجنيد المتقدم . (طبقات الصوفية) .

(٧) الزوراء : مدينة أبى جعفر المنصور ، وهى فى الجانب الغربى من بغداد .

(٨) الرى : قصبة بلاد الجبل . (٩) جيرون : دمشق .

(١٠) مصر : من أصر على الشىء ، إذا عزم عليه فلم يرجع عنه . وهو يشير إلى قوله :

لقيت بمصر أشد البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يسوق الحمار ... ح لا يعرف الرفق مهما استطار

وإلى قوله ، فى وصف مصر : « ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » . (نفح الطيب) .

(١١) الصر ، بالكسر : شدة البرد .

ومع هذا فإنه نجم وزار ، وحطّ عن كاهله جميعَ الأوزار ، وساح فى الأرض سنين ، وجاور بطور سنين[١] ، وسار ما بين عُبادان[٢] وقزوين ، وعُمان[٣] ونَصيبين[٤] ، ومشى حينا يلبس أطمار الصُّعلوك ، وآخر يلبس شِعار الملوك .

شعره فى شنيل

وله فى النَّظم والنثر خاطر يتّقد كالتِّبر ، وتُجتلى فرائده كعُقود[٥] الدُّرّ .

فمن أول ما قاله فى فضل شَنِيل ، ماء غرناطة[٦] ، وعاين أغصان الأشجار تميل على الماء ثم ترجع : [مخلع البسيط]

كأنما النهرُ صفحةٌ كُتِبتْ   أسطرها والنَّسيم مُنشِئُها[٧]
لما أبانت عن حُسن منظرها   مالت عليها الغصون تقرؤها

[3 A]
شعر له فى ثور قد أصاب خاليا

وكان والياً بالجزيرة الخضراء فى عام أحد وثلاثين ، فخرج فى يوم جمعة / راكباً متنزها مع جُملة من طلبتها وأعيانها ، طلبوا منه الحُضور معهم بخارج سور المدينة فى وليمة كانت لم آحتفل فيها بعضُهم ، فندّ ثورٌ من الثيران التى آحتضرت للوليمة وندّ الناسُ[٨] أمامه ، وآتقاه بعضُ الطلبة براحته فأثّر فيها الثور بطرف رَوْقه[٩] ، فقال آرتجالا :

[خفيف]

إنّ عينَ الكمال لم تلقَ غيّا[١٠]   يوم جاء الزمانُ شيئاً فَرِيّا[١١]
ثار ثورُ السماء[١٢] فى الأرض لما   أن رأى منك نَيِّرا قمرِيّا
جعل النطح بين رَوقيه بأساً   فتلقّيتَه بخمس[١٣] الثُّريّا

(١) طور سنين ، أو طور سيناء : جبل . وبه سميت البقعة .
(٢) عبادان : تحت البصرة قرب البحر .
(٣) كذا فى ت . وفى ب : « لعمان » ، وهو قصر بصنعاء .
(٤) نصيبين : من بلاد الجزيرة بين الموصل والشام .
(٥) ت : « كقلائد » .
(٦) ت : « فى نهر شنيل بغرناطة » .
(٧) انظر القسم الثانى .
(٨) ت : « وفر » .
(٩) الروق : القرن .
(١٠) ب : « عيا » .
(١١) انظر القسم الثانى .
(١٢) ثور السماء : برج من بروجها .
(١٣) الثريا : من الكواكب . يشبه الكف بأصابعها الخمس بالثريا .

ذلك الكفُّ[١] كفّ عنها فأبْق   أثراً فيمن أرادك حيّا
برئت راحةٌ قضتْ بآرتياح   ووقى الله حُسْنَ ذاك المُحيّا

شعره إلى صاحب شرب دواء

وبعث إلى صاحب من أصحابه ، وقد عرف أنه شرب دواء :

[كامل]

هُنّئتَ عافيةَ الدواء فإنها   تصحيفها وبها الحياةُ تروقُ[٢]
فالجو يحسُن صحوه إلا إذا   هطلت رعودٌ بالحيا وبروق
يا شمسَ آفاق المروءة لا بدا   أبداً لضدّك فى الزمان شروق
وبقيتَ فوق الحاسدين بمُكنةٍ   أبداً على رَغم العدوّ تفوق

يا سيدى ، خيرُ ما يُتحف يوم شُرب الدواء ، ما يملأ العينَ بهجة ، والأنفَ نفحة ، ويُسرى فى طلب السرّاء : [متقارب]

تَخِذنها أزاهرَ روض غدتْ   فألسُنها لكمُ فى ثناء[٣]
عساها تُشافهه أرجاءكم   نيابةَ خلّ صدوق الإخاء

ثم أتبعها مُعظِّمكم من الحمام المُقتنى[٤] ، بأزواج تُستبدع وتُستحسن ، تبدو فتُعجب ، وتَشدو[٥] فتُطرب ، قد لبست رداء الجمال ، وخصّها الله فى لحنها وقدّها بالكمال ، ثم شفع ذلك بعشرة من اليمام ، قد لبست من صنعة صَنعاء رداءً يروق الأنام ، وفى إثر ذلك فرّوج إن دُبِّج رَبِع[٦] ، والأ أبق وانتفع به فى السَّماع والعيان . وفى ذيل جميع ذلك مطيّة للقدم [التى طالما][٧] خطت فى المنافع ، وعمرت بخُطاها أركان الديار البلاقع : [كامل]

فإذا نظرتَ فنونَ ما أهديتُه   فأشهد أنى أنّى المحبُّ المُخلِصُ[٨]
أبداً أدُلّ على مكارم خُلقكم   لكمالها لا كان خِلٌّ ينقص

(١) المعروف أن « الكف » أنثى .
(٢) أى « عافية » تصحيف « عافية » ، وانظر القسم الثانى .
(٣) انظر القسم الثانى .
(٤) أقتنى وقتى : بمعنى ، أجاز أهل اللغة القنين ، وأبى الأصمعى « أقنى » .
(٥) ت : « وتظهر » .
(٦) أى زاد ونما .
(٧) هنا كلمة طمست أكثر حروفها فى ب . وهى جلية فى ت .
(٨) انظر القسم الثانى .

[3] B وسافر مع والده فى البرية التى بين وادى المَنصورة(١) ولُورقة(٢) من/ بلاد الأندلس ، وهى [بجز](٣) العَوالى ، ومجرى السوابق لغارات الرُّوم ، فقال له أجزْ وتمِّمْ :

من معارضاته فى وادى المنصورة

[طويل]

وَمجهلة مَعروفة بتوحُّش   يَصير بها قلبُ الشُّجاع جَبانَا

فقال :   [طويل]

تَرى الآلَ فيها خافقاً مُتعطِّشاً   يَمُدُّ إلى لَفح الهَجير لِسانَا
لبسْتُ بها شمسُ الظَّهيرة حُلَّةً   مُذهَّبةً حيثُ الهجيرُ كَسانَا
وقد ثار من وَقع السَّنابك قَسطَلٌ   تخال لتلك النار منه دُخانَا
ولا يَسمع إلا وهو سامٍ(٤) مُذلَّلٌ   يُراقبُ أنْ يلقى الحِمام عِيانَا

فقال له رحمه الله : هذا طِرازٌ يَعجزُ عنه أبوك ! واعجب ما فى الشأن نظمه فى هذا المكان .

بينه وبين ابن محارب وقد حجبه

ولما وصل إلى الإسكندرية يؤمِّل الحجاز ، كان بها ناظر الديوان ابن محارب ، فتَقِف(٥) كُتبه حتى يأخذ منها الوكالة(٦) والزكاة . فطرق منزله وهو يقرأ بعضَ الكُتُب ، فاحتجب عنه وأُخبر أنه قال : لقد يَصْرعوننا هؤلاء المغاربةُ ! فكتب إليه :

[مجتث]

يا ذا الحِجاب ترفَّقْ   ففى حياتى حِجابُ(٧)
إنْ سُدَّ بابُك عنِّى   فكم إلى الله باب
وإن أكُن مغربيًّا   فلى مَعابٌ غِراب
كُتْبَ التأدُّبِ تُملى   وعنك يُروى الصواب
ولا تُصيخ لمِثلى   أهكذا الآداب

(١) المنصورة (Almanzora) : نهر فى وادى بيرة (Vera) . (انظر Baedekers, p. 255)
(٢) لورقة : من أعمال تدمير .   (٣) تكملة من ت .
(٤) السمع ، بالكسر : هو الذئب من الضبع . وسام ، أى متطلع .
(٥) تقف : حلق .   ) مكان هذه الكلمة «والزكاة» بياض فى ت .
(٧) انظر القسم الثانى .

فأجاب :   [مجتث]

آدخُل فُدِيتَ رفيقاً   فليس دونك بابُ
وكلُّ ما رُمْتَ يُقضَى   وبالنَّجاح الجواب
سوى ضرائبِ مَلْكٍ   فيدُ ونهنٌ(١) ضِراب

بينه وبين أبى العباس الغسانى

ووصله من تونس إلى المشرق قصيدة من الأخ الأودّ أبى العباس الغسانى(٢) كاتب القلم الأعلى ، يُخاويه بقصيدة ، منها ما يَقصر عن قوله حلاوة وآنطباعا :

[كامل]

أطلعتَ فى ليل التشوُّق أنجُماً   لمّا بعثتَ مُسائلاً ومُسلِّماً
لولا كتابُك ظَلْتُ فيه حائرًا   حيث آتجهتُ رأيتُ جُنحاً مُظلِما
وافَى وأُفْقِى حالكٌ فأناره   وأوام شَوقى مُؤلم فشفَى الظَّما
أودعتُه قلبى ففاح نَسيمُه   فكأنما نَدَّ بجمرٍ ضُرِّما
فرددتُه فى ناظرى فكأنما   زهرُ الرِّياض مُسقيّةً ماءَ السما
فرددتُه فى مِسمعى فكأنما   طيرٌ أمال الغُصنَ حين ترنَّما
ما طِرسُه إلّا بجمرٍ ساطعٍ   رَقمَ العِذارُ بصَفحتيه أرقَما
إيه أبا العبّاس بعدك لم أزل   مهما تُدَرْ مشمولةٌ مُتجهِّما
مُتمنِّعاً من شُربها إذ خِلتُها   سُمًّا إذا ما خلتَ كأسك علقَما
[٤A] ولقد بكيتُ فلم أجد فى الجفن ما   أبكى به إذ كنتُ أبكيتَ الدَّما
ولقد علمتُ بأنّ شوقك جاذبٌ   مهما رأيتَ مكانىَ المُتوهَّما
أوَ ما تَدُلُّ على الوفاء رسالةٌ   قطعتْ على حال التقاطع خِضرِما(٣)

(١) ضراب ، أى مغالبة وجهد .   (٢) انظر النفح (٣ : ٧٥) . وستأتى ترجمته (ص ١٢) من هذا الكتاب .
(٣) الخضرم : البحر الواسع الكثير الماء .

وله إلى أبي المجد

وكتب من حضرة تونس إلى أبي المجد[١] ابن الوزير جد العالم كمال الدين بن العديم[٢]، صدر صدور الشام[٣]؛ وما رأى أقوم بحقوق الأخوة منه :

[بسيط]

عرّج على حلبٍ إن كنت ذا طلبٍ ... للعلم والحلم والعلياء والأدبِ
واقرى السلام بها من بعد لثم ثرى ... أرجائها الأرِجاتِ الأفق والطُّنُب
على الوزير أبي المجد الذي خُلِقت ... أخلاقُ سُودده من عُنصر الشُّهب
وقل له يا كريمَ الأصل ما فعلتْ ... تلك العهودُ التي زُرَّت على الحسَب[٤]
هل تذكُرنّ ليالينا التي سلفتْ ... بالنَّيرَين ووجهُ الأُنس لم يَغِب
وخَلْوةً قد قطعنا بالقصير لها ... وقتاً يطوِّل ذكراه مدى طَرب
وفي حماةَ وفي قَصر المعَرة والـ ... أيامُ غافلةٌ عن مُوجب السَّبب

وله في وداعه

ووَدّعه مرةً فقال :

[طويل]

لئن تَنذُروا صوماً لأول أَوْبةٍ ... فنَذْرِى صَومِى منذُ يوم[٥] ذَهابِهِ
إلى أنْ يَمُنّ الله لى بلقائه ... فأجعلَ يومَ[٦] الفِطرِ يومَ إيابه

وله وقد زار معه مشاهد دمشق

وزار معه المشاهد الخارجة عن دمشق ، وفي خدمتهم المماليكُ بمناطق الذهب ، كالولدان في الجنان ؛ فأدركته خشية وخرج عن الدنيا ، وألزمه ذلك وعاهده عليه ، ومضى إلى حلب . فبلغه أنه عاد إلى ما كان عليه من اتخاذ المماليك ، وذلك شئ لا بد لمن يخدُم السلطان منه ، فكتب إليه :

[مخلع البسيط]

يا بنَ سَعيد إليك شوقي ... شوقَك للغُصن والكَثيب
نقضتَ بعد البِعاد عَهدي ... فارجع إلى الله من قَريب

فأجابه :

يا بنَ الكمال اطّرِحْ عِتاباً ... في الشَّوق للغُصن والكَثيب

(١) هو أبو المجد محمد بن عبد الله ، ابن الوزير الكاتب أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني .
(٢) هو كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلي ، المعروف بابن العديم . مؤرخ ، محدث ، كاتب . ولد سنة ٥٨٨ هـ . وكانت وفاته سنة ٦٦٦ هـ .
(٣) ت : « صدر الدين » .
(٤) زرت : شدت .
(٥) انظر القسم الثاني .
(٦) ت : « عيد » .

واسأل إلى الله[١] أن يعافي ... من مُقلة الشادن الرّبيب
تُبنا كلانا وسوف تنسى ... لكنّني عُدت من قريب

وله يهنئ الناصر بفتح دمشق

ولما مات الملك الصالح[٢] ، ابن الكامل[٣] صاحب مصر ، زَحف الملك الناصر[٤] من حلب إلى دمشق بماطنَة من الأكراد، ففُتحت له عندما أطلّ عليها، وحصل ابن يُغمور[٥] في يده ، فعفا عنه وصيّره بعد ذلك أميرَ أمرائه[٦] ؛ ونظم في هذا الفتح قصيدة ، منها :

[بسيط]

[4B]

أمّا دمشقُ فقد ألقت أزمّتها ... على يدَيك على حُسْنٍ وتحصينِ[٧]
لم تمتنع عندما قاربتَ ساحتَها ... وجال جيشُك في تلك الميادين
لمّا نهضتَ إليها وهي عاصيةٌ ... تلفّعت من حَياء بالبساتين
مثلَ العروس تجلّت[٨] في ملابسها ... بكُل ماجَلّ من حُسن وتزيين

وله يستميحه السفر إلى موطنه

وجمع مختار أمداحه فكانت خمسةَ آلاف بيت ، ورفعها إليه ورغب منه أن يترك سراحَه للحج مع الرُّكب ، فأنعم عليه وأمر له بخلعة موشّية ، ولم يصله معها زاد ، فكتب إليه :

[مجزوء الكامل]

يا أيها الملك الذي ... نَفع الزمانُ به وضَرّ[٩]
أهديتَ لى التّشريفَ لـ ... كنْ دونه زادُ السّفر
فكأنما أهديت[١٠] لى ... فصلَ الرّبيع بلا مطر

(١) ت : « ووسل من بالله » .
(٢) هو أيوب بن محمد . من سلاطين الدولة الأيوبية . توفي سنة ٦٤٧ هـ .
(٣) هو محمد بن محمد بن أيوب . توفي سنة ٦٣٥ هـ .
(٤) هو الملك الناصر يوسف بن محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، صاحب حلب .
(٥) هو جمال الدين أبو الفتح موسى بن يغمور . كان نائب الشام .
(٦) ب : « أمين أمرائه » .
(٧) انظر القسم الثاني .
(٨) ب : « تحلت » بالحاء المهملة .
(٩) انظر القسم الثاني .
(١٠) ت : « أعطيتني » مكان « أهديت لى » .

فخلف كمالُ الدين على ابتداع هذا المغنى، وزكّاه الملكُ الناصر وأمر له في الحين بالزاد المُبلِّغ(١) . ولمّا عاد من الحج والزيارة لم يتمالك عن العود إلى المغرب، فكتب إليه في ذلك بجملة من المُقطَّعات ، فلم يفتح له في السفر بابا ، إلى أن حضر عنده فأنشده : [سريع]

بالله يا أكرمَ من قدرت عيناى بالمغرب والمشرق(٢)
انظُر لقولى منصفًا مُفكرا حيًّا وعُوِّق بعدُ أو أطلق(٣)
قضيتُ خيرَ العُمرِ في أرضكم فمتّعوا أهلى بما قد بَقِى

فارتاح وظهر منه الحنان والإسعاف . وقال لجمال الدين بن يغمور : صدق ! يُسَرَّح بما يكفيه من الإحسان . فأخذ في السفر ، وجرى مع القدر .

له في مقتل المعظم

وقال في الملك المعظم(٤) ابن الصالح ، ابن الكامل ، وكان لمّا مات أبوه صاحب مصر استُدعى من حصن كَيْفا(٥) ومُكِّن من ملك أبيه بالشام ومصر ، وهزم الفرنج الهزيمة العظمى على دِمْياط(٦) ، ثم اضطربت أحواله عُقَيب ذلك مع الأتراك(٧) ، فقتلوه بين الغرق والحرق والتراب(٨) في حكاية عجيبة : [كامل]

ليت المعظَّم لم يَسِر من حصنه يومًا ولا وافى إلى أملاكه(٩)
إنّ الطبائع إذ رأته مُكَمَّلا حسدته فاجتمعت على إهلاكه

له في شاب وسيم

وله في شاب جميل الصورة من أبناء العجم ، صحبه في الطريق من حلب إلى بغداد ، وكان ظريفًا أديبا ، فمات في بغداد : [مجزوء الكامل]

لَهفى على غُصنٍ ذوى أفقدتُه لمّا استوى(١٠)
ريّان من ماء الصِّبا ومن المدامع ما ارتوى

---

(١) ب : « البلغ » . (٢) انظر القسم الثانى .
(٣) ب : « طلق » . (٤) هو الملك المعظم توران شاه .
(٥) كيفا ـ ويقال فيها : كيبا ـ : بلدة وقلعة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (ياقوت)
(٦) انظر النجوم الزاهرة (٦ : ٣٦٤ ـ ٣٧٠) .
(٧) يشير إلى قتل مماليكه به سنة ٦٤٨ هـ . النجوم الزاهرة (٦ : ٣٧٠ ـ ٣٧١) .
(٨) العبارة في النجوم : « وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثة أشياء : السيف والنار والماء » . وفي ت : « الهواء » مكان « والتراب » .
(٩) انظر القسم الثانى . (١٠) انظر القسم الثانى .

لا تعذلونى إن نطقـ ـتُ الدهرَ فيه عن الهوى
كم ضلّ صاحبه بـبحـ ـر الحظ منه وكم غوى
أنا لا أُفيق الدهـ ـرَ فيه من الصَّبابة والجوى [5 A]
إنّ الهوى حيًّا وميْتًا لا يزال به سَوَى
كم قد نويتُ به النعيـ ـم فقدّر الله النّوَى(١)
دارَ السلام حويتِ من كل المحاسن ما حوى
حُورىّ حُسن قد ثوى في جنّة وبها ثوى

له في حراقة بدجلة

وله وقد دخل نهر دجلة ببغداد راكبًا في حَرّاقة ، مع زعيم من زُعماء دولة بغداد ، يقال [له : محيى](٢) الدين ، فقال ، وقد نظر إلى حُمرة الحرّاقة وصُفرة قلعها وسُرعة جريها : [مجزوء الكامل]

بالله محيى الدين يا من ظِلُّه أبدًا ظليل(٣)
انظُر إلى شفقٍ على فلق يطير به أصيل

له في تركى بخده خال

وكان بخُراسان مُسايرًا لبعض ملوكها ، فلقيهم مملوك وسيم من الأتراك ، بخده خالٌ وهو معذَّر ، فقال ارتجالا : [سريع]

كأنما الخالُ على خدّه إذ لاح في سلسلة من عِذار
أُسَيود يخدُم في جنّة قيّده مولاه خوف الفرار(٤)

شعر اللبانى إليه بعد عودته من الحج

ولمّا عاد من أقصى المشرق إلى إفريقية بعث له زعيم من زُعماء حضرة تونس هدايا متنوعة وكتب له ، وهو أبو العباس اللبانى(٥) : [مجتث]

يا زائرًا خيرَ بيتٍ ديانةً ورياضة
أفِضْ أزاهر عِلم تجلو علينا رياضه
قد تمّ حجّك لكن بَقِى طوافُ الإفاضة

---

(١) النوى : الهلاك . (٢) بياض في ب . (٣) انظر القسم الثانى .
(٤) أسيود : تصغير « أسود » . ويقال فيه : أسيد . وانظر القسم الثانى من هذا الكتاب
(٥) انظر النفح (٣ : ٩٨) .

وله يستهدى من رئيس

وكتب إلى رئيس من رؤساء هذه الدولة — خلّد الله أيامها ونصر أعلامها ، وأدام وُجودها ، وكبت حسودها — وهو الشيخ أبو عبد الله بن أبى الحسين[١] :

[متقارب]

أخا الجُودِ قد طال شوقى إلى ... شُمُوسٍ بواطنُها مُقمِرهْ[٢]
تجيء مع الوَرد فى فصله ... وأوجهها للمُنَى مُسفِره
وتصحيفها يقتضى حُبّها ... وبالضدِّ يقضى لمن غيّره
وأكثر وجدى بها عندما ... تُعَضُّ فتضحك مُستبشره

فبعث له ما طلب وكتب الجواب :

[متقارب]

أتاك أبا حَسَنٍ غائبٌ ... متى ما أردتَ تَراه تَرَهْ
يحبّ به طيبة تنميه ... ولكنْ بنارٍ أتتْ نيّره
وُجوه النّعيم عَراها الجحيمُ ... فأبرزها أوجهاً مُسفِره
فكُلها هنيئاً مريئاً ودَعْ ... لِسُكرها قهوة الدّسكره
[5B] / وأقدِمْ فإنّى أرى جُبنها ... يُقوّى الجبان على القسْوره
ومهما صَبرتَ لوقت الضّحى ... فقه قلبُك ما أصبره

جواب ابن أبى الحسين

ولما وقف الصاحب الفقيه أبو عبد الله بن أبى [الحسين على][٣] هاتين القطعتين قال فأحسن :

[متقارب]

وناعمةِ الأحشاءِ طيّبة الجنا ... أتتك مع الإصباح فى لُحمة الغسق
مُعذّبة بالنار وهى غريقةٌ ... وما أن شكت نارَ الحَريقِ ولا الغَرَق
وأعجب ما فيها إذا ما عضضتها ... أرتك ابتسام الفجر فى حُمرة الشفق

(١) بياض فى ب . وهو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبى الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف ابن سعيد . ملك أفرقية (القلائد — المطمح)

(٢) انظر القسم الثانى .

(٣) بياض فى ب . وفى ت : « ابن الراسى » .

وله فى أبى العباس الغسانى

وقال ، لما أسهم منها الأخ المخلص أبا العباس الغسانى[١] ، وخاطب بذلك المُنعم بها :

[طويل]

سَعيتُ إلى ذى الجُود فى جَنْى فضله ... فقابلنى منه القَبولُ الذى عَمّا
وواعدتُ نُعماه صبيحة جُمعةٍ ... فوافت تُبارِى فى المُبادرة السّهما
وأسهمتُ فيها قد حوتْ جفنةُ النّدى[٢] ... بنى جَفْنة[٣] أبغى بها منهمُ السّلما

وأرسل الجفنة بعد أيام وأرسل معها[٤] :

[سريع]

خُذها إليكم جفنةً قد غدتْ ... فارغةً يملؤها الحَمْدُ
تطلُب منكم عادةً لم تزل ... يَعْجِز عن تكرارها العَدُّ
أرسلها ربُّ البنات[٥] التى ... يحُفّها الشُّكرُ والشّهدُ
باطنُها أحسنُ من ظاهرٍ ... يحسُدها المُهيمِ والخَدّ
مِن أدبٍ إرسالُها للمَلا ... لا عَسَلٌ فيها ولا زُبدُ
الجزر من عندى ومن عندكم ... يكون يابحرَ الندى المَدُّ

[طويل]

شعره إلى ابن هَمُشك

وكتب إلى محمد بن يحيى بن هَمُشك التيهانى[٦] :

أخى ابنَ هَمُشْكٍ قد أتتك هديّتى ... تُجمّع أشتاتاً تُترجم عن وُدّى[٧]
هديّة خِلٍّ قد أدلّ بماله ... لديك فلم يجنح إلى كُلفة الجهد
فقلّت وجلّت قيمةً ومودةً ... وحلّت بأوفى الناس كُلّهم عندى

(١) ستأتى ترجمته (ص ١٢) .

(٢) ت : « وساهمت » .

(٣) جفنة : قبيلة من الأزد — وقيل من اليمن — ملكوا على اليمن واستوطنوا الشام . شيعهم ... كما وصفلا .

(٤) ت : « وكتب معها » .

(٥) كذا فى المخطوطتين .

(٦) ستأتى ترجمته (٩٨—١٠٧) .

(٧) انظر القسم الثانى .

٢ - أبو العباس الغساني[*]

الفقيه أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم الغساني .

نفح ٥٠٩

كاتب مذكور ، وشاعر مشهور ؛ بدْر الحلك ، ونادرة الفَلك ؛ البحر الزاخر فى الرواية ، والروض الناضر فى المعرفة والدراية ؛ إن أخذ فى الإيراد والإنشاد ، فكأنما ردّ الحياة إلى جماد ؛ فارس ميدان الارتجال ، فى أى نوع طلب من أنواع المَقال ؛ قد انقادت إليه أزمّة البيان ؛ وكلامه يشتمل على الحُسن والإحسان ؛ وهو الآن لسان الدولة العلية وكاتب سرها ، /والمعول عليه فى نظمها ونثرها؛ قد اختصه المَلِك بالملامة ، وهى النهاية فى الكرامة. [6 A] تصرّف فى أنواع البلاغة وسائر فنونها ، وأتى بأبكار المعانى المخترعة ومُنتخب عُيونها ، ينمّ من خَطه الرائق أزهار الرياض ، ويأتى بوَشْيه المُبهج بين السواد والبياض ؛ ونظمُه ونثره شاهدان على صِدق ما قلت فيه ، وإن لم أكن الآن أطنبت فى مدحه كما يجب له من[1] ذلك وأستوفيه .

رسالة إلى ابن يامن

كتب إلى الفقيه أبى القاسم بن يامن[2] جواباً عن هدية أهداها إليه :

أدام الله وُدكمُ وأبقى ... إخاءكمُ على[3] مَرّ الزمانِ

فقد وَصل الثلاثُ وهُن ستٌّ ... ولو رُبعت لجاءت بالثمانِ

ولم تك قسمةً ضِيزَى وأجرت ... لسانِى وهو أمضى من سِنانِ

فإنْ ضَيعته لنَا بصَيْفٍ ... فما بينى وبينك من لِبانِ[4]

(*) نفح الطيب (٣ : ٥٠٧) ونايات المبرزين (ص ١٠٨) .

(1) فى ب : « فى ذلك » .

(2) هو أبو القاسم أحمد بن يامن . وستأتى ترجمته (٥٣ — ٥٩) .

(3) ب : « إخاكم إلى على » .

(4) اللبان : الرضاع . يشير بالشطر الأول إلى المثل : « الصيف ضيعت اللبن » . و بالشطر الثانى إلى أنه ليس بينه وبينه أخوة رضاع .

أسعد الله الأخ المُبجّل المكرّم ، المفضّل فى حَلبة السّبْق المُقدّم ؛ ولازالت سراياه مَعتولة[1] ، وصَفاياه إلى مَحَلّ الصّفا[2] منقولة ؛ من كُل مالئة الإناء[3] ، مَليئة بالشُكر مدَى الآناء[4] ؛ تُريك ما أحار المِشْفر فى البَشَر ، وتكرُم فى المَحَلّ عن تحمّل العُشَر[5] ؛ وإن كان المَطل أساء به الظن ، ومثّل لى وحاشاه أن قد ضَنّ ؛ لكنه آذكر بعد أُمّه ، وماينكر عرفان مَن أمّه ؛ بجاءت تَهادَى عرائس ، وتغادَى ظِباء كَوانِس[6] ؛ مُشعرة بأن تُشفع بأخواتها ، مُذكِرة بذات الحُسن وحُوّاتها[7] ؛ فغنيتُها يأبى الغَزْر ، وشِكاؤها[8] يَشكى من المُستدِر ؛ فيالك من حَلَب لو كان له شَطر[9] ، وجَلَب لو انفرد به زيد أو عمرو ؛ ولا خفاء أن البَغى يُنبِر الحَسيكة[10] ، ويدعو المُشاكس أن يُفارق شريكه ؛ على أن الرّثيئة[11] تفثأ الغضب ، وتُعبد عِدًا[12] مورداً نَضَب ؛ واليد البيضاء حليها لاتمام ، حتى تَجم الفرسَ الجَمام ؛ وإذا وقع الاجتزاء ، وكُملت بسُورة البقرة الأجزاء ؛ فالشُكر مَوصول ، وخِضاب عملك ماله نُصول[13] .

شعره إلى أبى الحسن

وكتب إلى الحاج أبى الحسن جواباً : [سريع]

مَن قال فى الجنّة غيرَ الذى ... أقوله فى خَلقها يَفتَرِى

ها إنها زُفّت بما لم يكن ... لسامعٍ يَبدو ولا مُبصِر

---

(1) كذا فى ب . والسرايا : جمع سرية : القطعة من الجيش . ومعتولة : أى مسوقة مكدودة . والعتل : الدفع والإرهاق بالسوق العنيف . يشير إلى تشبيه للكفاح . وفى ت : « ولازالت هداياه مقبولة » .

(2) الصفايا : المختار المصطفى من الغنم . والصفا : أحد جبلين ببطحاء مكة ، وثانيهما المروة . يشير إلى ما يجزره هناك للضحية .

(3) الإناء : الوعاء . يريد صحبة غير هزيلة ، كثيرة الدر .

(4) الآناء : أجمع أنى ، بفتح همزته وكسرها : الوهن ، والساعة من الليل .

(5) العشر : من كبار الشجر له نور حسن المنظر ، ترعاه الإبل .

(6) الكوانس : الداخلة فى كناسها . وهو حيث تأوى .

(7) الحوات : جمع حوة ، وهى سمرة الشفة .

(8) الشكاء : جمع شكوة ، وهى وعاء من أدم يحبس فيه اللبن .

(9) يشير إلى المثل : احلب حلبا لك شطره . (10) الحسيكة : الحقد .

(11) الرثيئة : اللبن الحامض يحلب عليه فيخثر . وتفثأ : تكسر وتسكن . يشير إلى المثل فى اليسير من البر : « إن الرثيئة تفثأ الغضب » . وأصله أن رجلا كان غضب على قوم ، وكان مع غضبه جائعا ، فسقوه رثيئة فسكن غضبه .

(12) العد : الموضع يجتمع فيه الماء الكثير .

(13) النصول : الخروج من الخضاب .

أطلع قرصُ الشمس بُرْعُومها[١]   ومُشتريها الأسعد المُشترى
[6 B] / وتاجُ كسرى لاح فى[٢] كسْرِها   رُصِّع بالياقوت والجوهر
ما نُظِّم العِقد كتنظيمه   مِن وَرده الأبيض والأحمر
مُستودع فى قَصب لايُرى   من نَصب فيه ولم يَشْعر
وشُرْع السوسنُ من حَوله   أجنَّةً[٣] رائقةَ المَنظر
وخَضَّب الفُستق أطرافَه   بأحمرٍ قانٍ على أحمر
حكى مناقيرَ طُيورٍ تَوت   لم تَرِم الوَكر ولم تَصفر
ولو فَغَت[٤] أفواهَها خِلتها   تلتقط الحَبَّ من العُصفر
وشدَّ للتفاح فيه شَذًى   أهدى فَتيقَ المِسك والعَنبر
ونَمَّ خِيرِىٌّ بأنْ قد أتى   خِيارُها عن فاضلٍ خَيِّر
وقطَّ من أطرافها فاغتدى   مثل جِعاب القَصب السكّر
بالله لو رُمتُ لما قد حوتْ   حَصراً مدى الأيام لم أحصُر
ومِن قَبقاب لعُنّابها   يحكى أبا الشُّقشاق[٥] فى المِنسر
هذا وكم من طائرٍ واقعٍ   من مورد الوِرْد على كَوثر
ولم يزل من وُدّه صافيا   إنْ تكدُر الأمواه لم يكدر
فالحمدُ لله على مِنَّةٍ   جَلَّتْ عن الشُّكر ولم تُقدر

وكتب إلى صديق له :   شعره الى صديق   [مجزوء الكامل]

بكِّرْ — فُديتك — فى غدٍ   إذ كان موعدنا الخميس
فالروض مَوشىّ الحُلل   والقُضب فى حُلل تَميس
وأجلُّ كافات الشتا   ء وخيرها كأسٌ وكيس[٦]

(١) ت : « زنبوعها » .   (٢) الكسر ، بالكسر : الجانب .
(٣) ت : « أجنة » .   (٤) فغا فاه يفغوه : فتحه .
(٥) القبقاب : الخرز الذى تصقل به الثياب . وأبو الشقشاق : طائر .
(٦) يشير الى قول ابن سكرة :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه   سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كِيس وكن وكانون وكاس طلا   مع الكباب وكس ناعم وكسا

ما حظُّ مَن أسعفته   بلقائك الحظُّ البَخيس
لله دَرٌّ لُقيةٌ   بل لِقوة وجدت[١] قَبيس
قد أقرأتنى نِعمةً   من باب نِعم بغير بيس
فإليك منّى لوعة   وعليك لى حُبٌّ حَبيس
لك كُل مَسموع غدا   فى كُل فَنٍّ أو مَقيس
تلقى الخميسَ بكأسه   وتُحل فى صَدر[٢] الخميس
تحمى الحقيقةَ لا تَطيش ولو يرى حِمىَ[٣] الوَطيس
ولأنت من قَبل الكتاب   وبعده نِعم الجليس

ولك الأمرُ من تَلبيس[٤] الكتّاب، وتَغليس[٥] الرُكاب، وركض الجياد، ورَفض فرض الوداد[٦]؛ ومبادرة الجَونة[٧] أن تَغيب، وإعمال الوَخد والتَّقريب[٨]؛ بل أغضُّ العِنان، ولا أتركك تعض البَنان؛ وأتبع واضح أثرك، وأقتفع بِمار عِثيرك[٩]؛ وأنفيا ظلك، وأكلأ رَحلك؛ فتجاوز عن الهَفوة، وأغتفر ذنب الجَفوة؛ إذ لا مُؤاخذة للمراح، بجناية الراح؛ ومَن صَدر عن مثل ما صدرت، ووَرد العِدّ[١٠] الذى وردت؛ فقل له: خُلع عِذاره، ونُبذ وقارُه لِعقاره[١١] / [7 A]؛ وإن ذَكّرتنى اليَحموم[١٢] وسَعده، وتمسكه حين ألقى الصّمدة[١٣]؛ فعزيز أن تزل عن الصَّهوة، وتسجد وأنت المُصلّى بين يدى نَشوة؛ فأعتض بمركوبك[١٤]، وأنهض لإعمال

(١) اللقوة : الناقة السريعة اللقاح، وكذلك الفرس . والقبيس : الفحل السريع الإلقاح لا ترجع عنه أنثى .
(٢) الخميس ، الأول : اليوم المعروف . والثانى : الجيش .
(٣) الوطيس : التنور : ويه شبه هو الحرب .
(٤) التلبيس : التخليط . يصفه بالشجاعة ، وأنه يلبس الكتائب بعضها بعضا خوفا منه وخطا .
(٥) التغليس : إتيان الأمر فى الغلس . وهو من سابقه .
(٦) ت : « ورفض الوداد » . أى إنه لا يميل إلى الدعة والسكون حيث يلم بحديث الحب والوداد .
(٧) الجونة : عين الشمس . وإنما سميت جونة عند مغيبها لأنها تسود ، يشير إلى قول الشاعر :
« يبادر الجونة أن تغيبا »
والذى فى الأصلين : « الجرية » .
(٨) الوخد والتقريب : ضربان من السير .   (٩) العثير : العجاج الساطع .
(١٠) العد : الموضع يجتمع فيه الماء الكثير .
(١١) العقار : معاقرة الخمر .
(١٢) اليحموم : فرس كان للنعمان بن المنذر .
(١٣) الصمدة : القناة أصغر من الحربة .   (١٤) ت : « ذنوبك » .

نُكوبك(١)، وإن لعبت بك الصهباء، وجَبذت(٢) ذُؤابتك الأصباء(٣)، ولم تملك العِنانَ بنانُك، واستعجم على ما جَمجم(٤) بيانك(٥)، فلا تَرُم الدَّوحة، وتجنَّب الرَّوحة(٦)، وزاحم الفَرقدين، واجمع بين الأَبرَدين(٧) :   [طويل]

فلله دَرُّ الأُنس فى كُلِّ حالةٍ   تروق غَبُوقًا أو تَشوق صَبُوحَا
وهَل مِن جُناح إن حَننتَ لصَبوةٍ   وأبديتَ من فَرط الغَرام جُنوحا
فصافحْ أكفًّا بالكُئوس مُشيرةً   وأبشِرْ بأنْ تلق الإله صَفُوحا
ولا تَمنعنَّ النَّفس لذَّةَ ساعةٍ   لتُرضِى عدوًّا أو تُطيعَ نَصوحا
ولا خيرَ فيمن قُدتَه لمسرَّةٍ   فلم تُلفِه طَلْقَ العِنان طَموحا

إلى صديق له   وكتب إلى صاحب له من جَنَّته بالجزيرة :   [مجزوء الرجز]

إنّ ليوم الأَحدِ   مَوافقًا مُؤنسهْ
تجمع فيها شملَنا   بكرْتنا(٨) المُعلَّسه
ولم تَزل تُضحك منّا   أوجُهاً مُعبِّسه
ما عَبثتْ مِن زائرٍ   تُقِلُّ(٩) يوماً مَجلسه
بل من حُمَيّا قهوةٍ   حمراءَ أو(١٠) مُورِسَه
يُديرها الظَّبىُ الذى   صَيَّر قلبى مَكنِسه
عجبتُ من ساكنه   أمَا توقَّى قبَسه
رِياض حُسن ليَتقى   ممن جَنى مُغترِسه
مِن خُدودٍ ورده   ومن جُفون نرجسه

---

(١) ت : « ركوبك » .   (٢) ت : « وجذبت » .
(٣) الأصباء : جمع « صبا » وهى ريح الشمال .   (٤) جمجم : لم يبين ولم يفصح .
(٥) ب : « ولم تملك العنان بنانك ، واستعجم على ما جمجم بيانك » .
(٦) الدوحة : الشجرة العظيمة أو المظلة العظيمة أيضا . وكأنه يشير إلى البراح والفضاء حيث لا كن ولا .... يريد الهاجرة لا الشفق .   (٧) الفرقدان : نجمان لا يفترقان . يريد بالسهر . والأبردان : الغداة والعشي .
(٨) المغلسة : التى بكرت وعجزت فى بيت أبو يوما . يريد الخمر المعتقة .
(٩) تقل : أى تستثقله وتحقره . وفى ت : « تقل » .   (١٠) مورسة : صفراء .

إنّ الليالى لم تزَل   بمؤنسٍ لى مُؤنِسه
وإنها عن بعض ما   يُنهضنا لمُجلِسه
تُبدى رضًى مُطمِعة   بعد ازورار مُؤيِسه
وليلُنا يُبدى لنا   خُنَّسَه(١) وكُنَّسه
ومن أتى فليَترُكنْ(٢)   عنه بعيداً فرَسه

ولولا شُهود عُدول وأشياء ، كما قال ابن الزيات(٣)، لسمع تصحيفه الساعة ، وشرع فى الخلاعة ، لكنّ الليلَ وأهضام الوادى(٤) ، والإصرار على ما عُلم والتمادى .

وكَتب إلى أبى القاسم بن يامن :   [خفيف]   شعره إلى ابن يامن

شِيمةُ الخُلف عادةُ الأيامِ   فغريبٌ إذا وفتْ بمَرام
وعجيبٌ من الليالى رَباحٌ   وسَماحٌ لشملنا بانتظام
وإذا أسعفت بنَيل الأمانى   فُرصةٌ منك بُودرت باغتنام
رُبَّ برقٍ أبدى مَخيلةَ صِدقٍ   بتَوالى تألُّقٍ وابتسام
وتصدَّى بكَرِّ الوَمض حتى   أطمع الرَّوضَ بانسكاب الغَمام
فسَرى دَجْنُه ولم يَبرِ عنه   ما كسا وجهَ بِشره من قَتام
[7B] وعزيزٌ أنْ بتُّ ليلى(٥) سليما   ذا ارتقابٍ لطارق الأحلام
وارتقابُ الخيال غيرُ مفيدٍ   لجفونٍ لم تكتحل بمنَام
من تمام الوُعود قد خِفتُ نقصاً   فانتقاصُ البُدور عند التَّمام

---

(١) الخنس : الدرارى الخمسة : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . والكنس : النجوم تطلع جارية .
(٢) ب : « فليتركن » .
(٣) هو محمد بن عبد الملك ، المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم والواثق . وكان نحويا أديبا . ولد سنة ١٧٣ هـ ومات ببغداد سنة ٢٣٣ هـ .
(٤) الأهضام : جمع هضم ، وهو مسقط الجبل وما غاب من الأرض . ويقال فى التحذير من الأمر المخوف : « الليل وأهضام الوادى » . يعنى احذر فإنك لا تدرى لعل هناك من لا يؤمن غائلته .
(٥) ت : « ليل سليم » .   (٥) ستأتى ترجمته (٥٣ — ٥٩)

ورأيت آئتلافنا دون وَعْدٍ   هو أحلى كالكَرى بعد الأُوام

نصِلِ الآنَ دون رَيْثٍ لنقضى   ما علينا مِن واجب الآثام

إنما نَشْــوة النهار آنفضاحُ   وآنتضاح السُّرور عند الظلام

شعره إلى ابن همشك على هدية من حمام

وكتب إلى محمد بن يحيى بن هَمُشْك :

[مجتث]

أهــدى الجيمُ حَمَامَا   فهِمْتُ عنــه[1] غَرامَا

أبدى[2] صباحاً ولكن   جَرَّ الذُّنابَى[3] ظَلاما

أبيضٌ وأحمــرَ جَفْنَا   فهل سَقَوْه مُداما

قد فارق الدَّوح لمـا   رأى الفِـــراق لِزاما

لذاك نَمَّ عليــه   دمع الغَمام سِجاما

وقد ثنى الغُصنُ عِطفاً   فمـا آستطاع قَواما

فإن تَهُبَّ رياحٌ   تُبدى الغُصونُ[4] ٱلتِداما

على فِراق حَمام   لا ذاق يوماً حِماما

وله ارتجالا فى أشياخ الخلافة

وقال آرتجالا :

[وافر]

أشياخَ الخلافة لا بَرِحتُم   على حال آئتلافٍ دون بَيْنِ

وإحسانُ الخليفةِ[5] فى تَوالٍ   عليكم كُلَّ يوم مرَّتينِ

وللكُتَّاب قد وجبت عليكم   زكاةُ المالِ وهى زكاةُ عَيْنِ

وقد أدَّى للذى قد كان فرضاً   على إحسانه ابنُ أبى الحُسينِ

(1) ب : « فيه » .

(2) ب : « بدا » .

(3) الذنابى : ذنب الطائر .

(4) الالتدام : ضرب الصدر .

(5) ت : « الخلافة » .

وله من تونس إلى المشرق

وكتب من تُونس إلى المشرق قصيدةً منها :

[كامل]

إيهٍ أبا الحسَن آستمع شَذْوِى كما   يُصغِى الحَمامُ إلى الحمام ترنُّمَا

وأجِل جُفونك فى سُطورٍ لم تكن   لولا تَصعُّدُ زَفرتى أن تُفهما

وإذا لمحتَ فريدةً منها فلا   تعجبْ لناظمها فمنك تعلَّمَا

بالله طارِحْنى الحديثَ فإننى   أهْوى حديثَك مُفصِحا ومُجمجِما

وآستبق بالنَّجوى الخفيَّةِ بعضَ ما   أبقيتَ لى إذ لم تدع إلَّا ذَما[1]

أتُراك مِن نادى السُّرور سلوتَ أم   ما زِلْت مثلى فيــه صَبًّا مُغرما

تتجاذب الأشواقُ قلبىَ كلَّمـا   أبصرتُ فيه مكانَك المتوهَّما

ويطُول حَنينى[2] للكُؤوس تذكُّرا   فإذا شربتُ شربتُ فيها[3] العلقَما

إذ ليس يعذُبُ موردٌ حُلِّئْتُ[4] عن   أرجائه ولو آنّ أموت من الظَّما

وَيْحِى لهذا الدَّهر فَوَّقَ[5] أسْهُما   للحادثاتِ فكنتُ أولَ مَن رَمى

أغرى بنا البينَ المُشتِّتَ والنَّوى   لمَّا رأى شَمل الجميع مُنظَّما

(1) الذماء ، بالفتح والمد ، وقصر هنا للشعر : بقية النفس .

(2) ب : « حسى » .

(3) ب : « فيه » .

(4) حلئت : منعت . وفى ب : « خليت » .

(5) فوق السهم : جعل له فوقا ، وهو الفرض للنصل .

[8 A]

٣- أبو الحسن حازم بن حازم

نبذة عنه

شاعر مُجيد، وحَبيب مَجيد، بيته في قرطاجنة من عَمل مُرسية مشهور، وشعره يطوى الأقطار وذكره مَنشور؛ وهو في نَظمه طويلُ النَّفَس، مُنيرُ القَبَس؛ مُقتدر على حَوك الكلام، مديدُ الباع في مَيدان النظام؛ لا يخلو من الألفاظ المبتدعة، والمعاني المولَّدة والمُخترعة؛ رَحل إلى المغرب فاشتهرت له به(١) قصائد، لم يَخْلُ نظمُها من فرائد؛ ثم قَصد هذه الحضرةَ العليّة، في الدولة الأميرية؛ فكانت له بها أمداح، كطُلوع أنوار الصباح. وهو الآن تحت إحسان المقام الإمامي المُستنصري، خلَّد الله دولته، وأبقى على الكُل بَركته. وقد تشرّف الحُضور في المجلس الكريم، وأخذ(٢) معه فيما تجذبه المُذاكرة من النَّثر والنَّظيم.

شعره في بيعة أهل إشبيلية

وهو ممن استفدت من آدابه، وأنشدني شعره فقيدتُ في هذا الباب ما اخترت من لُبابه؛ فمن ذلك قوله(٣) من قصيدة أميريّة، ذكر فيها بيعة أهل إشبيلية:

[كامل]

مَدّت إليك يَدَ المُطيع وبايعتْ   منك الإمامَ المُرتضَى المُتخيَّرا

فَقَبِلْتَها لا لازدياد مَخافـةٍ   بل رغبةً في أن تُثاب فتُوجَرا

له في وصف سحابة

وقوله الذى بان فيه مقدارُ فكره، وللقائل أن يقول إنه أميرُ شعره؛ وهو من قصيدة في وصف سحابة:

[كامل]

من كُل بكرٍ حُرةٍ ما فارقتْ   إطـراقَها وبُكاءَها وحيـاءَهـا

يبدو احمـرارُ البرق في صَفَحاتها   خَجَلًا إذا رفع النَّسيمُ رِداءَها

وقوله:

[كامل]

فَتق النسيمُ لَطـائمَ(٤) الظَّلماء   عن مِسكةٍ قَطرت مع الأنداء

وغدا الصباحُ يَفُضُّ خاتمَ عَنبر   بالشَّرق عن كافُورةٍ بَيضـاء

والكوكبُ الدُّرِّيُّ يَزْهـر سابحًا   في مائه كالدُّرة الزَّهـراء

وكأنما ابنُ ذُكاءَ(٥) يُذكى مِجمرًا   منه تُفيد الريحُ طِيبَ ثَناء

(١) ت: «بها». (٢) ب: «ويأخذ». (٣) هذه الكلمة ساقطة في ب.
(٤) لطائم: جمع لطيمة؛ وهي وعاء المسك. وكذلك هي العير تحمله.
(٥) ذكاء: الشمس. وابن ذكاء: الصبح، لأنه من ضوئها.

له في الورد الأبيض

وقوله في الورد الأبيض: [طويل]

ومُبيضَّـةِ الأثواب تُدعى بَوردة   تَقِلّ لها الأشباهُ عنـد التماسها

أبانتْ على ساقٍ لتشربَ عَندمًا   أشارت لها كفُّ البُروق بكاسها

بجاريةٍ قامتْ ببِيض(١) غلائلٍ   مرفَّعةً أذيالَها حولَ راسها

له في الحسن

وله [أيضا](٢):   [بسيط]

سُلطانُ حُسنٍ عليه للصَّبا عَلَمٌ   إذا رأته جيوشُ الصَّبـر تنهزمُ

له في الفكر

[8B]

وله ارتجالا: [مديد]

ملأتَ لي من أبدعِ(٣) الحِكَمِ   دَلْوَ آمالي إلى(٤) الوَذَمِ

بنتَ فِكْرٍ مُتَّ إذ قَدِمتْ   لتلقِّيها على قَـدَمِ

فارتوى منها على ظَمأٍ   خاطري من مَوردٍ(٥) شَبِمِ

أصبحتْ أولى بما نَسبتْ   لي من الإحسان والكرم

ومنها:

دونكم ما قـد تَكلَّفه   خاطرٌ يشكو من السَّأَمْ

مَن بوادي(٦) الشعر هام هَوًى   فَفُؤادي فيـه لم يَهِمِ

إنّ رسم الشعر في خَلَدى   طَلَلٌ أقوى(٧) على القِدَمِ

وكتب مع هذه الأبيات: [مديد]

بنتُ فِكرٍ لا نظيرَ لها   صاغها من لا نظيرَ له

وأمـدّ الله خاطرَه   بهُداه(٨) حين أعمـله

فحَباها الله إذ كَمُلَتْ   ما حَباه حين كمّلـه

وعلى الأقوال فَضَّلها   مَن على الأقوام فَضَّله

(١) العندم: دم الأخوين، وشجر أحمر. (٢) التكملة من ت. (٣) ب: «ملأتَ عيون الحكم».
(٤) الوذم: جمع وذمة، وهى السير الذى بين آذان الدلو وعراقيها تشد بها.
(٥) شبم: بارد. (٦) ت: «من يودي».
(٧) أقوى: خلا من سكانه. (٨) ت: «وهداه».

٤- أبو عبد الله محمد بن خطاب الهنتاتى (الجيانى)(١)

ترجمته

من حفاظ الموحدين الجلة ، الذين حلوا فى الأمانة كل مهم فحملوا كله ، وكم حلوا فى دولتهم بمحل(٢) ، منتدى للطلبة والأعيان ، يرد منهم كل حاتم ، [على](١) السمع من كعب وحاتم ، إلى أن قلبت الأيام ظهورها ، وولت المأمور أمورها ، فحفظ حسن عشرة السالفة ، ولم يزل من أصدقائه لسابق حسناته كالواو العاطفة .

وكان من النادر أن اصطفاه رئيس الأندلس فى عصره أبو عبد الله بن الأحمر فصيره كاتم ، وقلده مهماته ما بين خطتى السيف والقلم . ثم وفد على الحضرة العلية تونس — حرسها الله — فقدم على قبيله ، وشورك فى كثير الأمر وقبيله ، مرة فى الرسالة إلى البلاد ، ومرة فى الحكم بين العباد .

شعره إلى [illegible] مرتب

كتب لى أبياتا صحبة مرتب كان تقدم(٣) لى على يديه :

[مخلع البسيط]

يا من له فى العلا الشمم ... وفى المبادى له ارتسام
إن الذى منه قد بعثتم ... لم يحو رسما له الزمام
وما سرى من أخ محب ... البسكم ردة حرام
حتى يعود الذى قدمتم ... فإن الآسم جسام
فلا تصغر فؤاد صب ... يعرفه منك والسلام

شعره فى مدح صاحب مشورة [٥٨]

وقال يمدح صاحب مشورة(٤) :

[بسيط]

أمضى(٥) الكتائب بيض من قواضبه ... مفلولة وتبى أقلامه الكتبا
قد أعد حساما للجلاد به ... وللجدال لسانا مثله(٦) ذربا
فى كفه قلم ماض يصرف به ... أمضى من القضب الهندية القضبا

(١) الكلمة من ت ... «أبو محمد عبد الله» .
(٢) جيان : كورة تتصل بكورة البيرة فى شرق قرطبة .
(٣) ب : «تقد» .
(٤) ت : «شرقه» .
(٥) ب : «تمن» .
(٦) ذرب : حاد .

يمضى بما شاء من نفع ومن ضرر ... فى كل خطب له حد الحسام نبا
يحكى شباه خضيبا بالمداد شبا ... مهند بالدم المسفوك قد خضبا
كأن آثاره فى الطرس رائقة ... آثار غيث يغادى الروض منسكبا

له فى طلب لقاء

وقال ارتجالا :

[بسيط]

أريد اجتماعا بالوزير فإننى ... إليه وإن طال المدى لمشوق
وإن مقامى برهة عن لقائه ... وإن كان عذرى واضحا لعقوق
فما زال ودى نحوه يستحثنى ... ولكن علات الزمان تعوق

وله مثله

وقال ارتجالا :

[وافر]

أبا عبد الإله ولى فؤاد ... يحبك دون لقيا أو عيان
وإن عاق الزمان عن التلاقى ... فإنك عامر أبدا جنانى
وشكرى والثناء عليك دأبى ... فلم تبرح جنانى أو لسانى
سلوا ابن هشيك المثنى عليكم ... يخبركم بذلك عن بيان

وله يستهدى كتابا

وقال ارتجالا :

[وافر]

أيا نجل الجواد ابن الجواد ... ومن بالمجد أصبح ذا انفراد
لقد تاقت إلى الأخبار نفسى ... فمتعنى بسفر(١) «المستجاد»

وله فى كورة فرس

وقال ارتجالا :

[مديد]

إن يكن طرفكم نحا بجدير ... أنه حامل جميع الوجود
لم يرد الشكر للإله على ما ... خصه منكم بغير السجود

وله فى الجبنات

وله فى الجبنات(٢) :

[بسيط]

وحامل مثقل حانت ولادتها ... وما تمس بطلق لا ولا تلد
أزواجها عصبة كل يباشرها ... وهم لأم وزوج واحد ولد
فأعجب لما ولدوا لم يأثموا فغدت ... تصلى الجحيم ولم يرحمهم أحد

(١) لعله يريد «المستجاد من كتب الأحاديث» للدارقطنى .
(٢) الجبنات : نوع من القطائف يضاف إليها الجبن فى عجينها ، وتقلى فى الزيت الطيب . (نفح الطيب ١ : ١٧٢) .

وله مجيبا

وله جواباً : [خفيف]

يا أميرًا طَرْفَ المجرّة(١) أجرى — فأتى الواضحَ المحجولَ(٢) الأغرّا
ليت شعرى أرقعةٌ وردتنى — منك أم روضةٌ تفتّح زهرا
أم قد اَودعتَ سحرَ هاروت فيها — فلذا أطلعتْ من السحر شعرا
أطلعتْ فوق طِرْسِها ما اجتنينا — منه زَهْرا أو اجتليناه زُهْرا
وتبدّت عروسَ حسنٍ تجلّتْ — قد تحلّت على الحُلَى منك دُرّا

بينه وبين محمد ابن خطاب [9 B]

وورد عليه ، وهو بالجزائر ، الشيخ الفقيه الأكرم أبو محمد ، ابن القاضى مروان . وهو يريد الأندلس فى البحر ، فوجّه إليه ما أمكن مما يلزم الصاحبَ من الصاحب / وكتب يعتذر إليه فى ضيق أحوال البلد وتعذّر المطالب . فكتب له شاكرا بأبيات . فجاوبه أبو محمد ابن خطاب : [طويل]

أيا سيّدى الأعلى ويا عِلْقَ الأغلى — ومن قُرْبه أنسانِىَ الصَّحبَ والأهلا
أتتنى حروفٌ منك أغليتَ قيمتى — بها حين هذا الدهرُ غادرنى غُفْلا
لك السبقُ فى كل المكارم إنّها — سجيّةُ نفسٍ منك أشربت(٣) الفضلا
فأنت الذى برّزتَ مجدا وسؤددا — وفُقْتَ الورى عقلاً وفُتّهمُ نُبلا
فبُعدًا لهذا الدهر بُعدًا لأنه — أبَى أن يُرى سلما لمن قد زكا أصلا
أمثلكمُ يُلقَى مُضاعاً وقدرُهُ — مكانَ الثريّا حين يُوصف بل أعلى
رعاك ضمانُ الله فى كل وجهةٍ — ولقّاك ما تخشى تعذّرَه سهلا

وله إلى صديق أبطأ فى خطابه

وكتب إلى صديق له نظاماً ونثرا ، وقد أبطأ عنه جوابه ، ونأى عنه خطابه : [بسيط]

شوقى إليك مع الساعاتِ يزدادُ — وبيننا من عوادى الدهر(٤) أسدادُ
لولا جفاوةُ ما بينى وبينكمُ — لكان منّى إلى مثواك تَرْداد
حتى أشاهدَ محمودَ الخلال نمتْ — به إلى المجد آباءٌ وأجداد
من كل ذى كرمٍ سهلٍ خليقتُه — نمتْه للمجد أمجادٌ فأمجاد

(١) ت : « المرة » .
(٢) المحجول : الخلاخيل ، ويريد سواسيها من الفرس .
(٣) ب : « أشرقت » .
(٤) أسداد ، أى سدود .

أتم الله عليكم سابغ النعمة ، وأحفكم أثواب الوقاية والعصمة . لى منذ زمان أرتقب(١) خطاباً منكم ارتقابَ هلال الفطر ، وأحسن الظن فأقيم لكم جَلّ العذر ؛ فإن تفضلتم بذلك صنعتم جميلا ، وأسديتم(٢) جليلا ، وإن غلب التغافل ، وظهر التثاقل عن ذلك والتشاغل ، ثبتت مودةٌ فى الله قصمتمُ عُراها ، وما كان أولاها ألا تُقصم وأحراها ؛ مع أنى عليها مقيم ، ولها ما حييت لزيم ؛ والله يجعلها لوجهه خالصة ، ولديه مُزلِفة .

وله ارتجالا

وقال ارتجالا : [كامل]

يا سيدى ومعظّمى أنت الذى — دون الأنام محضتُ صفوَ ودادى
أنّى إلى ما شئتموه مبادرٌ — متوفّرُ الإسعاف والإسعاد
فتى تشاء لقاءه لم يمتنع — فلقاؤه سهلٌ على القُصّاد
يلقاهمُ بالبشر والترحيب لا — جافى اللقاء ولا منيعَ النادى

وقال ارتجالا : [وافر]

أقرّ سماعُه قلبى وعينى — بشيرٌ قال : صحّ أبو الحسين
وجلّى عن فؤادى ما عراه — من اَوصابٍ ومن صدأ ورين
/ وبى(٣) شوقٌ إلى لُقياه(٤) برحٌ — فإن أرهُ بلغتُ الحسنيين [10 A]
فمن لى متى ألقاك وقتا — يؤلّف فيه بينكمُ وبينى

وله إلى صاحب منورقة

وكتب إلى صاحب جزيرة منورقة(٥) : [خفيف]

يا رئيساً أرسى بحارَ علاه — فوق هضبٍ من الفخار منيف
قد عدانى عن الخطاب اشتغالٌ — بأمورٍ من كيد(٦) دهرٍ عنيف
كلّ يوم يسومنى فوق طوقى — ما تليدى يعيا به وطريفى
مع نفسٍ تروم أعلى المراقى — وزمانٍ نكدٍ وجدٍّ(٧) طفيف
وودادى لكم شهيدى عليه — من حوى طرسُه نظامَ حروف
مُخلِصُ الود فيكم ابن هَمُشْـ — ـك خيرُ خلٍّ وصاحبٍ وأليف

(١) ت : « زمان وأنا فى ارتقاب هلال » .
(٢) مكان هذه الكلمة بياض فى ت .
(٣) ت : « ولى » .
(٤) برح : ملح مؤذ .
(٥) ت : « منرقة » .
(٦) ب : « كل » .
(٧) ت : « ضعيف » مكان « طفيف » .

وله في ذبابة ابتلعتها عنكبوت

ونظر إلى ذُبابة دخلت بيت عَنكبوت فابتلعتها العنكبوت ، فقال ارتجالا :

[خفيف]

لو قَنِعْنا طُولَ الحياة بقُوتٍ   وبِكِنٍّ من بَعض هذي البُيوتِ
لاسترحنا مِن كدِّنا وأتانا   قُوتُنا مثلَ هذه العَنكبوت

وله إلى صاحب أراد زيارته ليلا

وكتب إلى صاحب له ، وقد عزم على زيارته ليلا :

[مخلع البسيط]

ياسيدى حَثَّنى اشتياقى   وطار بى نحوكم نِزاعِى
فانقدتُ طَوعاً وقد حَدانى   شوقٌ سَما غيرُ مُستطاعِ
لَيَتُّه عند ما دعانى   منه لذاك الجَلال داعِى
وعَزمتى أن يُرى مَبيتى   عند أخٍ حقَّه أُراعى
فتُنعِموا بالمُقام حيناً   يُرى محلًّا للاجتماع
ولتَسمحوا إن يكن[1] جفاءٌ   بخُلقك الفاضل الوَسّاع
دُمْتَ عزيزاً بحيث تُمنَى   عن رُتبة المجد ذا ارتفاع

وله في الغرض السابق

واتفق أن أقام أبو محمد بن خطّاب بالباب الكريم إلى هَزيع من الليل ، فكتب له يومًا ثانيا يعتذره :

[مخلع البسيط]

يا سيدى والذى حُلاه   يَقصُر عن وَصفهن باعِى
لم أُخلِف الوعدَ باختيارى   تخلُّفُه ليس من طِباعى
لكنْ عَرانى انتظار غَلْق   باباً لذى الإمرة[2] المُطاع
بِتُّ والشُّهب قد تولَّت   والليلُ للفجر ذو اطّلاع
وبِتُّ لما حُرِمت حَظِّى   من ذاك والقلبُ ذو انصداع

[10 B]
وله يجاوب ابن همشك

/ وكتب له محمد بن هَمُشْك عاتباً[3] لإغبابه عنه فى شكاية أصابته ، فجاوبه :

[متقارب]

حفِظتُ العُهودَ ولم أنسها   فإنْ لها عند مثلى وُجوبا
ولم أكُ أدرى الذى قد عَرا   كَ فما أحدٌ بات يدرى الغُيوبا

(1) ب : «يكن» .
(2) ب : «باب الأمر المطاع» .
الإغباب : أن يزور يوما ويقطع يوما .

فإنّى فى شُغُلٍ شاغلٍ   تكاد القُلوبُ له أن تذوبا
فإنّ الذى باحتساب الطعـ   ـام يُرى مُبتلًى حقُّه أن يَثيبا
وما زال بِرُّك مهما أتى   أراه بعَتْب ولَوْمٍ مَشُوبا
فلا تعتبنّ أخًا إن هَفا   رجاءً بما وُدّه لن يَغيبا
فليس العِتابُ لذى[1] خُلّة   إذا لَجَّ فيه بمُبقٍ[2] حَبيبا
وأنت الولىُّ وأنت الصفىُّ   فلا تكُ فى خُلّتى مُستريبا
وُقيتَ الذى تشتكى ضُرَّه   وحطّ به الله عنكَ الذُنوبا

(1) الخلة : الصداقة .
(2) ت : «بمق» .

٥ - الرئيس أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي(*)

ترجمته

من طَلَيرة ، غرب الأندلس . جال فى المغرب ، وانتهى إلى حَضرة تُونس قبل الدولة الأميرية ، ثم ولى أشراف بجزيرة(١) مَنُورقه ؛(٢) فملك قلوب أهلها بحسن الخلق والإحسان ، إلى أن كان من ٱستيلاء العدو على جزيرة مَنُورقة(٢) فى سنة سبع وعشرين ما كان . نقلّ أهلُ مَنُورقة(٢) بينه وبين زِمامها ، فأحسن تدبيرَ المُسلمين بها ، ودارَى النّصارى عن مَرامها ؛ فدامت مُدته إلى الآن ، وٱمتدت أياديه المَشهورة فى كل قاصٍ ودان ؛ فكم لقيتُ بأقطار المغرب والمشرق من أديب ، أو شاعر أو حسيب ؛ خَلع عنه رِبقة الإسار ، ونقله إلى قَرارة الإسلام عن محلّة(٣) الكُفّار . وكم سمعتُ أن أديبًا أو غريبا أو مَليا خاطبه يشكو انكسار حاله بجَبره ، وسرى إليه مُستميح برّه خائضا البحر فأثره .

من مكرماته

وما يجب أن يخلّد من مَكْرُماته ، ويُطرّز به ذكرُه من عَلِيّ همّاته ؛ أن المجاورين بالحَرَمَين ، يستعينونه على ماهم بسبيله فيُعينهم من اللُّجين والعين ، بما يُثلج الجَنان ويُقِرّ العين .

لابن سعيد فيه

ولما عُدت لهذه(٤) الحضرة العليّة وقفتُ على محاسن من شِعره عند رسوله ، فكتبتُ عليها ما عرضه على فضلِه فكان مِفتاحا لقَبوله :

[مديد]

إنما شِعرُ الرئيس ٱبن حَكَمْ ... بِدَعٌ من كلِّ فضلٍ وحِكَمْ

لو بنو حَمْدان أصغَوْا نحوه ... حَمِدوا البحرَ(٥) الذى فيه ٱنتظم

من شعره
[11A]

/ وكان مما ٱختَرته لهذا الكتاب من شعره ، الذى دَلّ على ما ٱنطوى عليه كَرَم نَجره(٦) :

[مجزوء الكامل]

لا تمنعِ المعروفَ يو ... مَ مُعرِضًا ومُعرِّضا

فكِلاهما من حقّه ... فيه له أن يُقْرَضا

(*) الحلة السيراء لابن الأبار (ص ٢٥٥) . أعمال الأعلام لابن الخطيب (ص ٣١٦) . المغرب لابن سعيد (٢ : ٤٦٩) .

(١) ب : « مدينة » .

(٢) ت : « منرقة » .

(٣) ب : « محل » .

(٤) : « لمل » .

(٥) ب : « السحرى » .

(٦) النجر : الأصل والحسب .

هـذا تَنزّه فاستحـ ... ـق على نزاهته الرِّضا

والآخر ٱستحيا من التّـ ... ـصريح فيه فعرّضا

هـذا الذى مازلتُ أُفـ ... ـعل أو أقول تعرُّضا

عود إلى المختار من شعره

وكتب من جزيرة مَنُورقة(١) إلى حَضرة تُونس جوابًا بهذه الأبيات ومعها نثر :

[مديد]

ما رأينا كعليّ بن موسى ... يَبتني بالشّعر منّا النفوسا

قد أرانا الشّعر سحرًا حَلالًا ... سائغًا لو نحتسيه كُؤوسا

إنّ أبياتَ علىٍّ على الشّعـ ... ـرِ عَلَتْ حتى تجلّت رُءوسا

مثله مَن طاب جنسًا(٢) ونفسًا ... إنما يَمنع عِلقا نَفيسا

لا عَدِمناه خليلًا جليلا ... نَجِد الفضلَ عليه حَبيسا

أمتع الله بك أيها الوليّ الكريم ، الوفيّ الصميم ، الشريف أبًا ، المُنيف حسبا ، وصنع لك ، وبلّغك أملك . يخصّك بالسلام الطيب كثنائك ، الصيّب كوفائك(٣) ، مُحبّك بالحق الواجب ، ومُعظّك من الود بين الترائب : سعيدُ بن حكم . ولا جديد إلا عناية الله تعالى وكفايته ووقايته — سبحانه — التى هى خيرٌ من دفاعنا ، وحمايتُه ، وقد وردت الحديقتان الأنيقتان ، والروضتان النَّفِحتان ، تَعبقان إذا(٤) تُنشقان ، وتَروقان لما ترمقان ، والحُسن من مرآهما يُسفِر(٥) ، والدُّجن ينجلى من سناهما إذا يُسفر(٤) ؛ سبقت أولاهما كالبُشرى ، ونسقت بعد على إثرها الأخرى ؛ تواتا بالوفاء كله ، وبالقاء للقاء ، وكُلّه ؛ وجاءتا خفيفتى المَحمل ، لطيفتى المُجمل ؛ قد رفقتا قرآنا ، وشقتا شُقة البعاد بعد ما شاقتا ؛ فلله مُهديهما ومُطلعهما نيّرتين ، لقد أوجب برهما(٦) حقًّا كبيرا ، وحمل من شكرهما ما يُثقل ثَبيرا(٧) ؛ والله يتولاه ، ويحفظ عليه من الحلى ما أولاه ، وهو العليم سبحانه بأنّ لى نفسًا توده ، وقلبا يَحسبه صدرا فى أهل صفائه ويعُدّه . وإن ما يَبين(٨) له من أدب بهذه الأرجاء ، فتلقّ بواجبه من الاعتناء ؛ وجوابه بذلك مرتقب ، وإعلامه بأحواله جَرَت وفق آماله أرَب مافوقه أرَب .

(١) ت : « منرقة » .

(٢) ت : « نفسا ونفسا » .

(٣) ب : « كرمالك » .

(٤) ب : « ولا » .

(٥) يسفر : يضئ .

(٦) ب : « برها » .

(٧) ثبير : جبل بمكة . وفى ب : « ما يثقل يسيرا » .

(٨) ت : « وإنما يبين » .

وله يجاوب ابن سهيد

وله أيضا : [مجزوء الرجز]

البس من الكَرَم ... شُكْرٌ أيادى النِّعَم

الشكر دَيْنٌ فلقُل ... بفرضه ولْتَقُم

ولْتَرمه للذى ... لغيره لم يَلْزَم

/ولْتُوجب الحقَّ له ... بكُلِّ قلبٍ وفَم

[11 B] فإنَّ ذاك آيةُ[1] الدِّ ... ينِ الحنيف . القيِّم

وله فى الحضرة العلية

وخاطب الحَضرة العليّة بما صَدَّقه الوجود ، وأبرزته السُّعود : [سريع]

خليفة الله فى أرضه ... إليه يدعو وإليه يُنيب

كأنّى عمّا قريب به ... والبُرد قد سِيق له والقضيب

عندطُلوع الشمس يُجلى[2] جُفو ... نًا تملا الجفان عند الغروب

فيجد الضِّيفان فى ظِلِّه ... بَرْد القِرَى من حَرِّ نار الحُروب

وله فى مثل ماسبق

ومما خَتم به خطاباً إليها، لا زالت وفود البُشرى تَرِد منها وعليها : [مجزوء الرمل]

يا أمير المؤمنينا ... يا إمامَ العالَمِينا

نحن ما دمتَ بخير ... لا نزل فى الداعِينا

أمَّن الله بك الخا ... ئف آمين آمينا

وله فى دنس الثياب

وله ارتجالا فى دنس الثياب : [كامل]

أعيا على الغُسّال غسل ثيابه ... وتقاصرت عنها يدُ القَصّار

ولقد طلبتُ لها غَسولاً جاهداً ... فلمّا[3] ظفرتُ لها بغير النار

وله فى مؤذن قبيح الصوت

وفى مُؤذِّن سيئ النَّغمة : [مجزوء الرجز]

للأُبْدِى آذانُ ... تحس فيه هَوانُ

مِن أجله تَسلاق ... آذانُنا والبَنان

(1) ت : «أبدت» . (2) ب : «تجل» . (3) ت : «لما» .

ومن كلامه مما يَروق معنًى ، ويفوق مبنًى : [كامل]

من قطعة الرائق

إنّى لأَكْلَفُ[1] باسمها كَلَفى بها ... فانظر فهذا للعَفاق[2] شِعارُ

وإذا أمرُّ بدارها فكأنها ... قد دَرَّ فيها الوابلُ المِدْرار

غابت فأبكى بعدها شوقاً لها ... والشمسُ تَهْمُل بعدها الأمطار

تالله ما لمحت جُفونى مُذ نأت ... نُوراً وهل بعد المَهاة[3] نَهار

بيضاء تحسب أنها من فِضّة ... فى الخدِّ منها للحياء نُضار

مالت مَعاطفُها ولان حديثُها ... أيكون عن ثمر الجفون نِمار

لو لم تُحلَّ لكان حَلْياً ثغرها ... إنّ الغُصون حُليُّها النُّوّار

تخشى البريّةُ مُقلَتَيها غيرَها ... أيهاب سَورة نَبْله[4] الأسوار

وله فى تحف وصندوق

ومن قوله ارتجالا لمحمد بن أحمد بن الحلاب ، وقد وَهب له تُحفاً مُنوَّعة ووجَّه له إثر ذلك صُندوقا : [سريع]

صُنْ دِقَّا[5] أو جِلًّا بصُندوقِ ... تُحِطْهما من كُل مَخلوق

فلا تُرى تدعو على سارقٍ ... ولا تُرى تُدعى بمَسروق

لا تعدُ «قيِّد» وتوكّل تكُنْ ... بصادقٍ تامٍّ مَصدوق

نظمه إشارةً إلى ما رُوى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : يارسول الله ، أُقيِّد/راحلتى [12 A] وأتوكّل أم أُرسلها ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قيِّدها وتوكّل .

وله فى الصفح

ومن كلامه : [مجزوء الكامل]

الحِقد داءٌ فى القُلوبْ ... والصّفحُ منه هو الطَّبيبْ

فاحلُمْ عن الجانى فقد ... يدعوه حِلمُك أن يَتوب

وانسَ الذُّنوب فإنما ... ذِكرُ الذُّنوب من الذُّنوب

(1) ت : «لأحلف» . (2) ت : «للكتاف» .
(3) المهاة : المرأة ، تشبيها لها بالبلورة ، أو البقرة .
(4) الأسوار ، بالكسر والضم : هو الجيد الرمى بالسهام .
(5) الدق : الدقيق . والجل : نقيض الدق .

وله فى مثال نعل النبى صلى الله عليه وسلم

ومن كلامه – أبقاه الله تعالى للبدائع جاليا ، وبحُلى المدائح حاليا – فى مثال نعل النبى صلى الله عليه وسلم :

[متقارب]

بأبى مثالٌ لنعلِ القَدمْ   ألا بل مثالٌ لنعل الكَرَمْ
مثالٌ لنعلِ نبىِّ الهُدى   حذته(1) ثقاتٌ فما تُتّهم
وجاءوا به مُعلَمًا مُعلَنًا   بأفضل ما حِيلةٍ للقَدَم
وما إن يزال متى ما بدا   لغير امرئٍ مسلمٍ مُستلم
فلثمى له ثمنٌ مُنعِم   وذلك عندى ألذُّ النِّعم
ويُشرق أُفقى إذا بان لى   وإن بان عنّى عرتْه ظُلَم
ألستُ لما قد حذوه عليه   مشوقًا(2) وما الشوقُ إلا ألم
وليس الشِّفاءُ سوى أن أرى   بموطئه اللثمَ التُّربَ ثَم
هُناك وجودُ فؤادى هوى   وجسمى ثاوٍ هنا كالعَدَم

وله فى نوارة فى يد حسناء

وله ارتجالا فى نُوّارة بكفّ جارية حسناء حديثة السن :

[سريع]

نُوّارة تحمل نُوّارة   أبهَى(1) أيهما أبهجُ
كأنها فى كفها شمعة   خضراء لكنّ رأسها مُسرَج

وله فى شمعة

وله فى شمعة ، وقد سُئل ذلك :

[متقارب]

وصفراء من غير ما علّةٍ   لها أدمعٌ أبدًا سائله
تُطيل الوُقوف على واحدٍ   مدى ليلها فترى ناحله
تزيد على الشمس فى نورها   إذا ما غدت للدجى واصله
تُحارب دأبًا جيوش الظلام   فتُبصر مقتولة قاتله

(1) ت : «ألت» .
(2) ت : «أبهجنى» .

وله فى هجوة

وله فى محبرة حاج مُذهبة الحِلْية ، وذكر مِدادها وأقلامها :

[كامل]

حلّت على القَبَلِ البهيم صَباحا   وحمته باحتها وكان مُباحا
ونمت بنيه إزاءه وزرًا(1) له   فلما نبوا(2) فى النائبات رِماحا
وثمت رماحًا من نُضار فأنشئت   رقمًا لها صونًا لمم وصلاحا
أفلاذا تفرّج بابُها عنهم عنّا الا   أبٌ والبنون لأبيض إن لاحا
إن الوفاء لخُلّة لا نقضها(3)   [فى](4) خَلّة حتى تكون صُراحا

[12 B]

وله فى باكورة ورد

ومن قوله :

[خفيف]

هاك باكورةً من الورد تحكى   خدّ ظبى يُدمى بلحظ(5) العيون
فتذكّر بريحها ريحه إذ لد   ت تثنّى انثناءة بالغصون

إلى بعض أصحابه مع سفرجل

وكتب إلى بعض أوِدّائه مع نحس من السفرجل :

[خفيف]

وجوارٍ نُحسن كُسين اصفرارا   إذ سُلِبْنَ الذى لَبِسْنَ شعارا
قلبات وكنّ اللين أهلا   أىّ عُذر فى قسوة لعذارى
من بنات الرياض أمسين أحرا   را وأصبحن فى الأكفّ أسارى(6)
كُنّ بالبدر عاكفات فما إن   كان ما يلتحفن إلا اغبرارا
وجلُ ليلة البراء(7) كساهن   اصفرارا ألم تر الأبكارا

وله فى ضرس

وقال فى ضرس :

[متقارب]

حبيب أحاذر منه التلاقى   ومن دونه العيشُ مُرّ التلاقى
فقيته سببٌ للوصال   ورؤيته سببٌ للفراق

وله فى إبرة

وقال فى إبرة :

[مجزوء الرجز]

وما قناة من قناة الهنـ   ـد وفق(8) فعلها
عاريةٌ فى نفسها   كاسيةٌ لأهلها
حافرها فى عُلوها   ورأسها فى سُفلها

(1) فوق هذه الكلمة فى ت : «وربما» .
(2) ب : «فبا فدا» .
(3) ب : «ولا نقضه» .
(4) تكملة يستقيم بها الوزن .
(5) ت : «بلحظ» .
(6) ب : «فى الأكفان» .
(7) ليلة البراء : أول ليلة فى الشهر . وفى ب : «المرآة» .
(8) ب : «وما قناة قناة الهند فوق» .

وله فى أبى الربيع التينملى

وأجاز به — أعلى الله يده — رسولاً على الحضرة العليّة الإماميّة الحفصية — أيد الله أمرها، وأعزّ نصرها — الشيخ أبو الربيع سليمان بن على التينملى، المعروف بابن الغريب، وهو أحد وجوه الحضرة المخصوصين من السعادة عنها، بعظيم المزية وكريم الأثرة، فبالغ فى إكرامه، ووالى عليه [أنواع][1] البرّ أيام مقامه، ثم كتب إليه متمماً لمبرّته، ومكملاً لمسرته : [وافر]

سلامٌ لا يزال مَدى الزمانِ … من الحال المُجيلة[2] فى أمانِ
أخُص به حبيباً حلّ منّى … محلّ الأمن من نفس الجبانِ
أصون وِدادَه ما دمتُ حيّاً … وليس سوى فؤادى من[3] صُوانِ
وأذكُر عهدَه فأذوب شوقاً … إليه حنانَ عُذرىٍّ[4] الحَنانِ
سألتُ من الزمان لقاه فآســ … ـتجاب لنا على بُخل الزمانِ
لقاء أبى الرّبيع أقرّ عينى … وأدنى لى القَصِىَّ من الأمانى

له وبين من حاضره فى أبى الفضل عياض

وتحدّث يوماً مع أصحابه عن القاضى أبى الفضل عِياض بن موسى، وعِظَم فوائد تواليفه، فأنشده بعضُ الحاضرين بيتاً من كلام عثمان / بن عبد الرحمن بن موسى الشهرزورى، [13 A] المعروف بابن الصلاح، لنفسه فى مدح كتاب « مشارق الأنوار »[5] من تآليف عياض، وكان أبو عمرو لا يُغِب[6] عن مطالعته، والبيت : [طويل]

مَشارق أنوار تجلّت بِسَبْتَةٍ … وذا عجبٌ كونُ المَشارق بالغَرْبِ

فوصله — أعزّه الله — بما يشهد بعميم فضله، وكريم أعتنائه [بالعلم][7] وأهله : [طويل]

وما شَرفُ الأرجاء إلّا رِجالُها … وإلّا فلا فضلٌ لِتُرْبٍ على تُرْبِ
ولولا عياضٌ ما سَمَتْ سبتةٌ سنا الـ … مشارق[8] لا تخشى المغيبَ من غربِ
به قرَن الله السُّموَّ مع أسمها … فصحّ لها من أجله صُحبة الشُّحْبِ[9]

(١) تكملة من ت .
(٢) ب : « والحلية » .
(٣) الصوان : ما يصان فيه .
(٤) فى ت : « عذى الحنان » .
(٥) هو كتاب « مشارق الأنوار على صحاح الآثار » فى تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة ...
(٦) لا يغب : أى يصل مطالعته ولا ينقطع عنها . وفى ت « لا يبيت » .
(٧) تكملة من ت .
(٨) ب : « الشرق » .
(٩) ب : « الحب » مكان « الشحب » .

وله على حالة سيفه

وكتب على حِلية سيفه، من قوله : [بسيط]

أبشِر فقد نلتَ ما ترجو وتنتظرُ … وقد جرى بالذى تختاره القَدَرُ
وساعدتْك على الأيّام أربعةٌ … العِزُّ والنصر والإقبالُ والظَّفَرُ

وله فى قرطيس

وقال ورسم فى قرطس[1] : [خفيف]

أنا الكاتب الظريف أداةٌ … ولقد كان قبل ذا لى حياةٌ
بعض ما أحتوى عليه مُرادٌ … يوم سلم ويوم تُلقى العِداةُ

وله فى كنانة بعث بها إلى تونس

وقال فى كنانة بعث بها إلى حضرة تونس : [خفيف]

أنتمى عن يمين الخليفه … وأمسى فى ظلّ عليا منيفه
وأعلى أنك تُلْقَيْن من بعـ … ـد المعانى فمالى أليفه

له إلى ابن مفوز

وجلس مع الفقيه الحكيم أبى الحسن بن مفوز، فذكر سبباً أوجب القيام والدخول إلى الدار، للأمر بذلك الذى ذكر، فاستعظم أبو الحسن ذلك واعتذر عما صدر منه. فلما انفصل عن مجلسه — وصل الله سعده — كتب إليه : [رجز]

يا ضيفَنا الندب النبيه النبيلْ … رأيك لما ضِفتنا لا يَفيلْ
إن خفّفنا فى الذى تجتنى … فليس من حظرك[2] شىء ثقيلْ
أنكرته عُرفاً ومن شيمة الـ … إخوان[3] للأضياف بِرٌّ جزيلْ
لا سيما مثلك من لا ترى … به بديلاً أين منك البديلْ
أعاننا الله على واجب … من برك القرض بفعل وقيلْ

وله إليه أيضاً

وكتب إليه أرتجالا : [مجزوء الخفيف]

روضة ما لها نظيرْ … نورها ناعمٌ نضيرْ
من يقل إنها حد … يقة عهد فما يضير
كم قديم بعثته … وحديث وهو نضير

(١) القرطس : وعاء حاوٍ لأوراق الكاتب .   (٢) ب : « وحظك » .
(٣) ت : « الأحرار » .

وله ارتجالا

وقال أيضا :

[خفيف]

رحيلٌ مال كُلِّ مُقيمِ ... وتُزولٌ بباب دار الكَرِيمِ

أنا أخشى لكنّ رَجائى أقوى ... لقُدومى على الغَفُورِ الرَّحِيمِ

رَبِّ أغفر وأرحم فأنت غنىٌّ ... عن مَصيرى إلى العَذابِ الأليمِ

[13 B]

وقال/ ارتجالا :

[خفيف]

بارك الله فى يَدٍ كتبتكَا ... حَبَّبَ العِلْمَ من حُلَّ ما حَبَّتَكَا

ليس يُعزى لقتبةٍ خطّاتى ... كونها لابن مُقلة تَسَبَكَا

لغزه فى القتار

وله لغز فى القَتار ، الذى يُحمل فيه القنديل :

ما مصقول له رُواء ، يُحمول كأنه لِواء ، مَعمول على نِسَبٍ كلها سواء ، وما معقول فَفُؤاده هواء ؛ قد نُظِم نظما ، وما ضَمّ إلا عُودا وعظما ؛ يساير الظلام ويسامر ، ويناق الصباح وينافر ، وتُصادى[1] الرياح الهُوج ويصادر ، ومن لم يرد به الدُّجوجىّ أعيت عليه المصادر ؛ أحرف هجائه أربعه ، وعلى نير سمائه أرفعه ؛ إن أقرن على أوله أزت[2] ، أو بتكت آخره فتكت[3] ، وإن ألقيت ثانى أحرفه ألفيت[4] ما بعض الطوافين هامز لألفه ؛ ولا أعرض منه للثالث القائم ، فإن مُصحّف الباقى بعده سبب المناوح والمآتم[5] . أما تعجبون لمجره[6] الضياء ثم يجره ، ولوصله الظلام وهو ما يزجره ، يُرخى على النُّور فضل الذيل ، ويُعين على ناشئة اللَّيل[7] .

وله لغزا فى شمعة

وله لغز فى شمعة :

ماجبلة المَرْآة ، صَقيلة كالمِرآة ، مُنتصبة كالقناة ، مُرتقبة من الأذان بالمشنة للأذاة ، مع الاستعمال قريبة الحياة ، وعلى العُطلة والإغفال بعيدة الوفاة ؛ منهلّة وليست بغمامة مُستقلّة ولكن بدعامة ؛ ومع كونها تَهمى بدُرر ، تَرمى بشَرر ؛ كأنه ذهب حصل فى سِلك ، أو كأنه سَبَب ماء وهى منه عصا فُلك . تطفو على الماء وأُمِر وقتاً بإطفائها ، وليست من بيت النُّبوة وإن كان قد أُوحى إلى آبائها[8] . تنشفع بِصِنو كريم ، ووَد

---

(1) يصادى : يمنع .
(2) أى حذفت الفاء . وهو أول الحروف . فتبقى كلمة : « تار » .
(3) بتكت : قطعت . يريد حذف « الراء » فالباقى بعدها : « قتا » .
(4) فإن ما يبقى كلمة « قار » .
(5) يريد تصحيف « التاء » إلى همزة
(6) ت : « لوصله »
(7) ناشئة الليل : ساعاته كلها . وقيل : قيامه ، جاء مصدرا على فاعلة .
(8) يشير إلى قوله تعالى : (يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) .

لَصَ بشفائه كُلَّ سقيم . وترضع آبنا[1] لم تلده ، ذا عُقوق ، يُسرع إلى إفنائها ، ويتسعر فى ذاتها ، غير فَرُوق . إن أسند إلى العين مقلوبها[2] ، سالت قذى غُروبها[3] . صَدرها أسر بالاستنشاق[4] ، وعجزها زَجْر للنِّياق[5] . تقوم ليلها تهجُّدا ، وتُريك ابتساما دائما وتجلُّدا . ثم إنها تَنِمُّ على شاهديها ، وتُفشى أسرارهم وتُبديها . وهى بعدُ عن العَيب بمعزل ، ولم يحل بها طارقُ الغيب[6] بمنزل . فلا عَدِمتُها مُسامرا ، مُقيمًا ومسافرا ؛ ولا زلتُ لِصِنوها إلفا ، وله حليفا[7] . وهذه آباؤها آياؤها[8] ، وإماؤها إناؤها[9] . يجاورها أبدًا رَهن وحيد ، وهى على ذلك جنىّ عتيد ، وتصويب لديه وتصعيد ، وإنى لأحبها ولكن من بعيد .

وله مرتجلا

وله ارتجالا :

[سريع]

أسير فى ضَمان الله محفوظًا ... مُباركًا عليك محظوظًا

[14 A]

ولم[10] تزل بعين من لاتنا ... مُ عينه ماعشت ملحوظا

وله يخاطب ابن يامن

وله يخاطب الفقيه الأديبَ أبو القاسم بن يامن :

[طويل]

لِقطْعتِك الحُسنى لدىّ كرامة ... فما تعترى منها الوصالَ سآمةٌ

تطير إلى حَبِّ القلوب حمامةً ... ألا حيث يُلقى الحَبُّ تُلقى[11] حمامه

تُسَمّى بشِعرٍ وهى سِحرٌ وضِمنُها ... لمن سحرت يوما ضمان سَلامه

تلاءم منها لأْمةٌ[12] عرض لابس ... لها قلّما[13] تُفضى إليها مَلامه

أبا قاسم أحسنتَ ما شئتَ لم تزل ... كذلك[14] ولا تعدو العدوّ الآمه

وكتب فى صدر مجلس

وكتب فى صدر مجلس بناه بمَغرقة :

[سريع]

مجلسنا هذا لضيفانه ... طَلّق المحبِّ مِثل سُكّانه

إن يَكُ قد قَصَّر عن غيره ... فحُسنه زاد بإحسانه

---

(1) يريد ذبالة (شريط) الشمعة التى تحمل النار . (2) يريد : « العش » .
(3) غروب : جمع غرب . وهو عرق مجرى الدمع . (4) يريد : « شم » .
(5) يريد : « عا » .
(6) الغيب : الخبيئة . وفى ت : « ولما يزل لها » .
(7) ت : « وبه خليفا » .
(8) آياء : جمع أياء ، وهو من الشمس : نورها وضوءها وحسنها .
(9) الإناء : الخمر .
(10) ب : « ولا » (11) ت : « الحمامه » .
(12) اللأمة : الدرع والسلاح (13) ت : « لها قلم » (14) ت : « كذلك لا تعدو »

إنا لنرجو فيه من ربنا ... زُهدًا وقصداً مثل بُنيانه
آمالنا فى غيره والذى ... جاد به فالجود من شانه
فمن أتاه زائرًا فليقل ... لا زال ميمونا بأيمانه
وطفق الخيرُ مُقيمًا به ... ولا دنا الشرُّ لقُطّانه

وكتب إلى أبويه من المرية — قدس الله ضريحهما — أيام شبابه ، وارتحاله لنيل المجد وطلابه : — وله إلى أبويه

[طويل]

فراقٌ ومالى بالفراق يدانِ ... إلى الله مما جرّه الملَوانِ
قضى الله أن أحتل بالشرق بُرهةً ... وإن كان بالغرب القصىّ مكانى
ففارقتُه والنفسُ تأبى فراقه ... وغادرتُه والشوقُ حشو جنانى
زوتْ عنّى الأقدارُ وجهيهما فما ... أمرَّ وأدهى عيشتى وزمانى
لئن كنتُما عن ناظرى محجبًا ... فإنكما فى خاطرى ولسانى
وما برح القلبُ المُعنّى يراكما ... خيالًا كما لم تبرحا ترَيانِ
فطيبا نفوساً واستنيما إلى النوى ... فإنّى لا يثنى البعادُ عنانى
ولا تيأسا من أن نعود وتجمعا ... كما تنظم الحسناءُ سلكَ جُمانِ
وإن شئتما أن تلحقانى رضاكما ... فإنى فقيرٌ للرضى فصلانى

وله ارتجالا فى قلم تكسّر : — وله فى قلم مكسور [14 B]

[طويل]

لكفّى وترٌ عند رجلى لأنها ... أبادت رضيع الكفّ واللبنُ الحبْرُ
أحارت قُواه مقويات(1) بوطئه ... وصار كسيرًا ما لأعظمه جبْرُ

(1) أحارت : صيرت . ومقويات : متهدمة كالدار المقفرة الموحشة .

وقال ارتجالا : — وله فى الحب

[مجزوء الرجز]

الحبُّ ما لا يُستطاعْ ... ولأمره الأمرُ المُطاعْ
حقٌّ على مثلى أن ... يُمعن فيه ما استطاع
يداى طُولى فى الهوا ... ءِ وباعىَ الباعُ الوَساع
فهمت ما دُمْتُ ولا ... سلوتُ ما خطوتُ باع

ومرت به فى أيام صباه امرأةٌ جميلة ، كان زوجها شُرطيا ، فقال : — وله فى زوجة شرطى

[سريع]

وجنّةٍ خازنُها مالكٌ ... ياليتنى كنت لها مالكا
أجهد فى محرابها متجدةً ... نُسكًا ومثلى لم يزل ناسكا
وكيف أرجو القُربَ منها وقد ... أضحى حُسامًا لحظُها فاتكا
يحرمنى من وَجنتيها ما بدا ... روضاً غدا من أدمُعى ضاحكا
إنّ أملى الفتى ضلّةً ... يُمنّى بها حتى يرى هالكا
من لى بها شمس الضحى أطلعت ... جُنحَ دُجًى من شَعرها حالكا
ملكتُ سُبْلَ التقى فى حُبها ... ولم أكن قبلُ لها سالكا

وقال ارتجالا : — وله فى الناس

[مديد]

صحب الناسَ على عِلاتهم ... تحظَ بالخالص من خُلّاتهم(1)
لا تسمهم غير ما سيموا له ... وخلاك الذمُّ فى خَلّاتهم(2)

وقال : — وله فى كتاب

[طويل]

أبا نعمةٍ شخريةٍ(3) ضمن رُقعةٍ ... مُخبّرةٍ ما كان أطيبَ نفحَها
تضمّن ديوانُ أحمدَ مثلَ ما ... تضمّن جنحٌ للدجنة صُبحَها
ولما تصفحتُ الكتابَ وجدتُها ... جدى البرّ(4) أولى بالبشارة قدحَها

(1) الخلة . بالضم : الصداقة . (2) الخلة . بالفتح : الحاجة . وفات : «خلاتهم» بالحاء المهملة .
(3) ت : «شخرية» . نسبة إلى ...
(4) ...

إنّا لنرجو فيه من ربِّنا — زُهدًا وقصدًا مثل بُنيانه
آمالُنا فى غيره والذى — جاد به فالجُود من شانه
فمن أتاه زائرًا فَلْيقل — لا زال مَيْمونا بأيمانه
وطَفِق الخيرُ مُقيمًا به — ولا دنا الشرُّ لقُطّانه

وكتب إلى أبويه من المريّة — قدّس الله ضريحهما — أيام شبابه ، وأرتحاله
وله إلى أبويه
لنَيل المجد وطِلابه :

[طويل]

فِراقٌ ومالى بالفِـراق يَدانِ — إلى الله ممّا جرّه المَلَوانِ
قَضى الله أن أحلّ بالشرق بُرهةً — وإن كان بالغرب القَصِىّ مكانى
ففارقتُه والنفسُ تأبى فِراقَه — وغادرتُه والشوقُ حَشْو جَنانى
زَوتْ عنّىَ الأقدارُ وجهَيهما فما — أمَرَّ وأدهى عيشتى وزَمانى
لئن كنتُما عن ناظرىّ مُحجّبيْنِ — فإنكما فى خاطرى ولِسانى
وما برح القلبُ المُعنّى يراكما — خيالًا كما لم تبرحا تَريانِ
فَطيبا نُفوسًا وآسْتَنِيا إلى النّوى — فإنّىَ لا يُثْنى البِعادُ عِنانى
ولا تَيأسا من أن نَعود وشمْلُنا — كما تَنظِم الحسناءُ سِلْكَ جُمان
وإنْ شِئتُما أن تُلحِقانى رِضاكما — فإنّى فقيرٌ للرِّضى فَصِلانى

وله ارتجالا فى قلم تكسّر :
وله فى قلم تكسور
[14 B]

[طويل]

لِكفّىَ وِتْرٌ عند رِجْلى لأنها — أبادت رَضِيع الكفِّ واللّبنُ الحِبْرُ
أحارت قُواه مُقْوِياتٌ[1] بوطْئة — وصار كسيرًا ما لأعظُمه جَبْرُ

(١) أحارت : صيرت . ومقويات : متهدمة كالدار المقفرة الموحشة .

وقال آرتجالا :
وله فى الحب

[مجزوء الرجز]

الحبُّ مالا يُستطاعْ — ولأمره الأمرُ المُطاعْ
حقٌّ على مثلى أنْ — يُمعِن فيه ما آستطاع
يَداى طُولَى فى الهوا — ء وباعِىَ الباعُ الوَساع
فَهِمْتُ ما دُمْتُ ولا — سَلَوْتُ ما خَطَوْتُ باع

ومرت به فى أيام صباه آمرأةٌ جميلة ، كان زوجها شُرطيا ، فقال :
وله فى زوجة شرطى

[سريع]

وجَنّةٍ خازنُها مالكٌ — ياليتَنى كنت لها مالكا
أسجُد فى محرابها سجدةً — نُسْكًا ومثلى لم يزل ناسِكا
وكيف أرجو القُربَ منها وقد — أضحى حُسامًا لحظُها فاتكا
يحرمنى من وَجنتيها ما بدا — روضًا غدا من أدمُعى ضاحكا
إنّ أملَ التَّمنّى ضَلّةٌ — يُمْنى بها حتى يُرى هالكا
مَن لى بها شمس الضُّحى أطلعت — جُنحَ دُجًى من شَعرها حالكا
سلكتُ سُبلَ التّمنّى فى حُبها — ولم أكنْ قبلُ لها سالكا

وقال ارتجالا :
وله فى الناس

[مديد]

صحِبَ النّاسَ على عِلاّتهم — تحظَ بالخالص من خُلاّتهم[1]
لا تَسِمْهم غير ما سِيموا له — وخَلاكَ الذمّ فى خَلاّتهم[2]

وقال :
وله فى كتاب

[طويل]

أيا نفحةً شِحْريّةً[3] ضمن رُقعة — مُحبّرة ما كان أطيبَ نَفْحَها
تَضمّنها ديوانُ أحمدَ مثلَ ما — تَضمّن جُنْحٌ للدُّجنّة صُبْحَها
ولما تَصفّحتُ الكتابَ وجدتُها — جِدى البرّ[4] أولى باليسارة قَدْحها

(١) الخُلّة ، بالضم : الصداقة . (٢) الخَلّة ، بالفتح : الحاجة . وفى ت : « حلاتهم » بالحاء المهملة .
(٣) ت : « شحرية » . نسبة إلى الشحر ، صقع فى اليمن ، ينسب إليه العنبر الشحرى ، لأنه يوجد فى سواحله .
(٤) ب : « جدى قيس » .

وزاد سُروري إذ نظرتُ [1] تعطُّفًا ... إلى مَطلع الصفح المُتاوح [2] صفحها
وما هي إلا منّةٌ أنا شاكر ... عليها الذى أضحى يَقِى النفس نُجْحُها

وله إلى ابن يامن

وكتب إلى الأديب الفاضل : ابن يامن

[طويل]

وَبِيتين أو بِنتين أمسيت [3] مُعرِسًا ... بكلتيهما والشُّهبُ قد تار نُورُها
فصارتْ عَروسًا صرتُ نُمتَيْنِ منهما ... وواحدة ما خِلْتُ أنّى [4] أصُورُها
وبِيضُ اللهى [5] ليست بمَهرِ بهما تَفِي ... بناتُ النُّهى لا تُستطاع مُهورُها

وله إلى صاحب فى بجاية

وكتب من ثغر مَنُرقة لبجاية لصاحب من إخوانه :

[كامل]

الله يَعلم أنّ وُدّك لم يَزل ... بِضمن الفُؤاد ولن يزال مُقيمًا
فلو اطّلعتَ على الضمير لأبصرتْ ... عيناك رَسْم الوُدّ ثَمّ رقيمًا
[15 A] / لكنّ هذى نُبذةٌ منه اقتضت ... لك أن تكون بما لدىّ عليمًا
والروضُ تَعرف عَرْفه من نفحةٍ ... تَسرى إليك وقد تكون نَسيما

وله إلى رئيس تونس

وكتب إلى تونس لرئيس من أهلها :

[طويل]

سلامٌ على تَجمل الكِرام كَريمُ ... يَجُرّ إذا ما هبّ منه نَسيمُ
إذا شِمتُ بَرقًا من ذَراه شَمِمتُه ... فيُطربنى نَسيم له [6] وشَميم
ويَهتاج لى وجدٌ فما بين أضلُعى ... حَميم [7] وما تُمْرى الجفون حَميم
ألمّ رسولٌ من لَدُنه بساحتى ... فبرّح بى شَوقٌ إليه أليم
قديمٌ من الشوق استثار حديثَه ... حبيبٌ ، حديثٌ منه لى وقديم
ونبّأ أنّ المجد رَهْن سلامة ... فلازال ذاك الرهنُ وهو سَليم

(1) ت : « تعففا » .
(2) ب : « المتابى » .
(3) ب : « أصبحت معرسا » .
(4) أصورها : أميلها .
(5) اللهو : جمع لهوة ، وهى العطية .
(6) النيم : الخلق .
(7) حميم : أى لاذع حاد .

وإنْ دُعاتى حين أذكر عهده ... وذلك عهدٌ فى العُهود كريم
سقى بلداً أمست سُليمى تحلُّه ... من المُزن ما تَروى به وتُسيم [1]

وله فى صديق زمانت عينه

وقال أيضا :

[مجزوء الكامل]

لِنْ اشتكتْ عينُ الأميرْ ... وهى البصيرةُ بالأمورْ
أضحى المُدَى يَشكو قَذًا ... ركّه اللطيفُ به الخبير
بإصبه بل عين من ... فوق الثَّرى وهمُ كثير
مهما ألِمْتَ ولا ألِمْـ ... ـت فليس مِن بَصَرٍ بصير
وإذا سلِمتَ سلِمتَ ظِلْـ ... ـلَ الناسُ فى ظِلّ السُّرور
شَفَع الإلهُ لناظِرَيْـ ... ـك وتَرّ [2] بُرْه بالأجور
وأنار أرجاء الرَّجا ... ء بنُور مَرآه المُنير

(1) تسيم : أى ما يخصب لها المرعى فتخل إبلها فيه ، والبيت لزهير .
(2) تر : قطع .

٦- أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي(*)

شيوخه

من أهل جزيرة شُقر، شيخ كُتّاب زماننا، وإمام أدباء أواننا. مع ماله من التفنن في عُلوم الشرائع، وما سار له نظماً ونثرا من اللطائف والبدائع. كتب في بَلَنسية عن أبي عبد الله، ثم عن أبيه، ثم عن زيان بن أبي الحملات(١)، وعَقد بيعة عزيز بن خطاب بمُرسية في الفتن المُدلهمات، ثم جاز إلى بر العُدوة، فكان له بها تميز وحُظوة، إذ يَسبقه حيث سار من شهير أسمه رائد، فلا يزال نابِهَ المَصادر والموارد. وتصرّف في قضاء مكناسة وسلا، ثم انصرف(٢) عن المغرب الأقصى وسَلا. وحلّ مدينة بجاية، وكان له منها ما تقتضيه معرفتُه والدراية، ثم تمم الرحلة إلى محط الرحال، وكعبة الآمال، الحضرة العلية تونس — كلأها الله — فتصرف في القضاء بجهاتها، والسعادةُ تلحظه بطرف عنايتها، إلى أن [15 B] صار من المتشرّفين في مجلس الخلافة المستنصرية، وحلّ من المكارم والإمكان / بالدرجة العلية. وهو الآن من الأعتناء الإماميّ بحيث تفيء عليه ظلالُ نِعَمها، ولا تُغِبّه(٣) سماءُ سماحها الحاتميّ وكرمها. وبهذه الحضرة كان أجتماعي به غير مامرّة، فاستفدت من مجالسه المملوءة بالفوائد كلّ نادرة وليس ذلك في النُدرة.

بينه وبين أبي عبد الله بن أبي الحسين

وأتفق أن بعث رئيس من الرؤساء، وهو أبو عبد الله بن أبي الحُسين، لمن وَرَد من الحجاز هدايا وفي جُملتها جَرّة من لبن، وكتب معها هذه الأبيات، جرياً على عادته من المداعبات، المُنطوية على ماجُبل عليه من المَكْرُمات:

[وافر]

ولما صحّ زُهدك في مُدام ... متى تُلْقَ على كَبِد(٤) يُجُجِ
بعثتُ إليكَ لبناً صَريحا ... فما يَبغي المُدامة من يَجُجِ
فأعرِضْ عن فتى غسّان(٥) فيها ... ولا يَخدعْك ذو تَجمجُم يَجُجِ

(*) نفح الطيب (١: ٢٨٤ — ٦: ٣٠٠، ٣٣٧)

(١) ب: «والحلات».

(٢) ت: «وأضرب».

(٣) أي لا تجودها يوما دون يوم، بل كل يوم.

(٤) يجج: أي تؤثر فيها وتجرح.

(٥) فتى غسان، يريد: أبا العباس الغساني وفيما بعد رده. يجج: يطلب الحجة.

ثم كتب أبو العباس الغساني بعد ذلك، وكأنه أشعر بما هنالك:

[وافر]

أبا الفضل أغتنمْ شُرْبَ الحُبا ... بطوف بكأسها طَلْق المُحيا
وبادِر دون ماعُذْر وغَدْر ... فأنت أحبُّ من وافى إلَيّا

فجاوبه الحاج عوضا عن التلبية، ولم يُخْفِ مافي باطن التورية:

[وافر]

تركتُ الخمر للرحمن جهراً ... وإسراراً فلا تعتِب عليّا
ودعني من مُكاك فتلك نَحْ ... أبا العبّاس واتركني خَلِيّا

فلما وقف [الفقيه](١) أبو المطرف على الأبتداء والجواب، خاطب الحاجّ المذكور منبّها ومحذرا من مداخل الارتياب، وأدرج في أثناء ذلك مالم يَخْلُ فيه من خفّة رُوح، وتَرقيق عن غَبوق وصَبوح(٢):

[بسيط]

إنّ المَكارم في قَعبين(٣) من لبَنٍ ... شِيبَا بأعذب من ماء الحَيا المُزنِ
لو الرسولُ بذاك الرِّسْل(٤) قابلني ... قَبّلْتُ من منكبٍ منه إلى أذُنِ
ولو بقرعته للباب أيقظني ... فديتُه بجَمَلٍ(٥) السُّهد والوسَنِ
مَن عاذ بالحَرم أستحيا لنشوته ... من الحَرام غَوِيٌّ عاذ بالوَثَنِ
فاثبُتْ على النُّسك وآسأل ماتُريد به ... تَنَلْه مِن غير ما إثم بلا ثَمن

وله مع صاحب بلنسية

ومن كلامه، وقد مدح صاحب بَلَنسية زيان بن مردنيش، بقصيد، فلم تخرج عليه جائزة، وحضر حَمّام فكانت صنعته للإحسان جائزة:

[وافر]

أرى مَن جاء بالمُوسى مُوَسّى ... وراحةَ من أراح المَدح صِفْرا
فأنجح سعيُ ذا إذ قصّ شَعراً ... وأخفق سعيُ ذا إذ قصّ شِعْرا [16 A]

(١) تكملة من ت. بلفت إلى بيت أبي الصلت — وقيل النابغة —:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

(٢) أي ترقيق عن الغبوق — وهو ما يُشرب مساء — والصبوح — وهو ما يشرب صباحا. يشير إلى المثل: «أعن صبوح ترقّق». أي ترقق كلامك وتقدمه لتوجب الصبوح.

(٣) القعب: القدح الضخم.

(٤) الرسل: اللبن.

(٥) يريد البين: إذ هي محط الأرق والنوم. وفي ت: «بجمل».

وله في تهنئة الأمير

وقوله من قصيدة هنّأ بها مولانا الأمير المقدّس ومدحه ، حين جاء الخبر بموت علي ابن إدريس على تلمسان :

[منسرح]

كنتُ بإمرى عن لائمى أبعدَ … فما عليه لو أنه أقصرْ

وما له غير عاذلٍ دنفاً … بكل وجهٍ يجوز أن يُعذرْ

ليس بنشوان فى الغرام يرى … مُنكر ما فيه ليس بالمُنكر

ورُبّ خمصانةٍ[1] مُهفهفة … لها من الظّبي مقلةٌ تسحر

تقول : أدماء رامة فإذا … ما عرفتَ قلت : دُمية المرمر

غُصن من البان راق ناعمُه … تمنعه الذابلاتُ أن يُهصر

بالك عهداً مضى ومُرتبعاً … كان به العيشُ مثلَه أخضر

وجيرةٍ منهمُ الديارُ خلت … ومنزلُ الصبر بعدهم أقفر

وقد رأيتم سيف بن ذى يزنَ … لأرضه عاد بعد ما أعذر

وصُنعه فى صُنعاء أورثه … من دَرك الثأر ما به يُذكر

وليس كسرى على الحقيقة من … يحيى ولكنّ سُلطانه أقدر

والقرن ولّى عنه ومُبصره … يتلو عليه : والليل إذ أدبر

يمشى من الرُّوم بين زعنفة … فيه وفيهم يحار[2] من فكّر

وما رأى الناسُ مثله عجباً … أبرهة حوله بنو الأصفر

من قائل الرأى قبله وعلى … تدبيره جاء كُلّ ما دبر[3]

وله في هجر

وقال ارتجالا :

[كامل]

أسرفتَ فى الهجران غيرَ مُبالى … أفما يمرّ لك الوصالُ ببالِ

بأواليا أمر الجمال بسيرة … قلّ الحديثُ بمثلها عن والى

حتى متى قلبي عليك مُتيّم … وإذا سألتُ يقال : قلبُك سالى

أرضى رِضاك على الوُشاة وأنت لا … تُرضيك مَوجدتى على العُذّال

---

(1) ت : « نعمة » مكان « مهفهفة » .

(2) فيه : « وفيهم بحار فكر » . (3) ب : « ما ذكر » .

وله موشحات تطرب قبل التلحين ، ورسائل حاز بها الإمامة بين العصريين ؛

من رسالة له في خروج شعيب ابن لبلة

ومن عنوانها قوله من رسالة يذكر فيها خُروج شُعيب بن لبلة بعد طول الحصار، وما آل إليه من الدمار والبوار :

[16 B] فأجرى مدة بالخلاف، وازداد إثماً بالإملاء، وحينئذ سمت إليه عساكر الإسلام، وتناوله الموت الزؤام، ورأى عياناً ما كان يطير له قلبه لو رآه فى المنام، وتداولته المُطاولة المُستدرجة ، والمعاجلة المزعجة ؛ وفى كُلّ ذاق عذاب الهُون ، وأحسّ بقاصمة المَنون ، واقتسمت شدته إلى المُهلكين : خوف وإعدام، واستكملت مدته تسعة أشهر وُلد الفتح عندها تمّام .

وبه المولد الذى هنئ به الإسلام ، وعقمت بمثله الأيام ، واستبشر بوجوده الأنام . فأعلى مُقامه ، وأبهج يومه وأسعد عامه . ولا غرو أن تكون غُرته أبهى الغُرر ، ومُفتتحه مباركا على البشر ، وقد أسفر عن أيمن وجوه النُّجح ، وخرج عن عُموم الأعوام بمُخصّص هذا الفتح ، وانتقم الله من الشقى الظالم ، العظيم الجرأة على ارتكاب العظائم ، فطاح بمُوبق أعماله ، وعجّل الله به إلى ما أعدّ لأمثاله ، وكان دمه شرّ دم أريق ، وأديمه أخبث أديم لاقى التمزيق .

من رسالة له في وصف الثائر ابن خطاب

وله من رسالة فى وصف عزيز بن خطّاب الثائر بمُرسية :

حوى من العُلوم فروعَها وأصولَها ، وجمع منقولها ومعقولها ، فما أعلم له سبيلاً إلا سلكه ، ولا مَداً إلا ملكه ، ولا مُبهما إلا فتحه ، ولا غامضا إلا شرحه . وأقول قولَ مُنصف له لا مُعلب ، ذاكراً له بعبرة وانتحاب : إنى لا أعلم فى هؤلاء الذين أنارت بأفقنا شُهبهم ، أو بلغت إلينا كُتبهم ، مَن حقّق تحقيقه ، ودقّق فى النظريات والعمليات تدقيقه ؛ وكان فى مُعظم عمره ناسكا، ولسبيل البرّ والتقوى سالكا ، زكىّ النفس، علىّ الهمة ، كثير التواضع ؛ يتعاهد المساكين برفده ، ويُعالج الضعفاء من عنده ، ويدبّر مرضاهم بقُوة نظر فى الطب لم تكن لأحد قبله ، ثم انتكست حاله آخرا ، فنظر فى أمور بلد مُرسية مولى أول ومستبدا أخرى ؛ وفى كلتا النوبتين أساء السيرة ، وارتكب الخطايا الكثيرة ؛ فكره الناس وكرهوه ، وتنكرت القلوب له والوجوه . وكان آخر أمره أن جُرّ قسرا ، وقُتل بالسيف صبرا .

شعره إلى الفقيه العرقي

وكتب من تلا إلى الفقيه أبي محمد العراقي ، وبعث له عن جزء في الجدل كان عنده :

[طويل]

لعمرك إنّي في الوِداد لصادقٌ   وإنّ لسانى بالثّناء لناطقُ
وإن تكن الأيامُ باعدْنَ بيننا   فأكثرُ ما فيها حبيبٌ مُفارق
فديتُك قد وجّهت بالجَدل الذى   بتَصَفّحك في إمساكه أنا واثق
وأنّى بحمد الله في خير رُتبة   بها يُرتضى من تَرتضيه الحقائق
/ تقلّدتَ من شُغل الخزانة خطّةً   تقلّدها بالفَضل والعِلم لائق [17 A]
وأرسلتَ عن جزء كحرف بمُهرق   وقد جُمعت في راحتيك المَهارق
فيا مَن له تِبع وتسعون نعجةً   وفي نَعجة[1] عَجفاء أنت تُضايق

بعثتُ إلى سيدى - أحسن الله إليه - جدله ، بعد أن آستنسخت بذله ، وداعبت فضله ، الذى شهد به الزمان قبل أن تشهد له ؛ وأنا متطلع لأحواله ، مسرور بإنصاف الأيام لكماله .

وله

وقال أيضا :

[خفيف]

خَفَرٌ لاح في المُحيّا الوَسيم   أو حديثٌ للرّوض عند النّسيم
أم وفاءُ الكرى بعين مُحبٍّ   أم شِفاءٌ جَرى لجسم السّقيم
أم كتابٌ إلىّ أنقى والأ   نفُس تَفديه من كتاب كريم
حبّذا منهُ وارد وهو راحِى   ورياضى ومسمعى ونَديمى
نثرهُ لؤلؤٌ نثيرٌ وفيـه   من حُلى النّظم كلُّ درٍّ نظيم

وله في أهل الأندلس

وقال آرتجالا :

[بسيط]

يأهلَ أندلسٍ لله دَرُّكمُ   ماءٌ وظلٌّ وأشجارٌ وأنهارُ
ما جنّةُ الخُلد إلّا في دياركمُ   وهذه كنتُ لو خُيّرتُ أختار
لا تحسبوا في غدٍ أن تدخلوا سَقرا   فليس تُدخل بعد الجنّة النار

(1) السخلة : ولد الشاة من المعز والضأن ، ذكرا كان أو أنثى .

بينه وبين ابن القويع

وكتب له الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن القويع ، وهو إذ ذاك بظاهر قُسطنطينة :

الوداد - أدام الله كرامة سيدى - لا يتوارى ولا يحتجب ، وذلك أيسرُ ما في حقكم يجب ، ومحمد بن عبد الرحمن ينتظر إذنكم في الزِّيارة ويرتقب .

فكتب إليه الفقيه أبو المطرف :

سيدى - وفقكم الله - وافتنى براءتكم وأنا على ظهر لقضاء ما عنّ لى بالمدينة من مآربه ، وسأعود من فورى سريعا إن شاء الله . فلما عاد إلى موضعه كتب إليه :

[سريع]

هأنذا قد عُدتُ يا سيّدى   إلى مكانى فأتنا شِئتا
وأنت أهلُ الفضل لا أدّعى   عليك فيه جئتُ أو جيتا

وله إلى صديق من أهل شاطبة

وكتب جوابا بهذا النظم والنثر لصديق من أهل شاطبة ، لما استولى العدو - قصمه الله - على مدينة بلنسية :

تخُصّ سيدى ورئيسى ، ومُسعدى وأنيسى ؛ أعلى الله جانبه ، وحفظ لديه مواهبه ؛ تحية التعظيم لمجده ، والاعتداد بوده ، والعلم بأنه وحده ، نسيج وحده[1] . ورحمة الله وبركاته من مرتبة ، / حرسها الله . وأنا والله من رتّبه بإنصاف ، ويجزى ودّه المضاعف بأضعاف ؛ [17 B] وبذكره فيرتاح ، ويتمنّى أن لقاءه يُتاح . وقد وصل كتابُه الخطير الكريم كما أتت النُّعمى عقب البوس ، وتهلّل وجه الزمان بعد العُبوس ، فوردتُ صفوه مَعينا ، واجتليتُ صُبحه مُبينا ؛ ولقيت[2] مهديه ، فأهدى ما منّ مستُهديه ، ثم ردفه الخطب الآتى[3] بقاصمة المُتون ، وقاضية المَنون ، ومضرمة نار الشجون ، ومذرية ماء الشئون . وهو الحادث في بلنسية ودُرة النّحر ، وحاضرة البر والبحر ، ومَطمح أهل السيارة ، ومطرح شعاع البهجة والنضارة ؛ أودى الكفر بإيمانها ، وأبطل الناقوس صوتَ آذانها ، ودهاها الخطبُ الذى أنسى الخطوب ، وأذاب القلوب ، وعلّم سهم الأحزان أن يُصيب ، ودمع الأجفان أن يَصوب . فيا ثُكل الإسلام ، ونعى الصلاة والصيام ! يوم الثلاثاء وما يوم الثلاثاء ، تاريخ الداهية الدهياء ، وتأخير الأقدام عن[4] موقف العزاء .

(1) ب : « والعلم بأنه وحده نسيج وحده » .
(2) ب : « وركبت » .
(3) ت : « الآتى » .
(4) ت : « عنى » .

أين الصبر منّي وفؤادي أُلْبَه، لم تبق لقوسه عن الرمي سِيَه[1]، هيهات يعود ما مضى من أُلْسِه، من بعد مُصاب حلّ في بلنسيه، يا طول هذه الحسرة ! ألا جابر لهذه الكسرة، أكل أوقاتنا ساعة العُسرة ؟ أنى، أين أيامنا الخوالي، ولياليها على التوالي، ولاية جيش نِعم بها الوالي، ومسندات أنس تمدها الرواة من العوالي. بُعداً لك يا يوم الثلاثاء من صفر ! ما ذنبك عندنا بشيء يُغتفر، قد أثمت بالإسلام حرب من كَفر، من أين لنا المفر، كلا لا مفر. كل رزء فى هذا الرزء يَندرج، وقد اشتدت الأزمة فقل لى متى تنفرج، وكيف لنا بالأصائل والضحى إذا لم يعد ذاك النسيم الأرج ؛ وليس لنا إلا التسليم والرضى لنا قضاء الخلاق العليم، والإيمان بأنه هو الغفور الرحيم، وهو يحملنا من ألطافه[2] بجنابه. ويكفينا ما لا طاقة لنا به. ثم أنشد :

[طويل]

ألا أيها القلبُ المُصرَّح بالوَجْدِ أمالك من بادى الصبابة من بُدِّ
وهل من سُلُوٍّ يُرتجى لمتيَّمٍ له لوعةُ الصادى وروعةُ ذى الصَّدِّ
تحنّ إلى نجد وهيهات حَرَّمتْ صُروفُ الليالى أن تعود إلى نجد
ويا جبلَ الرَّيان لاريَّ بعد ما عدتْ غِيَرُ الأيام عن ذلك الوِرْد

[18 A] أأمن بعد رُزْءٍ فى بلنسيةَ ثوى بأضلاعنا كالنار مُضْرَمة الوَقْد
يُرجَّى أناسٌ جُنةً من[3] مصايب تطاعن فيهم بالمُثقَّفة المُلْد
وهل أذنب الأبناءُ ذنبَ أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جَنة الخُلد

وله يخاطب عمر بن عيسى — وخاطب بهذين البيتين عمر بن عيسى بن النعمان :

[كامل]

فى الرَّوع أوجهكم كأقمار الدُّجى وسيوفكم كشقائق[4] النُّعمان
والمكرُمات وَلَدْنَ فيكم فهى إنْ نُسبتْ يقال شقائق[5] النُّعمان

(1) سِيَة القوس : رأسها.

(2) ألطافه : التصق. وفى ت : « والله ».

(3) ت : « وقائعه » مكان « مصايب ».

(4) النعمان : الدم. وشقائقه : قطعه.

(5) النعمان : هو ابن المنذر. والشقائق : ورد أحمر. وذلك أن النعمان حمى أرضا فكثر فيها ذلك فأضيفت إليه.

شعره إلى صاحب منورقة — وكتب إلى صاحب منُورقة يمت إليه بالرحم القُرشية، والنِّعم التى أحسبت[1] الأمنية، وقد طالما جاع النفوس الأبية :

[طويل]

فديتُ أبا عثمان أنفسَنا التى أعنّةُ ذاك الفضل قادت[2] عِرابَها
وعندى بأبن لهم فيها[3] ألِيّةٌ عرفتُ يقينًا بِرَّها وصوابَها
بأن المعالى لو يُجمعن مسائلا على الحصر فيها كنت أنت جوابها

وخاطبه أيضا :

[طويل]

وجدنا سعيداً سَعدُه قد قضى به على الرغم ربُّ النجم قبل المُنجّم
فقل حاتمٌ إن لُذتَ منه بمطعم وإن تُذكر الأنساب تلق ابن[4] مُطعم
بأثوره والله يُبقيه حُجّةً على من يقول الفضلُ للمتقدِّم

وخاطبه من بجاية :

[طويل]

وبعدُ سعيدٌ لا يزال حديثُه يَطيب على الأسماع حين يُكرَّرُ
فى كثْر المألوف حول فنائه فقد وجدوا آلاءه وهى أكثر
حمى[5] ثم آوى ثم أعطى ثلاثة فأزمنةُ الدنيا الثلاثة تُشكر

وله فى رحلته إلى تونس — وكتب من سبتة إلى مدينة تونس، حرسها الله تعالى :

[طويل]

لئن رأيتُ القومَ لا خيرَ عندهم رحلتُ ولى طَرْف إلى الشرق ناظرُ
وقد لم أرضَ بأرض وفى الشُّرى لمن ضَلّ هادٍ أو لمن ذَلّ ناصر
إذا كان فى أفق من الأرض كاسر ففى أفق ثانٍ من الأرض جابر

وله فى تونس — ولما وصل إلى حضرة تونس — حرسها الله تعالى — أنشد :

[طويل]

حللتُ[6] بها فى ساعة المُشترى فما أبيع بها حظّى بألف حياةِ
وأبصرتُ منها الشمسَ والشمسُ مالها ضُحىً خالصٌ[7] من آيةٍ[8] وإياةِ

(1) أحسبت : أغنت وكفت.

(2) العراب : الخيل العربية.

(3) الألية : اليمين والقسم.

(4) ابن مطعم، هو عدى، من أشراف قريش.

(5) ت : « علا ».

(6) ت : « دخلت ».

(7) ت : « مالها ».

(8) إياة الشمس، بكسر الهمزة وفتحها : ضوؤها وحسنها.

رأيه في الحب

وقال ارتجالا :

[وافر]

وما حالُ المُحبِّ يذوبُ شوقًا   كمن في غيره أبدًا يذوبُ

يُريه الحُبُّ وهو لما ادعاه   لغير المال من حُبٍّ كذوبُ

رأيه في مثله

وقال أيضا :

[مديد]

أيها المخدوع بالوصل الذى   ظن منه ما افتراه الواصفُ

[18B]

/ لم يكن بالشرق لى[1] سُرِّيَّة   أنا إن غبتُ عليها خائف

لا ولا بِتُّ إذا ما شُكَّ فى   أمرها أُخْبِرَ عنها[2] العائف

إنما عندى لأحلامِ الورى   خُدَعٌ شيطانُها بى طائف

ما الشروجىُّ الذى يُحكَى لكم   بالذى يُعرف[3] منها عارف

وكذا الإسكندرىُّ المُقتفَى   عِلْمُه من بحر عِلمى غارف

مَنْم الأطماع فيا[4] عندهم   أنا ما عشت عليه عاكف

والطعام السُّخن والباردُ ما   أنا للنوعين منه[5] عائف

وبدى فى ظلمة المقل إذا   ذُكِرَ الدرهم برقٌ خاطف

من يقُل أشعبُ[6] دونى فعلَ   صدق ما قال برٌّ الحالف

كتابه إلى أحد رؤساء شاطبة

وكتب نظما ونثرا لأحد الرؤساء بشاطبة :

تخص[7] الأبِنّ محبة ومقة ، اعتدادا بجانبه وثقة ، حفظ الله نجابته ، وجعل لداعى السيادة[8] تلبيته وإجابته ، تحية الإجلال والتكرمة ، والمودة الخالصة المستحكمة ، ورحمة الله

(1) السرية : الجارية المتخذة للملك والجماع .

(2) العائف : الذى يعرف الآثار .

(3) ت : « أعرف » .

(4) ب : « فيها » .

(5) ت : « عارف » .   (6) أشعب : اسم رجل كان طماعا . وفى المثل : أطمع من أشعب .

(7) الرسالة تنقص شيئا قليلا من أولها ، وهو السلام ، وقد تكون معه بعض كلمات لا تعدو السطر .

(8) ب : « الحاجة » .

وبركاته والودُّ تكلف ، والمهدُ بالصونَ من جميع جوانبه مُكتنف ، وتلكم الذات السنية ذخيرة[1] الجليلة ، وأملٌ لا تُخطئ منه مَخيلة[2] ، وهبة يكذب معها أن يُقال : إن الأيام بخيلة . وكنا نظن أن فناء الكرم صُمَّ صَداه ، ومَربع الفضل غاض بَرداه[3] ، وغابت عن المتوسّد أبرداه[4] ، وأنه لا فتى كمالك[5] ، ولا مُسوَّد إلا ما يُؤثر عن مالك[6] . وتقول : ما كل من أقعدته قبيلة ، جاوره عُميلة[7] ، ومتى يفطن غير عمرو[8] لحلة يخفى مكانها ، وهل سوى قيس[9] يرثى لعجوز عدمت جرذانها . حتى نشأ هذا الماجد من طرفيه ، المُتقبِّل آثار سلفيه ، حفظة الأطراف والسنة ، وحَمَلة الأقلام والأسنة :

[طويل]

نمته إلى عيسى وعيسى أهلّةٌ   لها فى سماء المعلُوات طلوعُ

أصولٌ كأمثال الهضاب كريمةٌ   وليس لها غيرُ الكرام فروعُ

فهم بين من تغشى بجوعٍ فِنائه[10]   ومن تتقيه فى الهياج جموع

(1) ت : « خيرة » .   (2) المخيلة : الظن .

(3) بردى : نهر دمشق . وهو هنا على التخيل .

(4) الأبردان : الليل والنهار .

(5) هو مالك بن نويرة : أدرك الإسلام وأسلم ، وكان فارسا شاعرا ، وهو الذى يقال فيه المثل : فتى ولا كمالك .

(6) هو مالك بن طوق بن عتاب التغلبى ، من الأجواد . وكانت وفاته سنة ٢٥٩ هـ . (فوات الوفيات ٢ : ١٤٢)

(7) هو عميلة الفزارى : من الأجواد . وقصة مشاطرته أسيد بن عنقاء الفزارى ماله مشهورة . وفيه يقول أسيد :

رآنى على ما بى عميلة فاشتكى   إلى ماله حالى أسرّ كما جهر

(انظر الأمالى ١ : ٢٣٧ — وعيون الأخبار ٣ : ١٦٠ ، ٤ : ٢٦ — والأغانى ١٧ : ١١٧ طبعة بلاق) .

(8) هو عمرو بن العاص ويشير إلى قوله : « وإنى لرجل ذكرى ينام على شقه مرة ، وعلى شقه أخرى ، يرانى نومه لحاجته لأوجب على حقا إذا سألنيها متى إذا قضيتها له » . (العقد الفريد ١ : ٢٢٦) . والعبارة فى ت : « ومتى يفطن بغير عمرو لحلة يخفى مكانها » .

(9) هو قيس بن سعد بن عبادة . وقد وقفت عليه امرأة فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان . فقال : ما أحسن هذه الكناية ، املئوا بيتها خبزا ولحما وسمنا وتمرا . (العقد الفريد ١ : ٢٩٧) .

(10) ب : « جموع فنائه » .

فكنّا حياة بهذا الناشىء ، ومتعنا منه المولى الكاتب[1] نعده لكفاية المهم ، ونستغني به في الحادث المُدلهمّ ، ونرى منه أعيننا قرّتها ، وأيامنا غرّتها ، وتعاضرنا زينها ، وعُداتنا غيظها بل حينها .

[19 A] وافتني مخاطبته الخطيرة / تشهد بما عنده ، وتقرر كل ما يُنسبه مجده ، فتلقيتها بالترحيب ، وقلت : أهلا وسهلا بتحية النجيب ابن النجيب ، كريمة من كريم ، وسافرة عن محيا وسيم ، كأنه شاؤه مثرها ، وخُلقه الجميل وصفا . وكل ما ذُكر فأنا به مُعتد ، ومداى في شكره ممتدّ ، ولدىّ من صفة[2] الودّ له مالا يضاهيه ودّ ، أمتع الله بحياته ، وبلغ فيه من الأمل أبعد غاياته .

(1) ت : « الوالى الفاضل » . (2) ت : « صفته » .

٧- الفقيه الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن

نفح : ٥٥

من أهل جزيرة شُقر ، التى عادتها إطلاع الأنجم الزُّهر . كتب مُدّةً عن رئيس شاطبة أبو الحسين بن عيسى ، حتى نُسب[1] إليها ، وصار نظره محسوباً عليها ؛ وهو عندى أظرف من عاشرتُه بالمغرب من أهل الأدب ، وأخف روحاً من كل من درج فى المنادمة ودبّ . من رجل كثير الاحتمال ، سريع النادرة فى أنواع[2] المقال ؛ هزلا أو جدا ، وذمّا أو حمدا . وله فى طريق الكتابة ، غاية الإصابة . وكانت معاشرتى إياه بهذه الحضرة ، وما انقطعت عنه يوما إلا وأتمنى[3] الكرّة . ووقفتُ له على فصول رسائل ، لها إلى الاستحسان أعظم وسائل . وقد خاض الآن من لجة الأشغال المخزنية أعظم سَبيل[4] ، وتقلد بحكم الوقت أعمال حُديل ، وأتت له بهذا الكتاب ما يشهد بسبقه ، ويدلك على واجب حقه .

شعره فى التذييل على بيت أبى عبد الله بن أبى الحسين

وله بيت من نظم الشيخ المعظم أبى عبد الله بن أبى الحسين[5] ، فى دخول ضوء البدر من الشراجب[6] : [طويل]

تجلّى فلما أبصر الحُسنَ باهراً ... تقسّم من فرط الحياء نجوما

فقال مُذيِّلا عليه ، مالا يخفى حسن تهذيبه إليه : [طويل]

ومجلس إيناسٍ كأنّ كؤوسَه ... غدتْ لشياطين النجوم رُجوما
تخال نَداماه أزاهرَ روضـةٍ ... سقاها ندى ربِّ المحـلّ سُجوما
ألمّ بها بدرُ الدُّجنـة واغلاً ... وأمّل فى وقت الهُجود هُجـوما
فأهدى لأجفان الشراجب نُوره ... وقصّر عنـه هيبةً ووجـوما

ولما وقف الشيخ أبو عبد الله على هذه الأبيات كتب على رقعتها ، ما أغلى به من قيمتها : [طويل]

إذا ما المعالى قُسّمت حاز جُلّها ... أبو القاسم السامى النبيه ابنُ يامن
[19 B] أعجبتُ له من سابقٍ جاء آخرا ... فجاء أمام الخيـل نحو الرّهائن

(1) ت : « نُسِبَ » . (2) ت : « أبواب » . (3) ت : « لا وتمنى » .
(4) ت : « سبيل » . (5) ب : « الحسن » . (6) الشراجب : فتحات النوافذ .

له مع ابن سعيد والغسانى فى وصف شمعة

ومما اشترك فيه مع الحاج ابن سعيد ومع أبى العباس الغسانى ، وتطابق الثلاثة به مجالس الأنس تطابق المثالث والمثانى ؛ قولهم :

[كامل]

ما بالُ شمعتنا كقلبى تخفقُ ... أبداً تهيم كما أهيم وأعشقُ
أم زارها سارى النسيم بسُحرة ... فغدت إلى لُقيا المُعانق[1] تعنق
عجباً لها فالجسمُ منها فضةٌ ... وجُفونها يَنهلُّ منها الزئبق
عُريانةٌ وثيابُها فى جوفها ... لكنّها من حُرقة تتحرّق
زُفّت ظلاماً كالعروس بحَلْيها ... لكنها عند الصّباح تُطلّق
تُفنى الدّياجى وهى فانيةٌ بها ... وبما بها آيان تُشرق تَشرَق
ما حقّها إذ جمّعت شمل المُنى ... أن يغتدى مثل لها يتفرّق
قامت خطيباً تشتكى بخطوبها ... وبنقلة الحالات أمست تنطق

ولهم فى صفة

وقولهم :

[متقارب]

رنت نحوكم مُقَلُ النرجس ... وأمست تُشير إلى الأكؤس
وقد حدّد[2] الآس آذانه ... ليسمع ما دار فى المجلس
وأجمل تفاحُها[3] واغتدى ... يروم الكلامَ ولم ينبس
وقد باح أترجّها بالهوى ... وظاهرُه بالضّنى مكتسى
وماس الترنجان فى حُلّة ... تروق العيون من السُّندس
وكالجمر نارنجنا قد بدا ... يَروع العُيون ولم يقبس
وزنبوعها[4] بعضه مثل ما ... نظرتَ إلى الذهب الأملس
وقد ضحكت بيننا أكؤس ... لوجه الدُّجنة لم يعبس
فيا ضاربَ العود حُثَّ الغنا ... ويا ساقى الكأس لا تحبس

(1) ب « تعتنق » مكان « تعنق » . (2) ت : « برد » .
(3) ت : « تفاحها » . (4) ت : « وزنبوعها » .

ولهم فى الجلنار

وخرجا مع أبى العباس الغسانى إلى جنة بالجزيرة ، فنثر على الخابية[1] جُلّنارا ، فقال أبو العباس الغسانى :

[وافر]

• ألا فانظر لزهر الجلّنار •

فقال أبو القاسم :

[وافر]

• بمتن الماء منه جُلّ نار •

فقال أبو الحسن[2] :

[وافر]

كأن الماء قد أمسى سماء ... تُصاغ له من الشّفق الدّرارى

وله فى الخضاب

وكان يخضب ، ثم دهمه من الشّغل أمرٌ أذهله عن الخضاب حتى نصل فقال ، وقد عاد إلى خضابه ، بعد أن ترضّى الدهر من غضابه :

[طويل]

أعدتُ خضابى حاكماً فى معاده ... بأمرٍ بدا لى فيه رأىُ سَداد
[20 A] وذلك أنّى من ضنى الحال مُشتكٍ ... فمن كَبد فى طبّه وكُبّاد
ولا بُدّ أنّ الحال مُفضٍ سقامها ... لبُرء صلاح أو لموت فساد
فإن بُرّئت كان الخضاب شبابها ... وإن هى ماتت كان لُبس حداد

وله يخاطب ابن ياسين بجاية

وخاطب أبا عبد الله بن ياسين بمدينة بجاية :

[بسيط]

يا مُفردا بنفوس الناس يملكها ... بما محاسنه فى الناس مُشتركه
خدمت بابك فى حال السُّكون وقد ... أوجبتَ خدمته فى حالة الحركه
من ظلّ عند بُرود الظّل يكتنفنى ... إنّى أرى فى حرور الشمس مُعتركه
لا يسمع الإذنُ أسمع للبشير به ... بالقلب سهماً وغيرى ينال البركه
فيل من الجند والكُتّاب منزلةٌ ... وفى القُضاة مع العمّال مشتبكه
ولا مؤونة فى جُلّ أكلفها ... إلا بغيلة أو برذون أو رمكه[3]

(1) ت : « الخابة » . (2) ب : « أبو الحسن » . (3) الرمكة : الأنثى من البراذين .

له في تهنئة صاحب مرقة بالإبلال من مرضه

وخاطب صاحب مَرقة ، وقد أبلّ من مرضه :

[بسيط]

يا غُدوةَ السَّبت ما جلبْتِ من كُرَبِ ... يا غُدوةَ السبت ما أحييتِ من طَرَبِ
لئن غدا السبت عِيداً لليهود لقد ... غدا لنا أوجبَ الأعياد للقُرَبِ
أما به مَرّ إمرارُ الزمان وقد ... أجنى ضُروبَ مُنًى أحلى من الضَّرَبِ[1]
مَرْأى سعيد العُلا دامت سعادتُه ... كُلَّ الأمانى وأقصى مُنتهى الأرَبِ
ولَثْم راحته مِن بعد راحته ... جلاءُ ما جالت شكواه[2] من كُرَبِ
فالله يُبقيه محفوظا لعصمته ... مؤيَّدا أمره فى العُجم والعربِ[1]

له فيه أيضا

وقال ، وهو إذ ذاك بمَرقة :

[بسيط]

بالسَّعد واليُمْن والتأييد فى العَمل ... والنَّصر والفتح والإنجاح فى الأملِ
حُلولك القُبّـة الزَّهراء نيّرةً ... كالشمس حلّت أوانَ السعد بالحَمَلِ
فى ساعة اليُمْن[4] فى اليوم الأغر من الشـ ... ـهر المُبارك عامَ الفتح والجَذَلِ
وفى زمانِ أمانٍ واختيارِ مُنًى ... وفى شَباب من الإقبال مُقتبلِ
بيتٌ رَفعتَ على التقوى قواعدَه ... وشِدتَ أركانَه بالعِلم والعَملِ

له فى مدحه

وقال أيضا يمدح صاحب مَرقة :

[مجزوء الرجز]

لأُرسلنَّ قـولةً ... تأثُرها عنّى الأُمَمْ
وتَغتـدى مقبـولةً ... ما بين عُرْب وعَجَمْ
أُقسم بالله العظيـ ... ـم وهْو أعظم القَسَمْ
ما أبدتِ الدُّنيا لنا ... مثلَ سعيد بن حَكَمْ

له يمدحه

وقال أيضا يمدحه :

[مديد]

وجدتْ منه المَعالى كُفْرَها ... وعلى الأيّام قد كانت أبَاتَى
/ عَضَلت[5] أنفسها عنا وإذْ ... وجدتْه لم تَحِـد عنه اعتناما [20 B]

(1) الضرب : بالتحريك : العسل الأبيض الغليظ . وفى ت : « أما به مر من أمر الزمان » .
(2) ت : « كسواه » . (3) التكملة من ت . (4) ت : « والأمن » .
(5) عضلت : حبست .

فغلا فيها وأغلى مَهرها ... ثم ولاها على النفس احتكاما
حَكَم العُرف بأن تملكه ... فقديماً قبل يَملكن الكِراما

له فيه وقد شرب دواء

وكتب له وقد شَرب دواء :

[خفيف]

راحةُ المجد وارتياح العَـلاء ... فى الذى كان أخذُه من دواءِ
قهر[1] الخلط هائجاً مثلَ ما تقـ ... ـهر هَيْجَ العِداة فى الهَيجاء
واستفاد المِزاج منه اعتدالاً ... كاعتدال يَبثّ فى الدهماء
واستفاد الشفاءَ طوعاً كما تصـ ... ـدع فى كُلِّ مُعضل بالشفاء
فغدا فى العِلاج مثلك فى النا ... س رئيسَ العُلوم والحكماء
فاقبل منه صحةً ونشاطا ... طولَ عمرٍ مديد ظِلِّ البَقاء

له فى مدحه

وقال ارتجالا :

[طويل]

إيامَن به قد أينعت لى وأسمحت ... على الدَّهر نُوّار الأمانى ونَوْرُها
بنا لِعيان البحرُ عيناً بصيرةً ... مَرُقة فيها مُقلةٌ أنت نُورها

وقال أيضا :

[سريع]

يا سيّدا قـد هَمَا نداه ... فأخجـل الوابلَ السَّجُوما
أهديتُه من بَنات فِكرى ... بِكرَين قـد سَرّتا هُجوما
فساق مهرَيْهما وسِيقَ ... نَهرَيهما[2] غيثُه سَجُوما
جِلّـى القُبّيهما بِتارا ... ألفى نَظيمًا سَرى الوُجوما
فقلـت لمّـا طلعـنَ شُهباً ... تقـذف حُسّادَها رُجوما
شمسان قد زُفّتا لبـدر ... لاغرو أن تُنتجا نُجوما

له

وأنشدنى أبو العباس أحمد بن محمد الأنصارى ، قال : أنشدنى أبو القاسم بن يامن لنفسه :

[طويل]

وخائرة جاد الزمان[3] بدَنّها ... كما جاد حُبٌّ بالقطيعة والبُغضِ
تُمنحنى السُّهد المُنغَّص والاسى ... وتَمنعنى طعم المسرّة والغَمْـضِ
تعوّذتُ منها حين لاحتْ بتَوبة ... حنانَيك بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

(1) ت : « قهر » . (2) ت : « مهديها » . (3) ت : « بعضها » مكان « بدنها » .

وله إلى صاحب مغرفة يستعجل جاريه الشهرى

وكتب إلى صاحب مغرفة — أكرمه الله — يستعجل جاريه الشهرى عند سفره :

[مجزوء الرجز]

يا قابض الشاء من   حقائبٍ(١) وسُفَرْ
العبد يشكو سَرَفًا   مِن لازمات سَفَر
يَجُد بجارى صَفَر   فكفّه فى صَفَر(٢)
ولا يكن راتبُه   مُحرّمًا فى صَفَر

وله فى المنتصر بالله

[21 A]

وخرج أميرُ المؤمنين المُستنصر بالله ، المنصور بفضل الله ، أبو عبد الله ، من الأمراء الراشدين ، فى رمضان لنزهة ، فتعرّض له أسدٌ فقتله ، ثم صلّى / التراويح فيها الإمام فأفتاه ، فقال ابنُ يامن :

[كامل]

لله درّ خليفةِ الله الذى   مازال يُرغِم ضِدّه إرغامًا
ما إنْ رأيتُ ولاسمعتُ بمثله   يُفتى الإمامَ ويقتُل الضّرغاما

وله فى محبرة

وأهدى لصاحب مغرفة محبرة عاج ، بعد أن كان رأى عنده محبرة آبنوس ، وكتب معها :

[مخلع البسيط]

أبصرتُ بالمجلس المُعلّى   مَحبرةً حُلّيت نُضارًا
من حالك الآبنوس قدّت   مَن قد سام لها إزارا
وهاك أختًا لها تردّت   بياضَ لونٍ قد آستنارا
لناصع العاج مُشبهاها   وحَسبها حُسنها نِجارا
جَمعهما فى يديك فألٌ   أن تملك الحكمة اختيارا

وله فى صاحب مغرفة

وكتب إليه :

[متقارب]

لك الفضلُ مولاى فى كُل حالٍ   ولم يزل الفضلُ وقفًا عليك
بعثتَ الحياةَ ببعث السلام   وقبلُ بعثتَ الحيا من يديك
وإن لم أطق ردّ ما ينبغى   فهذا فؤادى مُهدًى إليك

(١) سفر : جمع سفرة ، بالضم ، وهى جلد مستدير يجمع فيه المسافر طعامه . (٢) الصفر : الخلو

وكتب إليه أيضا :

[طويل]

أيا سابق السُبّاق فى أمد الندى   إلى أين قد جزتَ السُّهى فإلى أينا
لئن سُمتنا شكرا لنُعماك(١) مُحسنا   فقد آن للأفكار أن تشكوَ الأينا
أعينى تماثيلا أتيتَ بمُعجز   أخذت ترى تعجيزَه إذ تناهيا

وقال أيضا :

[مجزوء الرمل]

يا رئيسًا لاح أنفًا   فى بنى عبد مناف
ماترى يابهجة المد   ح ويا فخر القوافى
فى سُلاف تُشبه العو   د ووَرْد كالسُلاف
ونديم ذى آعتقاد   لوداد وتصافٍ
إن تكن تسمح بالإذ   ن فشملى ذو آئتلاف
ولنقل إن ترتضى   أرجوزتى(٢) رأى الخلاف
يلمن الله آبن سينا   وكذا رأى(٣) آبن صاف

فى رثاء ابن عيسى

وله يرثى آبن عيسى خال صاحب مغرفة ، وقد بلغت وفاته منه أعظم المبالغ ، وكدرت عليه صفاء العيش السائغ(٤) ؛ فقال مُعربا عن وجده ، ومُفصحا بكرم آعتقاده وشرف(٥) قصده :

[خفيف]

[21 B]

/ لهيف الدهر فى وفاة(٦) آبن عيسى   بئس والله ما أنا فيه بئسا
فاتنا قائمٌ بأعباء نغر   لم يزل حُسنه عليه حبيسا
يَرحم الله منه أنفس نفس   نافستْ فى الذى رأته نفيسا

وله عند قبر صديق

وقال ارتجالا ، وقد زار قبر صاحب من أوذائه :

[متقارب]

أعدك يا قبرُ علمٌ(٧) بما   حويتَ من العلم والسُّؤدد
حويتَ العُلا والنُّهى والتقى   وغيثَ الندى وجمالَ النّدى
وما كنتُ أحسب من قبل أن   بُنيت(٨) على السيد الأوحد
أرى البدر غُيّب تحت الثرى   ولا البحرَ غُيّض فى مُلحَد
ليَهنيك ما الذين يأسى به   ويُثرى بما الدهرُ منه رَدِى

(١) ت : « نعماء » مكان « نعمى » . (٢) ب : « ولنقل إن رأى صورتنا » .
(٣) ب ت : « وكذلك ابى » ، وابن صاف . (٤) ب : « السابغ » . (٥) ت : « وصرف » .
(٦) ب : « وفاة » . (٧) ب : « علما » . (٨) ب : « بنيت » .

٨- أبو الحسن سهل بن مالك(*)

ثناء عليه

لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار ، لكان حسبها فى العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار . برع فى العلوم الحديثة والقديمة ، وبنى له ببلده أعظم أرومة ، واكتسب العز والمال، وبلغ(1) بين نظرائه مبلغ الكمال . وكانت له وفادات على الملوك . له فى الخطابة مشاهد مشهورة ، ومقامات مذكورة .

لابن عياش فيه

وكان أبو عبد الله بن عياش إذا جرى ذكره يقول : هو رجل الأندلس ، ما وفد على الحضرة مثلُه ، حتى إنه قال فيه : [مجزوء الرمل]

إنما سهل جنابٌ ... صَعُب المرقَى إليه
يا له شخصاً كريماً ... أجمع الناسُ عليه
وله عندى ودادٌ ... مثل ما أدرى لديه

رده عليه

وبلغ ذلك أبا الحسن فكتب إليه شعراً ، منه : [طويل]

ألا قدّس الله المكانَ الذى ثوى ... به ذو المعالى صاحبُ القلمِ الأعلى
وما كنتُ أهلاً للذى قد أتانى ... ولكنّ صدقَ الود صيّرنى أهلا

لأبى عمران فيه

وكان أبو عمران بن سعيد أكثر الناس ثناءً عليه، وأشدهم ميلا إليه ، وفيه يقول : [مجزوء الرجز]

يستسهل الناسُ وصفَ سهلٍ ... وهو لعمرى علىَّ صَعْب
أقلُّ ما فيه كُل ما فى الـ ... أنام والجسمُ منىَ(2) قلب
فى كُل حالٍ أراه حتى ... أرى الذى خاطرى يُحِبّ

وله يمدح عبد الواحد المخلوع

وأخبرنى أبو عمران بن سعيد أنه مرض أيام ولاية عبد الواحد المخلوع(3) بغرناطة ، فكلف وزيره بعيادته ، فأنسى ذلك ، ثم سأله عبد الواحد فاعتذر ، فركب إليه بنفسه. فمدحه(4) أبو الحسن بقصيدة ، منها : [طويل]

[22 A]

أنظرت بعينى ملء عينى(5) وبغيتى ... وقلتُ لنفسى دونك الغيث فاستقى
وقبّلت كفًّا دونها واكفُ الحيا ... وقابلت بشراً دونه خطفةُ البرق

(*) التكملة (ت ٢٠٠٧) المغرب (٢ : ١٠٥) نفح الطيب (٥ : ١٣٦ و ١٥٤ ؛ ٩ : ٢٢٢ و ٢٢٣)

(1) ب : «تبلغ» . (2) ب : «منه» . (3) ب : «المخلوع» .

(4) ت : «فوجه» . (5) ت : «ومنى» مكان «وبغيتى» .

وأثمت خدى من مواطئ نعله ... مواضع آثار السعادة والرزق(1)
وأرسلتُ نفسى شكرها ما ترنمت ... على الأيكة الغناء صادحة الورق

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود بالأندلس ، صار العقد والحل بغرناطة إليه ، والاعتماد فى أمور المملكة عليه ، إلا أنه كان متنزه الخاطر عن ذلك ، لو لقى أمة وكعاء(2) خاطبها بحضرة من غير تريث(3) ولا استتار ، كثير التواضع والاختصار ، ولا يرد نادرة لو أنها ذاهبة بمهجته ، جرياً على المعهود من خفة روحه وظرفه .

من نوادره

كان يوماً عند والى غرناطة ، فدخل القائد أبو محمد بن سعيد ، المعروف بالبرطول ، وكان وجهه غير مقبول الصورة ، فدنا من حاجب البلد ليحدثه ، ورد ظهره(4) لأبى الحسن ، فقال : لك المعذرة . فقال أبو الحسن فى الحين : المعذرة لحافظ .

وقال أبو عمران بن سعيد : ركبتُ معه للقاء ابن هود ، وإذا بعجوز تصيح باجتهاد وفرح : على السلامة ياوجه الجنة ! وما أشبه ذلك من كلام النساء عند الفرح بالقادم . فهز فرسه حتى دنا منها وقال لها : حشرك الله معه يا عجوز سوء !

فاشتهرت عنه هذه القضية وأمثالها ، وشحنت له من أهل الحسد والعداوة نصالها ، فغربه ابن هود إلى مرسية ، فما زال هنالك إلى أن قضى ابن هود نحبه ، وصارت غرناطة إلى ابن الأحمر فعاد إليها . ومرت له سنون فى جاه وبلوغ أمنية ، إلى أن جاءته فى عام أربعين المنية .

من شعره فى غلام

فمن مختار نظمه فى وداع صبىٍّ من أبناء أعيان الدولة كان يهواه : [طويل]

ولما استقلت نعلهُ فوق أدهمٍ ... وجدتُ غرابَ البين أشأم أسحما
وسار وصَبّى والفراقُ يحثُّه ... تُعاين قلبى سائراً متقدّما
وأوما إلى تقبيلةٍ ببنانه ... فلم أدر هل أوصى بها أو(5) تحتّما

(1) هذا البيت ساقط من ت . (2) وكعاء : حمقاء .

(3) ت : «ترتب» . (4) ت : «وظهره» .

(5) ت : «أم» .

وله فى صباه

وقوله فى زمان الصبا والخلاعة(1) :

[سريع]

كأنما إبريقنا عاشق كَلَّ عن الخطو فى أَخْفَقِهِ(2)

غازَل من كأسى جبيناً له فكلّما قبّله أَخجله

[22 B]

وله وقد أراد سفرا فرده هول البحر

/ وقوله وقد رام جواز البحر إلى الجزيرة الخضراء من سَبتة فمنعه هولُ البحر :

[كامل]

لما أَنخْتُ بسبتةٍ قَتَبَ(3) النّوى والقلبُ يرجو أن تُحوّل حالُه

عاينتُ من بلد الجزيرة مِكنساً(4) والبحر يمنع أن يُصاد غزالُه

كالشكل فى المـرآة تُبصره وقد قَرُبت مسافته وعزّ منالُه

من شعره

وقوله :

[سريع]

غَنّى لنا حِراذُنا وانثنت نُزهتنا فاكتمل الحُسن

وأبرز(5) الدهر لنا منهما حمامةً طارحها غُصن

وقوله :

[طويل]

ولما رأيتُ الصبحَ هبّ نسيمُهُ دعانى داعيه إلى البَين والشّتّ

فقلت أخاف الشمسَ تَفضح سرَّنا فقالت معاذ الله تفضحنى أختى

وقوله :

[وافر]

وكنتَ وعدتنى ياقلبُ أنّى متى ما تُبتَ من ليلى تتوبُ

فها أنا تائبٌ عن ذِكر ليلى فما لك كلما ذُكرت تذوبُ

فقال بلى وعدتُك(6) غيرَ أنّى أتوب إليك من ذنبى أتوبُ

---

(1) هذه الكلمة «والخلاعة» ساقطة من ت .

(2) ورد البيتان فى ت على غير هذا الضرب :

. . . . كل من الخطو فما

. . . . فكلما قبله بما

(3) القتب : إكاف البعير . والرواية فى النفح (٥ : ١٥٥) : «لما حططت» .

(4) المكنس : مسكن الظبى .   (5) ت : «وأبرق» .   (6) ت : «وعدتك» .

[كامل]

وقوله(1) أيضا :

وجه الإله وأُنجز المقدارُ فالكُلُّ عبدٌ والبسيطة دارُ

قل ما تشاء كما تُريد فإنما يجرى القضاءُ بكُلِّ ما تختار

أنت الذى شَرُف الزمان بذكره وتعطّرت بحديثه الأسمار

بك عاد فى شخص السيادة رُوحه واسترجعتْك فراعها الإقصار(2)

ذو الفضل يُدنيه إليك تواضع ويذلّ فى سَطواتك الجبّار

من معشر عَظُموا علاً وتواضعوا عند اللقاء فأنجدوا وأغاروا

وأبتُ محلّه المُقدس تُربه فوقفتُ حيث العالِم المُختار

ولحظتُ بهجتَه بعين بَصيرتى إذ كَلّ عن إدراكها الإبصار

ودنوتُ ألثمُ تربه متبرّكا فرأيتُ كيف تُفجّر الأنهار

شعره فى رثاء ابن رشد

وقوله يرثى القاضى أبا الوليد بن رُشد(3) ، تغمّده الله برحمته(4) :

[طويل]

نعى عَلَمَ العِلم الذى ببيانه تبيّنَ خافيه وبان طريقُه

وما كان ظنّى قبل فقد جَلاله بأنّ مُصابا مثلَ هـذا أُطيقه

ومن شاهد الأحوالَ عند مماته تبيّن أنّ الموت نحن نَذُوقه

رُجوعا إلى الصبر الجميل لحقّه علينا قضى الا تُؤدّى حقُوقُه(4)

أعزيكمُ فى البُعـد عنه فإننى أهنّيه قُربا من جوادٍ يرُوقه

فما كان فينا منـه إلا مكانه وفى العالَم العُلوى كان رفيقه

من رسالة له إلى أبى عمران بن سعيد

وأما نثره فعنوانه هذه الرسالة التى جاوب بها أبا عمران بن سعيد إلى إشبيلية ، حين كتب له يُسلّيه عن نكبته وغُربته :

[23 A]

أما أستوهب لك أيها الشيخ الأخ الجليل عافيةً لا تعفو بألسن الحُسّاد ، ولا تقفو مواقعها أعين السعاة البغاة الذين مالهم مقعد إلا بالمرصاد ؛ وأبق كرم طباعك بوصول رسائلك

---

(1) ت : «وقال» .

(2) لم يرد فى ت من هذا البيت إلا الكلمات الأول «بك عاد فى شخص» .

(3) هذا الدعاء ساقط من ت .   (4) هذا البيت والذى بعده ساقطان من ب .

التى طلعت على ليل البهيم صباحا ، وأدارت علىّ من التسلّ والتعزى أقداحا ، خامر النفس خُمارها بجذبها[1] إلى مركز المسرة ، وأراحها الارتياح بها من تهالك الوسواس والفكرة :

[وافر]

وما يُجدى التفكّر لو غفلنا ... ولكنْ ردّنا قسراً[2] إليه

نفِرّ إلى التأسّى ثم يقوى الـ ... أسى رغماً فيحملنا عليه

ويعلم الله أيها العَلَم عِلما وفهما ، أنى لولا مخاطبتُك وامتثالك[3] لمتُّ أسفا وغمّا . ولست — عافاك الله — بذى سجن ولا قيود ، ولكن معاشرة من لا يُشاكل عقبة كؤود ؛ ولعلها ذُنوب تمحّص ، وسبك يصفّى به الإنسان ويُستخلص . وقد شكونا لو أن الشكاة[4] تُسمع ، ودعونا لو أن الدعاء عند من لا يَقبله ينفع ؛ وتُبنا وإن كنا لا نعلم لنا ذنبا ، وأُبنا وإن لم نلق الإياب لا سهلا ولا رحبا . وهل نافع عند صاحب الثريا تشكّى الكُميت[5] ، أو سامع من اقتضاه طبعُه وضْع المجلّى موضع السُّكّيت[6] :

[طويل]

سأصبر حتى يسأم الصبرُ نفسُه ... ويضجر من يُعزى لظلمى من ظُلْم

وتفتح باباً[7] أغلقته بجَورها ... يدٌ حملت تلك الأيادى على عِلْم

---

(1) ت : « خامرت ... بجذبتها » .

(2) ت : « قصرا » .

(3) امتثالك ، أى تمثلك . وفى ت : « وأمثالك » .

(4) ت : « الشكاية » .

(5) الثريا : هى بنت على بن عبد الله بن الحارث ، وصاحبها عمر بن أبى ربيعة الشاعر . ويشير إلى قول عمر من قصيدة له فى الثريا :

تشكّى الكميت الجرى لما جهدته ... وبيّن لو يستطيع أن يتكلما

(6) المجلى : السابق . والسكيت ، بالتخفيف والتشديد : الذى يجىء فى آخر الحلبة آخر الخيل .

(7) ب : « وتفتح باب » .

وأنت أيها المِصقع الخطيب ، والمُبدع الأريب ، كيف استمطرتَ من خاطر أخيك جَهاما[1] ، وقدرت من براعة فكرك سيفا كَهاما[2] . أستغفر الله لولا الارتياد من بحرك لما تمطّل لى تمام ، ولولا صَقل خِطابك وشحذ كتابك لما مضى لى حُسام :

[وافر]

وجَهل بعد ذلك وصف فكرى ... بقطر أو يَرابى بالحُسام

ولكنّ الكلامَ له فُضول ... ولا يَخلو المحذور من الكلام

وعليك بعد اتصال الدعاء ، بطول البقاء فى الارتقاء ، أتمُّ السلام ؛ متواليا مع الليالى والأيام .

---

(1) الجهام : السحاب فرغ ماؤه .

(2) الكهام : الكليل الذى لا يقطع .

٩- أبو عبد الله بن الخيال (*)

[23 B] من إستجّة من حُصون قرطبة، وهو لائق أن يكون من أجل المواضع في علوّ المرتبة، شاهدت منه بإشبيلية أيام آستحواذ ابن الأحمر عليها، وهو يكتب عنه رجلا قد كمل عقله، وتناهى نُبله ؛ وحسُنت مجالسته ، ولطُفت محاورته ؛ لايَنطق إلا بالإفادة ، ولايُبصر إلا الخيرَ عادة . وكنت أعجب مما جعل الله من ذلك فيه ، مع جفاء موطنه وضَعة أبيه، ثم أزيد تعجُّبا إذا نظرت إليه، فأعتبر لغلبة الشُّقرة والوُرقة⁽¹⁾ عليه ؛ وكان لايرى الشعر شعرا ما لم يكن في معناه تخيّل ، وعلى رونق لفظه تحيُّل .

من شعره في محنته

أنشدني بقصر السلطان، والرمح مسدّد والسيف عُريان : [خفيف]

أىّ عيش يَطيبُ عند أديب   سائر بين حائر ومَليـب
لاترى عينُه سوى مُقلة الرُّمـــح وخَدُّ المُهنّد المَخضـوب
وإذا ما غدا ليطلب منى[2]   طِرسَه فيضُ دَمعه المَسكوب
مُنشدا[3] عن يراعه : أتُرانى   صرتُ للسيف تَرجمانَ الحروب
أين[4] ما كان في الصِّبا والتّصابى   مِن حَبيب وعاذل ورَقيب
وآنبطاح[5] على بِطاح وزَهر   فوق نَهرٍ وتَمّ ظَبى رَبيب
كُل هذا مَضى ووافى سواه   أَرح النّفس رَبُّها عن قَريب

وله في فضل الله

ومما سار من نوادر شعره ، قولهُ في شخص يُسمّى فضل الله :

[طويل]

مِن الناس من يُؤتَى بنَقْدٍ ومنهمُ   بكَرْه ومنهم من يُناك إذا آنثنا
ومنهـــم فتًى يُؤتَى على كُلّ حالة   وذلك فضلُ الله يُؤتيـــه من يشا

(*) ذكره المقري في النفح (٥ : ٩) باسم : أبي جعفر أحمد بن الخيال .
(1) الورقة : بياض في سواد .
(2) ت : « ليطلب من » .
(3) ت : « مسندا » .
(4) ت : « ليس » .
(5) ب : « وانطباح » .

رسالة له أيام استيلاء ابن الأحمر على اشبيلية

ووقفت على جملة رسائل ، لها إلى الاستحسان أعظمُ وسائل ، آخترت منها هذه الرسالة التى كتب بها أيام آستيلاء ابن الأحمر على اشبيلية :

وإلى⁽¹⁾ ذلكم عرّفكم الله صلاح مآلكم، ولازالت البُشرى تتواتر عليكم، والأُثَر تتسابق إليكم، وإنا نخبركم عما منحنا الله من فتح هذه الحضرة الإشبيلية أخبارا تقوم مقام العيان ، وتغنيكم في الآستطلاع عن سؤال فلان وفلان : لم تزل مُخاطبات الباجى المتنزى⁽²⁾ بها تَرد علينا متّصلة، ورغبته لاتُنبّا مُفسّرة ومجملة ؛ حتى طال ذلك ، وكاد يغلب على ماحنالك . فأقبلنا إليه في جمع رُق عنه أعداءه ، وحقق فيما عندنا رجاءه ؛ وكان صاحب ثارة قد قذف الرعبُ جيشَه في واديه ، وأخذ أسطوله بمخنق واديه ؛ فما هو إلا أن خفقت أعلامُنا على أفقه ، وبثّت خيلنا في شتى طُرقه ؛ فبدّل بالخوف أمنا ، وصار يملأ بالنوم جَفنا . ثم إنه لم يقنع بذلك القدار ، ورغب أن يأخذ منا ماحف بمدينته من تلك الأقطار ؛ فأعدنا له الامتنان، ولم نثن من غاية غرضه العِنان ؛ فبينا نحن في هذه المحاولة ، إذ نخرج إلينا مِن وجوه بلده مَن طاولنا في رَميه بما لانقوم به أية مطاولة ؛ وقالوا : من أين لرب القلم، النهوض بالسيف والعَلَم ؛ وكيف لصاحب المحبرة والكتاب ، محاربة الكتائب وضرب الرقاب ؛ وكان لدينا من أهل المشورة والرأى من حرضنا على الإصغاء لكلامهم ، ومداواة ماشكوه من آلامهم ؛ فعطفنا عليه عطفة المأمون على الأمين ، وتلقينا راية المجد التى لم يُخلق لها ـ باليمين⁽³⁾ ؛ وتهافتت الخاصة والعامة بنيجار أرجونة⁽⁴⁾ العالية ، وفتحوا لنا باب جوهر فلم نصل لقصوره إلا وهى خالية ؛ وبِتنا تلك الليلة نناغى هذه الحصان التى لاتُسلِم محُصنا⁽⁵⁾ ولاتخون، وأصبحنا يقرأ علينا صداقها ببيعة أهلها وبيعة ماحولها من المعاقل والحصون ؛ وكان قصدنا إبقاء ذلك المخلوع ، فليس لنا قِبَله

[24 A]

---

(1) ت : « وإلى » .
(2) المتنزى بها ، أى الثائر بها . والأصل في « التنزى » : الإسراع إلى الشر .
(3) انظر الحاشية (رقم ٧ ص د) من هذا الجزء .
(4) أرجونة : قلعة بالأندلس .
(5) ت : « محا » .

ثار ولاهو ممن يُخاف منه غائلة الرجوع. فأبى أهل بلده ، إلا مفارقة روحه لجسده وقالوا: وأى امرئ سمى بها نفسه، ففارقها حتى يُفارق رمسه ؛ وكيف يترك من خفقت على رأسه البنود ، وصَرخت بالسلام عليه الجنود ؛ هذا مع ما قبله من ثار ابن مقنع وابن عيسى من طاف برءوسهما ، وهتك جلده[1] جميع مستورهما ؛ ولم يرّع اغترابهما وجواره ، حتى حكم فيهما على رغم الوفاء شِفاره . ولما أكثروا من الاحتجاج على أن الراحة منه عين الصواب، وكلناه إلى رأيهم وعند الله الثواب والعقاب . فتأخذوا بحظكم من هذه البشرى ، فإنها مُؤذنة ألا تزال تترى . والله تعالى لايخيكم عن ملابس التوفيق ، ولايعدل بكم فى جميع أموركم عن سواء الطريق . وسلامهُ الأتمّ يعتمد من نظر فانتفع بنظره ، وفكر فأبدت[2] عليه عواقب فكره .

(١) ت : «فى بلده» . (٢) ت : «فأبدت» .

١٠- أبو بكر محمد بن احمد الصابونى[*]

[24 B] شاعر إشبيلية، الذى لم تكن الإشارة بها فى هذا الشأن إلا إليه ، ولا الإحالة / فى غيرها من البلدان — متى جرى ذكر شعراء الأندلس فى عصره — إلا عليه .

كان والده من الشُّهود مشهورا بالثقة والعدالة ، إلا أنه قد رُزق من الإعجاب بنفسه ما صَغّر فى عينه أكفاءه وأمثاله ؛ فنشأ ولده أبو بكرٍ على ذلك الأسلوب ، مع عقل طائش لايحصل منه على مطلوب ؛ فكان قلّما يدوم أحدٌ على صحبته ، ولا يرغب معاشر فى استئناف عشرته ، لايزال يكَلِم من كَلمه ، ويَظلم بلسانه من لم يظلمه أو ظلمه ، وله فى ذلك حكايات لاتُحصى ، وكان مراده أن يقول فيُسمع أو يأمر فلا يُعصى . وكان أبو العلاء بإشبيلية قد خَص شعره بالتنبيه متى ما أنشدته الشعراء ، وأحلّه من إحسانه بالمكان النبيه فتقصّر عنه الأكفاء والنظراء ، واشتهرت له فى أيامه أمداح ، حصل لها من الرؤساء والأدباء إقبالٌ وارتياح .

هو وأمير تونس ثم إنه لما أشرقت الأنوار الأميرية القُدسية من مَطلع حضرة تونس ، وصار لها من أقطار البلاد ومَسامع العباد كُل ذكر مُونس ، أرسل مع أحد الطلبة قصيدةً منها :

[طويل]

ويُؤنسنى ذكراى تُونسَ دائماً ‍ ‍ ‍ ‍ على بُعدمَهوى أرض تُونس من حِمْص

يُحوب عليها بالإحسان ، فقاسى فى الرحيل شدائد إلى أن حل محل الأمن والأمان ؛ فى مولانا الأمير المقدس على مليانة[1] ، وجنى بأطنابه جنى لسانه[2] ، فيقال — إنه قدس الله روحه — عرفه فاستُدعى حتى لثم بنانه .

وأنشد قصيدة مطلعها : [بسيط]

الله بارك فى حِلٍّ ومُرتَحل ‍ ‍ ‍ ‍ يامُعليًا ملةَ الإسلام فى[3] المِلَل

فسرتُ والسعدُ يدعونى ويُرشدنى ‍ ‍ ‍ ‍ إنّ السعادة فى مليانةٍ تُحَل

فأنعم عليه بخمسمائة دينار ، تصرّف فيها بأنواع التهتك والاستهتار .

(*) نفح الطيب (٥ : ٩٣ ، ٩ : ٢٢٣) . المغرب (١ : ٢٣) . الرايات (ص : ٢) الوافى للصفدى طبعة استانبول (٢ : ٩) . الفوات لابن شاكر (٢ : ٢٠٩) .

(١) مليانة : مدينة فى آخر إفريقية ، بينها وبين تنس أربعة أيام .

(٢) ب : «وحف أطناب شيا الساقة» . (٣) ب : «فى الحل» مكان «فى الملل» .

موته

ثم إنه طلب الإذن في الرحيل إلى بلاد المَشرق ، وفارق صَوْب ذلك العارض المُغدق ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة ، في حال تُنبئ أن يعود بها في الحافرة[1] ، وصلح في بعض الأحيان كثيرا من جلساء سلطانها[2] فأمر له بخمسين درهما عددا ، فقال إنه مات على إثر هذا كدا .

وكان موته في سنة واحدة مع موت صاحبه ابن عُتبة ، وهى سنة ست وثلاثين وستمائة .

هجوه وهجاء ابن عتبة

ولما قال فيه ابن عتبة — عفا الله عنهما — :

[سريع]

[25 A] / يا غيرَ حِمص غيّرتك الحَمير بأكلك البُرّ مكانَ الشّعيرْ

قال ابن الصابونى : بارد ! إنما كان يُعيرنى لو كانت تأكل القمح ، وعدلت أنا إلى أكل الشعير ، إنما أكلت أعلى مما تأكله .

موقع مجلس الباجى

وأذكر له مقامات مَذكورة ، ومَشاهد مشهورة : رأيتُه يوما بمجلس الباجى المتَوَلّى بإشبيليه ، وقد أُحضر هنالك عُنوان من سكة الذهب والفضة التى كُتب عليها اسمه ، وأثبت فيها رسمه ، وأنشد قصيدة أولها :

[سريع]

قد نَقّـر الدينارُ والدِّرهم بما على ذين لكم ينسِمُ

كلاهما يُفصح عن شكركم وكُل جزء منـه فَرْدٌ فَم

ثم قال بعد ذلك :

كأنها الأنجمُ والبُعـد قد حقّق لى[3] أنها الأنجمُ

فضحك الباجى . وأشار إلى وزيره ابن صاحب الرّد[4] ، أن يُقرّبها منه حتى يعقل تحقيقه ، ونَهج إلى الإحسان طريقه ، فأعطاه منها غرفة صالحة بيده ، أقامت فى ذلك الوقت ما اختل من أوده .

(1) الحافرة : الحالة الأولى . (2) ت : « سلطانه » .
(3) ت : « [illegible] » . (4) سابق ترجمته (ص ١٠٦) .

ثم رأيته مرة وقد خرج الباجى إلى فريق من النصارى ضربوا على جهة من جهاته فناوءه قبل أن يكون اقتراب ، فعاد وقد حمد الله على السلامة ورضى من الغنيمة بالإياب . فقام ابن الصابونى مُنشدا قصيدة أولها :

[كامل]

عظُم امتنانكمُ على الإيمان وعدا عَديدُكمُ على الصُّلبانِ

فنكّبه ذلك الممدوح حتى ظهر ذلك فى محيّاه الغضبان ، وتلا : (يَمُنّون عليك أن أسلموا . قل لا تَمُنّوا علىّ إسلامكم بل الله يَمُنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين)[1] .

هجو ابن صاحب الرد

فهجى به بعد ذلك يطلب السراح من الوزير ابن صاحب الرد وينشده ، ويستعطفه بالمودات القديمة ويسترشده :

[كامل]

أتُراك ترضى أن أعيش مُنغّصاً إن لم تُنِل أملاً فهب لى مَخلَصَا

ما زال حُسّادى بِسِتر جنابكم حتى سَعَوْا فى رفعه[2] فتقلّصا

نظروا إلى وجه الجميل يروق لى فسعَوْا إلى أن صار تَحوى أبرصا

فأنشده الوزير مُتمثّلا ، وضمن له النجاح متكفّلا :

[كامل]

وسَعى إلىّ بهجر عزة معشرٌ جعل الإله خُدودهنّ نعالها

من شعره

ومما أنشدنيه من شعره ، فرأيتُه أهلاً للتنويه بذكره ، قولُه من قصيدة :

[كامل]

الآنَ سَرى لك بارقٌ لا يَهدأ لم تألُ وجدًا إذ بدا يتلألأ

أفَما دُموعك صِبغهُ من طول ما راعيتَه بل سَكْب دَمعك أفنا

[25 B] أتَراه قد أبدى يدًا مخضوبةً جعلت لأرضك بالتحية تَوما

بحر الظلام ومِسكة دارية من تلك أضوع ما خبرتَ وأضوا

وتَمُرّ تخطو والشباب يهزّها فيروم يحكيها القضيبُ فيخطا

لما غدت فرقاً بأندلس العصا فبكف كُلّ سائق متوكّا

(1) الحجرات ١٧ . (2) ت : « فتطفا » مكان « فتقلصا » .
(3) [illegible] : أخرجها المسموح به « فا » هو مصحف .

جمعتها[1] وتفرقت أشياعهم نَمَاك لا تُنسى وعُمرك يُنسا

وقوله فى مطلع قصيدة أخذ فيها فى مأخذ الفُحول ، ولم يترك لقائل ما يقول :

[الطويل]

لمن عاصبات فوق نجد تُوقد تقوم بها أيدى الرياح وتقعُدُ

وقوله الذى آشتهر اشتهار الصباح ، وأخذ بمجارى الأنفاس والأرواح :

[كامل]

آستولِ مبأقاً على غاياتها نُجح الأمور [يبين فى بدآتها][2]

وقوله الذى لم يُسبق إليه ، ولا آقتدر غيره من شعراء عصره عليه : [طويل]

بعثتُ بمرآة إليك بديعة فأطْلِعِ بسامى أفقها قمر السَّعْدِ

لتنظُر فيها حُسن وجهك مُنصفا وتعذُرنى فيما أَكِنّ من الوجد

مثالُك فيها منك أقربُ مَلْمَسا وأكثر إحساناً وأقربُ للعهد

وقوله الذى كان يلهج بإنشاده ، ويعجب بإيراده : [منسرح]

أقبلَ فى حُلَّةٍ مُوَرَّدة كالبدر فى حُلة من الشَّفَقِ

تحسبه كلما أراق دماً يمسح فى ثوبه ظُبَى الحَدَقِ

وقال أيضا : [مجزوء الرمل]

ليس لى من صَفحِ حاجرْ ما سوى سفح[3] الحاجرْ

قد أحالت منه أعصا ر وعفَّته أعاصر

عامرٌ بالوحش بعد الـ أُنس من غزلان عامر

أشْدُو بالإعلام صَبّاً جَفنُه بالماء ماطر

قلبُه بالوَجد ذائبٌ إن شدا بالعهد ذاكر

أنا بالحَوباءِ[4] سائحٌ فى هَواه وهو ساحر

أين ساهٍ فى كَرَاه من مُديم البَثّ ساهر

شَفّ جسمى منه ظَبْى فاترُ الألحاظ فاتر

فضح الغِزلانَ[5] عاطٍ منه والبستان عاطر

ليس يَلى فيه حيٌّ فيه إذ تُبلَى السرائر

(١) أشير فى هامش ب إلى رواية أخرى ، وهى : « نسيتها » .
(٢) التكملة من ت .
(٣) حاجر : منزل فى طريق مكة . والحاجر : العيون .
(٤) الحوباء : النفس .
(٥) العاطى : الظبى يتطاول إلى الشجر ليتناول منه .

١١ – إبراهيم بن سهل الإسرائيلى(*)

نفح ٥٥٠ إشتهر بإشبيلية شاعر بعد ابن الصابونى آشتهاره ، ولا حاز آنطباعه فى الشعر وآقتداره ، وبهوى بأبن سهل فى بلده كالبدر فى هالته ، لا يوازيه أحدٌ من أهل عصره فى مكنته وهذه الصفة[1] وجلالته . هذا وما بلغ عُمره العشرين ، وخلقته تقتحمها عُيون الحين والمُنفصين ، إذ [صيغ][2] فى صورة آبن الصائغ ، وعِيف كما يُعاف سُؤر الكلب الوالغ . [26 A]

قرأت معه على الأستاذ أبى الحسن الدبّاج زمانا ، وبادرنا لأنواع اللذات مَيدانا فميدانا ، وكنّ نهوى هوانا ، ونجمع لذاتنا ومُنانا ، بمرج الفضة والعروس ، والسلطانية وشنتبوس ، لا نكاد نخلو من التفرج فى تلك الأدواح والقُصور ، وظلُّ الشباب ممدود وهوى النفس مالك مقصور ، ومعنا من الوُجوه الفتانة ما يُعين القرائح ، ويأتى من المحاسن والبدائع بكل غاد ورائح ، وعارضُ ذلك البلد الزاهى لم تَشُبه الشوائب ، ولا قضمته أنياب[4] النوائب ، والعيش غضٌّ والزمان غلام ، والدنيا تحيةٌ وسلام : [طويل]

ولا لحظَ إلا رائعٌ فى تحيلة ونهرٍ وخدٍّ بالحياء مورَّدِ

ولا تَسمع إلا سامعٌ ما يريده حديث حبيبٍ أو أغاريد منشد

دعوته يوماً إلى مرج الفضة بهذه الأبيات ، فكان منه أطوع مُجاوب وآت : [طويل]

عن ابن سعيد وبه وقد دعاه إلى مرج الفضة

هلُمَّ[5] أبا إسحاق نحو نزاهة كمثل التى عُوِّدتَ بالدَّوح والنّهر

وتُبدى لَزَهر الرَّوض والورد وَجنةً وثغرَ قيمٍ أندى من الورد والزَّهر

وإن يشمُوا فى التصابى جهالةً فعصر الشباب الغضّ يُغنى عن العُذرِ

وجوابُه الذى تقدمت عليه الإحالة ، وهيهات أن يَبتدع مجاوبٌ مثالَه : [طويل]

أبا حسنٍ لا حسَّن الله حالةً تُحوِّج أربابَ الشباب إلى العُذرِ

ولا مَن ينادى نحو نهرٍ ودَوحة ووجه أخى حُسن يقابَل بالبدر

(*) المغرب (١ : ٢٦٤) رايات المبرزين (ص ٢٢) نفح الطيب (٥ : ٦٧) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (١ : ٢١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (١١ : ٤٧٣) الشذرات لابن العماد (٥ : ٢٤٥) . وانظر ديوانه بتحقيق الدكتور أحمد عبد المقصود هيكل .

(١) ت : « الصانة » . (٢) تكملة من ت .
(٤) ب : « قضمته » . (٥) ب : « تعال » .

فلا تترك الأشغال طُرًّا وترتقى … إلى أفق اللذات جهراً بلا سِرّ
أعِد دعوة اللُّقيا على مُسمّى الذى … يَلَذّ بما أودعتَه دائم الدهر
ولا تنس ذِكر الكأس فهو كمالُها … وحسّن لها الإغفال من حلبة الذكر(١)
بها حَلِيت حالى ومالىَ عيشة … سواها وإلّا فالسلامُ على العمر
فوالله ما فى الأرض مجلسُ راحة … بغير حُلى الراح التى سكِبَت(٢) صبرى
سـألقها إلفَ العتيق كَتابه … ولا أشتهى ورداً سواها لدى الحشر

ولما وصل أظهرتُ استحسان خطابه ، مع سُرعة جوابه ، ثم أنكرتُ عليه منزع بيته الأخير ، ولدغتُه من الكلام بيسير ، فقال : أليس فى الجنة نهر الخمر ؟ قلت : بلى . قال : فذلك حسبى لا أبتغى به بدلا ، ولا أريد لبناً ولا عسلا . فقلت . بحُرمة ما بينا إلا ما أزلت عنّى شك الناس فيكم ؛ وصدقتنى هل أنتم على دين أسلافكم / أو دين المسلمين ؟ [26 B]
فقال : للناس ما ظهر ، وفيه ما أستتر ؛ وبعد فهذا خلاف ما نحن فيه ، فأضربتُ عن مناقشته ولم أقف له على ما أُنجّه أو أنفيه :
[طويل]
وأنى لأرجو أن تكون وفاته … على ملّة الإسلام كما يتلقا
والقاه فى جنّات عَدن مُخلّداً … فليس بأهلٍ أن يُخلّ جهنّما

وله فى معارضة ابن عمار
وخرجت معه مرة إلى السُّلطانية فتنازعنا معارضة ابن عمار التى لا يعارضها إلا من جمع به نزق الشباب ، ولم يكن له الانتقاد فى حساب ؛ فقال ما سَبق به من تقدّم ، ولم يدع بعده من مُتردّم(٣) :
[كامل]
الأرضُ قد لبِستْ رداءً أخضرًا … والطّلّ ينثر فى رُباها جوهرا
فاحتْ(٤) فخِلتُ الزهر كافوراً بها … وحسبتُ فيها الترب مسكاً أذفرا
وكأنّ سَوسَنها يُصافح وردَها … ثغرٌ يُقبّل منه خدّاً أحمرا

(١) ب : « وبأن لها الاغفال من حلبة الذكر » . (٢) ت : « حليت » .
(٣) المتردم : الثوب المرقع . يشير إلى بيت عنترة :
هـل غادر الشعراء من متردم … أم هـل عرفت الدار بعد توهم
أى مصطلح .
(٤) فى ديوان طبع مطبعة الترقى : « فاحت » .

والنهرُ ما بين الرياض تخاله … سيفاً تعلّق من(١) نجاد أخضرا
وجرت بصفحته الصَّبا فحسبتُها … كفّاً تُنمّق فى الصحيفة أسطرا
وكأنه إذ لاح ناصعُ فضة … جلّته كفُّ الشمس تبراً أصفرا
أو كالمُدود بدت لنا مُبيضّة … فأرتد بالخجل البياضُ مُعصفرا
والطيرُ قد قامت عليه خطيبة … لم تتّخذ إلا الأراكة منبرا

وله فى العروس
وتنزهنا مدة بالعروس ، فنلنا جُملة من أمانى النفوس ؛ وذلك فى يوم صبيحى مشرق(٢) من زمان الشتاء ، خفق فيه لواء البرق وجالت خيول السحاب فى بساط الماء ، فقال أبو إسحاق ، وهو لكل غاية سبّاق :
[كامل]
حثّ الكؤوس ولا تُطع من لاما … فالمزن(٣) قد سقت الرياض رِهاما(٤)
رقّ الغمامُ لما بها إذ أعطشت … فغدا(٥) يُريق لها الدموع سِجاما
والبرق سيفٌ والسحاب كتائب … تُبدى لوقع غِراره(٦) إحجاما
والدوحُ ميّال الغصون كأنما … شَرب النباتُ من الغمام مُداما
والزهرُ يرنو عن نواظر سُدّدت … لحظاتهن إلى الشجون سهاما
فى الكواكب غير أن لم تستطع … شمسُ النهار لضوئها إبهاما
تُحى على كرم الولىّ بنفحة … عن مسك دارين(٧) تفضّ ختاما
فكأنما غضّ الحياءُ جفونها … إذ لا تقوم بشكرها الإنعاما
جيرانها يُحيى شميم نسيمه … لنهاره ويُجيبه الإظلاما
فكأنما ظنّ الدُّجنّة نفحة … فبدا يعارض عَرفها البسّاما [7A]

(١) فى الديوان : « فى » .
(٢) ت : « مسروق » .
(٣) ب : « فالأرض » . وفى ت : « ساق عقد » . وما أثبتنا من الديوان .
(٤) الرهام : المطر الخفيف ، وجمع : رهمة . (٥) ب : « فبدا » .
(٦) الغرار : حد السيف . (٧) دارين : موضع بالبحرين .

أو كالكَعاب تبرَّجت لخليلها ... في اللّيل وارتقبت له الإلماما
فإذا رأت وجهَ الصباح تستَّرت ... خوفاً وصيَّرتِ الجفون(٩) كِماما
تُهدى الصَّبا منها أريجاً مثل ما ... يُهدى الحبيبُ إلى الحبيب سلاما
فكأنها نَفَس الحبيب تضوُّعاً ... وكأنها نَفَس المحبّ سَقاما

ثم ركبنا في نهر إشبيلية فأقمنا نزهة بالعروس، حيث مدار الأنس وإدارة الكؤوس، فقال ابن سهل، وله المعنى الصعب واللفظ السَّهل :

[كامل]

غيري يَميلُ إلى كلام اللاّحي ... ويُمِدّ راحته لغير الرّاح
لا سيّما والغصنُ يزهو زَهرُه ... ويَهُزّ عِطف الشارب المُرتاح
وقد استطار القلبَ ساجعُ أيكةٍ ... من كُل ما أشكوه ليس بصاح
قد بان عنه قرينُه عجباً له ... من جائعٍ للهَجر(٢) خَوف(٣) جُناح
بين الرِّياض وقد غدا في مأتم ... وتخاله قد ظَلّ في أفراح
الغُصنُ يَمرح تحته والنهر في ... قَصْف تدرّجه(٤) يدُ الأرواح
وكأنما الأنشام(٥) فوق جَنابه ... أعلامُ خَزٍّ فوق سُمْر رِماح
لا غَرو أن قامت عليه أسطُراً ... لما رأته مُدرَّعاً لكِفاح
فإذا تتابع موجُه لدفاعها ... مالت عليه فظل خلف صِباح
فلأيّ وقتٍ تدفع الأكواس قد ... آن اطّراح نصيحة النُّصّاح
وعلى العروس من الغصون عرائس ... قد وُشِّحت من زَهرها بوشاح

---

(١) ب : « الحلوق » . (٢) ب : « العروس » .
(٣) ت : « للهجر » . ([illegible]) ب : « خلفها » .
(٤) تدرجه : أي تلفه ، أو تتركه على صفحته آثاراً متشعبة .
(٥) الأنشام : من أشجار الجبال ، تتخذ منها القسي .
(٦) ت والنفح (٣ : ٧٣) : « جانبه » مكان « جنابه » .
(٧) ت : « ترفع » .

ثم صعدنا إلى فم الخليج، فنزلنا به يوم بهيج، وانتقلنا إلى مرج الفضة، فقال ما ختم به ختام الإحسان وفضّه : وله في مرج الفضة

[كامل]

لله نهرٌ ما رأيتُ جماله ... إلا ذكرتُ لديه نهرَ الكوثر
والشمسُ قد ألقت عليه رداءَها ... فتراه يرفُل في قميصٍ أصفر
والطيرُ قد غنّت لنطح(١) رواقص ... فوق الغدير يجرّرن ثوبَ تبختُر
وكأنما أيدي الربيع عشيّةً ... حلّين لبّاتِ الغصون بجوهر
وكأنّ خُضْرَ ثماره وبياضه ... ثغرٌ تبسّم تحت خدٍّ مُعذَّر

ثم خرجنا إلى ضفّة نهر إشبيليه، فقال عندما مالت الشمس للغروب، وقد بدا لضوئها لمعٌ في حشا النهر كالسيف المخضوب : وله في نهر إشبيلية

[كامل]

[27 B]

انظر كأنّ الشمسَ تملأ قلبَهُ ... فيُجِنّ داءً للغرام دخيلا
أو نَجمُ تُبدي الثوبَ منه(٢) مُعكَّرا ... والشمسُ تُلقي صارماً مصقولا
وكأنه ذو لجّةٍ لفراقها ... قد ضمّ من خوف الوداع قتيلا

وكان أسرع الناس ارتجالا، وأوسعهم فيما يدوم من الكلام مجالا .

حضرت معه يوماً مجلس الأستاذ أبي علي الشّلوبيني، فدخل فتى أصفر اللون قد كان لشعراء إشبيلية به غرام، فنسخت آيةُ نهاره في صورته(٣) سورة الظلام ؛ فقال بديهاً لذلك، وأتى في ذلك بما فيه اعتبار : وله في غلام

[سريع]

كأنّ غَيّاك له بهجةٌ ... حتى إذا جاءك ماحي الجمالْ
أصبحتَ كالشمعة لما بَغى ... فيها الضياءُ اسودّ منها الذُّبالْ

---

(١) ب : « السطح » . (٢) ت : « مفركا » مكان « معكرا » . (٣) ت : « صورة » .

وله في موسى اليهودي

وكُنت مُسايرا له في بعض الأيام ، وإذا بموسى اليهودي الذي اشتهر بحُبه قد أقبل من الحمّام ، فكلّمه داعيا ، فمر دون أن يلتفت لاهيا ، فقال من ساعته ، وأنا متعجب من براعته :

[سريع]

كم قلتُ للمحبوبِ بِت سالمًا ... فقال لى من نخوة أنت بِتْ
فقلتُ أسمى خلقه لائمًا ... آثاره ذُلًّا فلم يلتفت
فكُل مَن لام على حُبه ... لمّا رأى صَبرى عليه بُهت

وله فيه موشحاتٌ[1] ، ومقطّعات مشتهرات . فما أنشدنى منها فحفظته ، قوله الذى طالما أنشدته بالأقطار وردّدته :

[طويل]

أموسى لقد أوردتنى شرَّ مَورد ... وما أنا فرعونُ الكَفورُ[2] الشرائع
سحرتَ فؤادى حين أرسلت حَيّة الـــعِذار وقد أغرقتَنى فى مَدامعى
وماكنتُ أخشى أن تكون منيّتى ... بكفِّك والأيامُ ذاتُ بدائع
ووالله ما يلتذّ سَمعى وناظرى ... بغيرك إنسانًا وما ذاك نافعى
جعلتَ علىّ الصبرَ ضربةَ لازبٍ ... وحرّمت أنْ آتى إليك بشافع
وما أسفى أنّى أموتُ وإنما ... حِذارىَ أن تُرمى بلُوم الطبائع

وله إلى صديق

وكتب لصديق له بالجزيرة الخضراء بهذه الرسالة ، مُظهرا أن البعد أقلّ صبره واحتماله

[طويل]

إليكم يحنُّ القلبُ فى كُل ساعة ... ونحو مغانيكم تلفُّت ناظرى
وما عرضتْ لى خطرةٌ مذ بَعُدتمُ ... فلم يكُ إلّا نحوكم عَقْوُ خاطرى
[28 A] /وأنّى لخفّاق الفؤاد كما بدا ... نسيمكمُ من نحو سَلْعٍ[3] وحاجر

---

[1] كذا فى الأصلين . وما أورده شعر لا توشيح .
[2] الديوان : « كفور الصنائع » .
[3] سلع : موضع . وقيل : جبل قرب المدينة . وحاجر : منزل من منازل الحاج فى البادية .

وفيه ما يُبديه جِدُّ حديثكم ... بقلبى من سِرّ الهوى فى محاجرى
ألا يا سقى الله الجزيرةَ إنها ... لأهلٌ لأن تُسقى بدَرّ المواطر
ولِمْ لا وقد حازتْ من الفضل جُملةً ... يُقصِّر عن أوصافها كُلُّ شاعر

فما ماله جواب إلا التنفُّس الصُّعداء من المُنادى ، والكَتم بها من شماتة الأعادى فى محفل لذاتى ؛ فقد فقدت والله بعدك بهجةَ الأُنس التى كنت بين هذه المنازه[1] أعتادها ، وحالت زمنى أحوال الأيام حتى ودعت منها جُمعها وأعيادها . أين تلك المجالس المُونقة[2] الأرجاء ، الملوءة من المحاسن بكُل ما هو أحسن من بلوغ الأمل والرجاء :

[طويل]

لطائفُ آداب فُكاهة مجلس ... موائدُ أمثال نوادرُ أشعار
سرائرُ آياتٍ حُبيت بفضلها ... تُبين لما خُصّت به قُدرة البارى

فما أيامنا المُطرّزة برَقْم أيدى الشباب ، ولياليتا التى أُفرغت فى قوالب الأيام بمُواصلة أنيم المُنطاب ، لقد وَجدتُ لفراقك وجد الشيخ بتذكُّر أيام صباه ، ورُميت منه بداهية مزلما كُلّ صبر حَبّاه :

[بسيط]

وكيف أصبرُ عنكم بعد مَعرفتى ... أنْ ليس لى عِوضٌ منكم ولا بَدَلُ
إنا تَشطتُ لشَخص فى مُعاشرة ... جرّبته فَنى عن وُدّه كَسَل

قصيدته الحجازية

وله قصيدة حجازية ، وقد أمره أبو على بن خلاص الثائر بسبتة بذلك :

[طويل]

ورَكْبٍ دعتهم نحو يثربَ نيّةٌ ... فما وجدتْ إلّا مُطيعاً وسامعًا
يُسابق وَخدَ العيس ماءُ شُئونهم ... فيُفنون بالشّوق المدَى والمدامعا
إذا هَتفوا[3] أو رجّعوا الذِّكرَ خلتهم ... غُصونا لِداناً أو حَماماً سواجعا
تَحِنّ من التقوى حنايا صُدورهم ... وقد لَبسوا الليلَ البَهيم مَدارعا
تكاد مُناجاة النّبى محمّد ... تَنِمّ بهم مسكًا على النم ذائعا

---

[1] ت : « المنازهة » .
[2] ب : « المواقفة » .
[3] سفينة الأدب : « انطلقوا » . وفى ت : « انطلقوا » .

قلوبٌ عَرفْن الحق فهى قد انطوت   عليها جُنوبٌ ما عَرفْنَ المَضاجعا
تُخلّص أقوامٌ وأسلمنى[1] الهوى   إلى عِلَلٍ سُدّت علىّ المَطالعا
خُذوا القلبَ يا ركبَ الحجاز فإنه   ثوى الجسمُ فى أسْر[2] البَطالة كانعا
مع الجمرات ارموا فُؤادى فإنّه   حصاةٌ تلقّت من يد الشوق صادعا
وخُطّوا رجائى فى رجا[3] زمزم الصفا   وخلّوا المُنَى تجمع غليلا وواقعا

وله يمدح صاحب شريش

وقال يمدح أبا عمرو بن خالد ، صاحب شَريش :

[28 D]

[خفيف]

هاتِها كالنهار لاحَ النهارُ   وبكتْ مَصرعَ الدُّجى الأطيارُ
وكأنّ الرياضَ تُجلَى عروساً   وعليها من النبات نِثار
والطّلا والحَباب والروضة الغنّـاء خدٌّ ومَبسم وعِذار
أكؤوساً ما أرى بأيدى سُقاة   أم نجوماً تسعى بها أقمار
وكأنّ الإبريقَ خدُّ غَزال   دمُ ذاك الغزالِ فيه العُقار
قهوةٌ إن جرى النسيمُ عليها   كاد يَعلوه من سَناها احمرار
نال منك[5] الصِّبا ولا بُدَّ سُكرٌ   فلهذا يُعزى[5] إليها[6] العِثار
خَبّها مع كؤوسه رانيات   عن فُتور فى لحظه خمّار
فتنةٌ فى العيون تُدعى بغنج   حَيرة للنُّهى وقيل احورار

وله فى ابن الجد

وقال فى أبى عمرو[7] بن الجد :

[بسيط]

أضحى أبو عُمَرَ بن الجَدّ مُنفرداً   فى الناس كالغُرّة البيضاء فى الدُّهُم
مُحيّاً كالصِّبا فى نفس ذى هَرَم   مُعظّماً كالغِنى فى عين ذى عَدَم
أغرُّ ينظر طرفُ الفضل عن حَوَر   منه ويَشمخ أنفُ المجد عن شَمَم
لو أنّ للبدر إشراقاً كغُرّته   كان الكُسوف عليه غيرَ مُنْهَتِم

(١) ت : « وأسلمنى » . (٢) ت : « فى أسر » . (٣) الرجا : الناحية .
(٤) ت : « الرجا » مكان « الصفا » . (٥) الديوان : « منها ... إليها » .
(٦) ت : « نحو العثار » . (٧) ب : « ... عمر » .

مُوكّلٌ بحقوق المُلك يحفظها   بالجِدّ والجَدّ حفظُ الشُّكرِ للنِّعم
نامت به مُقلة التوحيد آمنةً   وعينُه لم تذُق غمضاً ولم تَنم

ومن ارتجاله

وقال ارتجالا :

[كامل]

لى صاحبٌ ترك النساء تظرّفاً   منه ومالَ إلى هوى الغِلمانِ
فعذلتُه يوماً وقد أبصرتُه   يُعنَى بقَوْد فلانةٍ لفُلانِ
فأجابنى إنّ الغرامَ إذا عنى[1]   قد يَنثنى قَوداً على النِّسوانِ

وله فى تهنئة بمولود

وقال يهنئ بمولود :

[كامل]

هو طلعةُ السَّعد الأغرّ فمرحباً   وسَنا الرياسة قد أضاء فلا خَبا
فرعٌ أزاهرُه المناقب نابتٌ[2]   فى المَعلُوات الشُّمّ لا شُمّ الرُّبا
هَشّت لمطلعه الأسِرّة والأسِـنّة والمحافل والجحافل والظُّبا
لا تحملوه على المُهود فإنه   ليَرى ظهورَ الخيل أوطأ مَركبا

ومن ارتجاله

وقال ارتجالا :

[طويل]

لقد فَتَك الأسطولُ فى الشِّرك فتكةً   غدا غِبُّها حُلواً ومَشهدُها مُرّا
فَلَحمة فى البحر تُشبع[3] نُونَه   وفى البر أخرى تُشبع الذئبَ والنَّسرا
جوارٍ إذا الموجُ الخِضَمُّ ازدهى بها   تخيّلتها الكُثبانَ حاملةً زَهرا

وله يمدح صاحب منرقة

وقال يمدح صاحب مَنرقة ، وكان أمَّه وقصده ، وأحمد مورد نداه إذ ورده :

[بسيط]

يَخِفّ بِشراً إذا انهلّت أنامله   والسحبُ توصف إذ تنهلّ بالثِّقَلِ

[A 29]

أقر يكُم من جُودِ عوارفه   ويَشهر البيضَ بأساً شُهرةَ المَثَل
فبشّر الحمدُ ما أخفاه من مِنَن   ويكتُم الضربُ بيضَ الهِندق[4] القُلَل

(١) ب : « عنا » مكان « عنى » .
(٢) ب : « ثابت » مكان « نابت » .
(٣) النون : الحوت .
(٤) القلل : الرؤوس .

يأوى لَعَلْياه مُحِقٌّ ومُضطهِدٌ   كالماء فيه وُرود اللَّيث والحَمَل
ويَشتهى نَيلَه مُثْرٍ وذو عَدَمٍ   كالرَّاحُ تصلح للصاحى وللثَّمِل
ذو عَزْمة كالتماع البَرق واقدة   تَجىء من نَصْره بالعارض الهَطِل
لولا السُّعود التى نِيطت بِهِمَّته   لكنتُ أنسُبها بُعداً إلى زُحل

وقال أيضا فيه :

[بسيط]

يا مَن عُيون المَعالى عنه قد نَظرتْ   شَزْراً وبَحَّ لسانى[(١)] السيفَ إذ نَعَما
دانت لك الرومُ دِينَ العابدين فهل   غدى حسامُك فى أصنامهم صنما
ومَثَّلوه فقالوا النُّورُ مُؤتلِقا   والماء مُطرِدا والجمرُ مُضطرِما
أضحت أياديك فى أعناقهم رِبَقا   وظَنَّها الناسُ فى أيديهمُ نِعَما

وقال أيضا :

[طويل]

له فى موسى

أُموسى متى أحظَى لديك ومُبعدى   ودادى وأعذارى إليك ذُنوبى
رفضتُ لَصَرفى فيك أكرمَ عُدَّة   وقاطعتُ من قومى أعزَّ حبيب
وهبتُ — ولا مَنٌّ — على الحُسن عِفّتى   ولُبِّى وسُلوانى لغيرِ مُثيب
فضاعت — ولا ردٌّ — عليه وسائلى   وخاب — ولا عَتْبٌ عليه — نَصيبى
وقالوا لبيبٌ لو أراد عَصى الهوى   تناقَضَ وصفًا عاشقٌ ولبيب
وما بآختيارى فارق القلبُ صبرَه   ولكن فِراق السيف كفُّ[(٢)] شبيب

وقال أيضا :

[بسيط]

حديثُ عَنقاء صبٌّ أدرك الأملا   حظى من الحُسنُ[(٣)] أنى بعضُ مَن قَتَلا
حقًّا لقد نَصح العُذَّال لو قَبِلوا   السيفُ من لَحظ موسى يَسبِق العَذَلا
يا من غدا كُلُّ لفظ منه[(٤)] من طمع   عَنى وليت وشعرى كُلُّه غزلا

(١) ج : طب .
(٢) شبيب : هو أبو الضحاك شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى ، نفر به فرسه على جسر وحمل فألقاه فى الماء غريقا سنة ٧٧ هـ وفارق سيفه كفه قسرا .
(٣) الديوان : « والحب » .
(٤) الديوان : « ... كل لفظ فيه » .

مَنَنْتَ بلحظةٍ رَدِّ السلامِ فلم   أجزْ على الطَّيف فى تكليفه القُبَلا
كما خضاب آصفرارٍ للضنَى جَسدى   لو كان يَنضح من ماء الْلى نَصَلا
شَوقى إليك — ولا تَمَلّ — شوقَ قد   أفنى الفواقَ وأفنى الدمعَ والجلَدا

وقال أيضا :

[طويل]

يقولون لو قَبَّلته لآشتفَى الجوَى   أيطمع فى التقبيل مَن يَعشق البَدرا
ولو غفل[(١)] الواشى لقبّلتُ نعلَه   أنزِّهه أن أذكُر النَّحر والثَّغرا
ومَن لى بوعد منه أشكو بخُلفه   ومن لى بعَهد منه أشكو به الغَدرا
وما أنا من يَستحمل الريحَ شوقَه   أغارُ حِفاظًا أن أُبيح له السِّرا
يقول لىَ اللاحى وقد جَدَّ بى النَّوى   لِيُلهينى فى سُوء تقديره[(٢)] الصبرا
ألم تَرْوِ قَطُّ : «اصبر لكل مُلمّة»   فقلت أما تروى : «لعل له عُذرا» [29 B]
إذا فئة العُذّال جاءت بسِحرها   ففى وجه موسى آية تُبطل السِّحرا

وقال :

[وافر]

كأن الخالَ فى وَجَنات مُوسى   سوادُ العَتْب فى نُور الوِداد
أَخُطّ بِصُدغِه لحُسنٍ واواً   فنقَّطَ خدَّه بعضَ المِداد
لواحظُه مُحيِّرةٌ ولكن   بها آهتدتُ الشُّجون إلى فؤادى

وقال أيضا :

[طويل]

صُعقتُ وقد ناجيتُ موسى بخاطرى   وأصبح طُورُ الصَّبر من هَجره دُكَّا
وقالوا آسْلُ عنه أو تبدَّل به هوًى   أبعدَ الهُدى[(٣)] أرجو الجحودَ أو الشِّركا
أبَتْ لماكَ[(٤)] الحُسنُ أن يهجر الحُلَى   فنظَّمت من شِعرى ومن أدمُعى سِلكا

(١) كذا فى ت وفوات الوفيات . وفى ب : « نقل » .
(٢) الديوان : « تأويله » .
(٣) ت : « أقوى » .
(٤) ت : « يراك » .

جلا الخالُ فى كافورِ خدّك مِسْكَةً ... فنمّ بأشواقٍ نسيمُهما الأذكى
يُجدّد لى بمسك الخال بالحَظّ إننى ... عَهدتُ ظِباءَ المِسْك لا تمنع المِسْكا

وقوله :

[كامل]

لامُوا فلمّا لاح موضعُ صَبْوتى ... قالوا لقد جئتَ الهوى من بابِهِ
شَرِقَتْ بدمعى وَجنتى شوقًا إلى ... ذى وَجنةٍ شَرِقتْ بماءِ شَبابِه
حُلْوِ الكلامِ كأنما ألفاظُه ... يَشربن عند النُّطق شُهْدَ رُضابِه
باللهِ ياموسى لقد لَذّ[1] الهوى ... آجهر ولا تُبْقِ الحريجَ لما بِه
هاروتُ أودع فى لِحاظك سِحرَه ... فأصاب قلبى منك مثلُ عذابِه
صَحّحت ياموسى[2] وصالَك مثل ما ... قد صَحّ بأسُ الحرف من إعرابِه

وقال :

[مجتث]

يُدنيك زُور الأمانى ... منّى وتَنأى طِلابا
كأننى حين أبكى ... رِضاك أبكى الشّبابا
وأشتهى منك ذَنْبًا ... أبنى عليه العِتابا
حتى إذا كان ذَنْبٌ ... فتحتُ للعُذر بابا
ظمِئتُ منك لوِرْدٍ[3] ... فكان وِردى السّرابا

وقال أيضا :

[وافر]

مضتْ لى عنك لا ألقاك عَشر ... أطلتُ بها على الدَّمن العِتابا
ولستُ أعدّ هذا اليومَ منها ... لعلّ الله يَفتح منه بابا
فإن تكُ لم تَعُدْ ولم تُحقِّقْ ... فلى شوقٌ يُعلّمنى الحِسابا

(١) الديوان : « الردى » مكان « الردى » .
(٢) الديوان : « بأس » . (٣) ب : « لشمس » .

وقال :

[طويل]

أضاع وقارى مَن علمتُ[1] جمالَه ... فيازَهرةً قد زلزلت جبلًا راسى
وما ضرّ لو واسى وسلّ بزَورةٍ ... خَلِيًّا جرى فيه القضاءُ على راسى
ألتقط دُرًّا من فُضول حديثه ... وأشرب طِيبَ العيش من فضلة الكاس
وأرخصتُ عُمرى فيه وهو ذَخيرتى ... وأنفقتُ فيه كنزَ صَبرى وإيناسى [30 A]
وفادتُ رأيى بالعَزاء مُذمَّمًا ... وأوحشتُ نَفْسى فيه من سائر الناس
وأصفتُ بين النوم فيه وناظرى ... وأكمنتُ وَجْدًا بين فكرى ووَسواسى
سأسرق صَرفَ الحُزن عنه مطامعى ... وآوى بهذا القلب منه إلى ياس
أنا حيلةٌ فيه فيعشق ساعةً ... أمَا رُقيةٌ أرقى بها قلبَه[2] القاسى

(١) الديوان : « علقت » ، وسفينة الأدب : « عاشقت » .
(٢) يريد « بأس » بالهمزة « شغف » .

١٢- الفقيه أبو العباس بن بلال (*)

ثنى عليه

من شيوخ الجزيرة الخضراء ، لم يزل منزله مألفاً بها لغرباء الأدباء والشعراء ، وهو ممن كان ينتفع بأدبه ، ويستفاد من كتبه ؛ ولم أكد أفارقه أيام ولايته لبلده ، وتهافت الشعراء على وصف محاسن ولده ؛ وكان معروفاً بالجمال والعفاف ، مع مخالطة أهل الأدب وما يقع بينهم عليه من الخلاف .

يحن إلى ابن سعيد

ولقد مرت لي معه ومع ولده المذكور ، أيام لا يزال يمتثلها الضمير ، فتميد عليها أغصانه ، ويتذكرها فتشوقه أكثر مما تشوقه أوطانه ؛ من ذلك أني كتبت له من جنة على وادي العسل بظاهر الجزيرة ، والأرض قد أظهرت زينتها ولم تبق في باطنها السحب سريرة ، في يوم أنس سمح به الزمان فكمّله ، وبلغ من ظفر به ما تمنّاه وأمّله :

[وافر]

أبا العبّاس لو أبصرتَ حولي … تدامَى بادروا العيشَ الهَنِيّا
يُحيّون المُدام ولا آنتقاد … وقارَهمُ ويَزدادون غَيّا

فكان جوابه ، مع ما تبيّن فيه نصابُه :

[وافر]

أبيتَ سوى المَعالي يا عليّا … فما ينفكّ ذكرك أريَحيّا
تميل إذا النسيمُ سَرى كغصن … وتَسرى للمكارم مَشرَفيّا
وترتاح آرتياحاً للتّنادي … وتقتنص الصبيّة والصبيّا
وتهوى الروض قلّده نداه … وألبسه مع الحُلَل الحُليّا
وإنْ غنّى الحمام فلا آصطبار … وإن خفق الخليجُ فَبِتّ حيّا
تذكّرتَ الشباب فلستُ أدري … أصُبحاً حين يُذكر أم عشيّا
فلو أدركتَني والغصنُ غضٌّ … لأدركتَ الذي تهوى لديّا
ولم أُدرك(١) وحظّك قدر حظ … وقد ناديتَني ذاك النديّا

(*) نفح الطيب (٥ : ٢٠٩) .

(١) ت : «ولم أترك» .

[30 B]

له في وداع ابن سعيد

ولما انفصلتُ(١) عن الجزيرة الخضراء ، خرج الفقيه أبو العبّاس مودّعاً لي وقاضياً لحقوق لوذه ، ثم نظم هذه الأبيات ، التي دلت على ما اشتمل عليه من أخلاق ذوي المروءات ، وكان ساعتهم بظاهر البلد ، والإزماع على الرحيل في صبيحة الغد :

[وافر]

أترحلُ يا عليّ غداً وأبقى … وما تدري بأني سوف أشقى
لقد أشقى غداً بكؤوس(٢) وجد … بها من قبل ذا ما كنت أُسقى
أهيم بك آرتياحاً للمعالي … إذا هام الورى حُبّاً وعشقا

من شعره

وقال أيضاً :

[متقارب]

ودار بها كلُّ ما تشتهي … سوى المَشرب العذب والمأكلِ
فكُل برِضَى صاحبها إن تَشا … وإلاّ فقُم عاجلاً وآرحلِ
وإن صُمت فاقعُد فذلك الذي … يَدينُ به صاحبُ المنزلِ
وما ذاك نُسكٌ ولكنّه … من المقت في الصّوم(٣) لا يأتلي

وقال ارتجالا :

[متقارب]

حرامٌ عليّ حرامٌ حرامْ … حضورُ الولائم عند اللئام
وأنسى بما هو أنسٌ لهم … وأكلُ الطعام بدار الطَّغام
لأن آعتزازي هوانٌ لهم … هوانُ اللئام آعتزاز الكرام

وقال أيضاً :

[بسيط]

مُنتقَة اللفظ والمعنى من الدُّرر … صارت لكونك فيها دارة القمر
شبيهة الروضة الغنّاء عُدت لها … كالروح لجسم أو كالنور للبصر
أرَج الأُفق لما أن حللتَ بها … وإنما نفحات الروض بالزّهَر
وغضّ جفنيه عنك الدهرُ من أدب … وأولعت بك(٤) عين السعد بالنظر
فنل بها كُلّ ما تهواه من أمل … وقضّ ما شئتَ للعلياء من وطر

(١) ت : «انفصل» .
(٢) ت : «أبرح» مكان «وجد» .
(٣) المقت : ما يكره . ولا يأتل : لا يقصر .
(٤) ت : «لك» .

وقال فى وصف رامٍ :

[سريع]

وشادنٍ فوّق سهماً له ... ورامَ يَرميني به عابثا
أما كفى سهمان من لحظه ... حتى رَماق قوســه نائثا

وقال :

[طويل]

وعهدى به إذ قام للآس(1) قاطفاً ... وقد صِيغ من وَرد الرِّياض له خدّ
ومن وَرق الرَّيحان خُضرة شارب ... ومن نَوره ثغر ومن غُصنه قدّ

وقال :

[متقارب]

ترحّلْ لتونس تأنسْ بها ... وتحظَ بلُقيا الإمام السَّرِى
ولا تقعدنّ بأرض بها ... أمانُ المُسئ وخوفُ البَرى

وقال ارتجالا(2)، وكتبه فى صدر جامع بناه بالجزيرة الخضراء، يحيى والد محمد بن همشك التيمالى ، عام أحد وثلاثين(3) وستمائة :

[مخلع البسيط]

قُدِّستَ يا بيتُ فى البُيوتِ ... ودُمتَ للدِّين ذا ثُبوتِ
يعمرك النّاسُ فى رُكوعٍ ... وفى سُجـود وفى قُنوتِ [31 A]
وإن نأى بالغريب بيتٌ ... كُنت له موضعَ المَبيتِ

وقال أيضا :

[منسرح]

لنا نَديمٌ كأنّه ذَهبُ ... قلّده عِقـدَ دُرِّه الحَبَبُ
قد رقّ حتى كأنه دَنَفٌ ... أنحى عليه الغرامُ والوَصَبُ
كأنه فى زُجاجة قبسٌ ... له شُـعاعٌ وما له(4) لَهَبُ
يُرود أرماقنا(5) به رَشأٌ ... تُسكر(6) منه الألحاظُ والشَّنَبُ
ونُقلنا ما نشاء من مُلَحٍ ... نحفظ من حُسنها ونكتتبُ
ونحن عِقدٌ وأنت دُرّته ... فانشط إلينا لا خانك الطَّربُ

(1) ت : «للآس» .
(2) هذه الكلمة «ارتجالا» ساقطة من ت .
(3) ب : «وثلاثين» .
(4) ت : «ذهب» مكان «لهب» .
(5) ت : «وارقنا» .
(6) ب : «تكسر» .

أبو يحيى بن هشام القرطبى(*)

شيخ الكتّاب فى أوانه ، المُشار إليه بذلك ما بين أقرانه ، يَحمُد هَضبة فى مراتب [illegible] ، ويَلوب سلسالاً فى مجالس الفكاهات ، وكان مع سَمته المُستحسن ، أمزح الناس فيما يتعلق بمذهب الحسن ، له فى ذلك حكايات وأخبار ، وموشّحات وأشعار . وهو ممّن كان يُخلع بكتبه وأدبه فلله ماذا أفاد ، فى أيام كأنها بمحاضرته جمع وأعياد ، وكان فى أول(1) أمره ببلده فكتب عن ولاته ، إلى أن كتب عن إدريس(2) ، ثم عن الياسى [لما تغلب على قرطبة وصار مختصا به وسافر معه . فلما قتل الياسى](3) لحق ، ثم لحق بإشبيلية وتوصل إلى أن دخل على إدريس وأنشده قصيدة منها :

[كامل]

مولاىَ إنْ لَبِقى(4) مع خِدمتى ... خَصمان فاحكم للتى هى أقدمُ

ثم أكثر عليه من الرِّقاع . فوقّع له : يا هذا ، أكثرت علينا من الرِّقاع ، وقد حكا لى بعلمٍ ابن الرِّقاع . يُشير إلى قول الشاعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى :

[طويل]

فلو قبـل مَبكاها بكيتُ صبابةً ... بسُعدى شفيتُ النفس قبل التندّمِ
ولكن بكت قبـلى فهيّج لى البكا ... بُكاها فقلتُ الفضلُ للمتقدّمِ

ثم تنقّلت به الأحوال ، فكتب عن ابن هود ، وعن الباجى .

من نظمه

عنوان نظمه وهو أحسن ما أنشدنيه منه :

[كامل]

انظر إلى الفَراش يطوف حول كُؤوسنا ... إذ خالها تحت الدُّجى قِنديلا [31 B]
مازال يَخفق حولها بجَناحه ... حتى رمتْـه على الفراش قتيلا

(*) نفح الطيب (٤ : ٢١٣ و ٥ : ١٦٥) .
(1) ت : «فى أدنى» .
(2) هو أبو العلاء إدريس بن منصور .
(3) التكملة من ت . وستأتى ترجمة الياسى (ص ٩٤) من هذا الكتاب .
(4) ت : «بقى» .

وقوله ، وهو غريب المَنزع :

[كامل]

لاموا على حُبّ الصِّبا والكاسِ   لما بدا وَضَحُ المَشيب براسِي

والغُصن أحوجُ ما يكونُ لسَقْيه   أيّان يبدو بالأزاهر كاسِي

وقوله :

[سريع]

رأيتُ بالجامع مَن فَرّقت   ألحاظُه شَمْلَ اصطباري فِرَقْ

لما بدا في حُسنه مُفرداً   عَوّذتُ مَرآه بربِّ الفَلَق

قَدِّين شِعرٍ له جانباً   وقال : أنسيت وربِّ الغسق

فقلت : دعني ماذا[1] مكاناً لذا   يا أعرف الناس بوَقْد الحُرَق

ومن محاسنه قوله مرتجلا ، وقد نظر على نهر قرطبة إلى ثلاثين مصلوبين من قُطّاع الطريق : في ثلاثين من قطاع الطرق

[متقارب]

ثلاثون قد رَكِبوا[2] خيلَهم   وقد فتحوا أذرعاً للوداع

وما ودّعوا غيرَ أرواحهم   فكان وَداعا لغير اجتماع

وأنشد ارتجالا بإشبيلية في مجلس إدريس على راحه ، من ألم كان بركبته : في مجلس إدريس

يا مولانا رضى الله عنكم ، وبلّغ هذه المحاسن حقّها منكم ، لم يزل العبيد يتنسّمون نسيم هذه الفرج ، ويجدونه طيب التنفّس عَبِق الأرج ، حتى شفى الله نفوسهم ، ووالى سرورهم ؛ بهذا الخبر العام الذى أبهج وأثلج ، فنسأل الله تعالى أن يحرس كمالكم ، ويبلغ المسلمين آمالهم في أن يُبلغكم آمالكم :

[بسيط]

نُعمى وليست حياة الدين الأهي   جلّت وعزّت فلم تلحق بأشباه

ياواصفيها عجزتُم عن حقيقتها   قولُوا جميعاً عليها : الحمد لله

---

(1) ت : «ذا» .   (2) ت : «صففوا» .

وقوله : في مدح بني سعيد

[وافر]

لسانى مُقصِرٌ والمجدُ عاذر   لأنى فوق ما يَكفيك شاعرْ

تمالَ قَدْرٌ بجد بنى سَعيد   عن الإنصاف من مُثنٍ وشاكر

فهل يُحصى مناقبهم لسانٌ   وهم أبناءُ عمّار بن ياسر

نهايةُ مادحيهم أن يقولوا   هُمُ خيرُ الأوائل والأواخر

فهنّك سُنّةٌ أرضيتَ فيها   رسولَ الله في كَرَم التصاهر

كأرضاه[1] جدُّك في أمور   من الإسلام تُسخط كُلَّ كافر

فطِبْ نفساً وقرّ بذاك عيناً   فأنت أجلُّ مَن يُهدى البشائر

وقوله : في أغيد

[طويل]

وأغيدَ وافى يعطف السُكْرُ قدَّه   وأىُّ قضيب يَنثنى مثلَ قَدِّه

يطعْ للأبصار في زَجاجةٍ   كلَوْن الذى يشكو مَرارة صَدِّه

وفى يده اليُمنى شبيهُ عِذاره   وفى يده اليُسرى شبيهُ خَدِّه

وقال أيضا[2] : في بركة

[كامل]

ولقد طربتُ على محاسن بِركةٍ   وَرقاءَ تحسبُها مُذابَ الجوهرِ

قد كُلّلت حافاتُها بربيعها   فتُقيِّد الأبصارَ بهجةُ مَنظر

وكأنما المرآة في تدويرها   قد طَوّقوها طوق شمع أخضر

وقال ارتجالا في فتى وسيم عض وردة ثم رمى بها إلى الأرض ، وسُئل ذلك منه امتحانا : في وسيم عض وردة

[كامل]

ومُعجزِ الأوصاف والوُصّاف في   بُرْدَى جمالٍ طُرِّزا بالتِّيه

مَوصولُ أنمُله تناول وردةً   فغدا تُمزِّقها أقاحي فيه

فكأنّى شبّهتُ وجنتَه بها   فرمى بها غضباً على التشبيه

---

(1) ب : «أرضاك» .   (2) هذه الكلمة ساقطة من ت .

في وسيم عضه كلب [32 B]

/ وقال في فتى وسيم عض كلبٌ وجنتَه :

[طويل]

واجِدَ وضّاح المحاسن باسِم ... إذا قاسَ الأسباقَ ناظرُه قمر
تعمّد كلبٌ عضَّ وجنته التى ... هى الوردُ إيناعًا وأبقى بها أثر
فقلتُ لشُهب الأُفق أين(1) خُماتكم ... وقد أثّر العَوّاء(2) فى صفحة القمر

في وسيم يحمل شمعة

وقال أيضا فى فتى فى يده شمعة حلفاء(3) :

[متقارب]

وشمعة حَلفاء فى راحتى ... شِهابٍ يُجَلّى بُرُوجَ الفِكَرْ
يُجلّلُ الظلامَ بأهدابها ... فينشفع فيه سوادُ الشَعَرْ
وتنفى شياطين وِلدانها ... بما ألفتْ من رُجوم الشَّرَر
متى لعب النور بالنار أو ... متى ألفَ البرقُ كفَّ القمر

وله فى خياط

وقال فى خياط :

[مخلع البسيط]

وخائط رائع جمالاً ... وماله غاية اقتراحى
تنم منه الخُيوط قتلا ... بين أقاحٍ وبين راح
تراه فى السِّلم ذا طِعان ... بنافذاتٍ بلا جِراح
خلقته أشبهتْ فؤادى ... لكثرة الوخز فى النواحى
تُقطّع الثوبَ راحتاه ... كَقطع(4) الخاطه المِلاح
فقبله ما رأيتُ بَدْرا ... مُمزّقا بُردة الصَّباح

وله فى قائد قاده

وقال أيضا :

[طويل]

ويوم شربنا فوق شاطئ جدول ... هو الدُرّ مَيّاعا يُسمّونه نهرا
كبارَ زُجاجات أعادتْ عقولنا ... عقولَ صِغار تحمل النفع والضرّا

(1) ت : « كيف » .
(2) العواء : اسم نجم ، من منازل القمر .
(3) ت : « وقال يصف شمعة حلفاء » .
(4) ت : « كقطع » .

ولما انفصلنا بالمُصلَّى عشيّةً ... تناثر سِلكٌ كان مُنتظِما دُرّا
وسِرتُ وذِهنى عازبٌ غيرُ حاضر ... وقد قُيِّدت عن خَطوها(1) قدمى سُكرا
إلى أن أتاح اللهُ لى تَجمل حُرة ... حدانى إلى المثوى فبشّر باليُسرى
بأشكره واللهِ عُمرى فإنها ... يدٌ عُرفت لو أن صاحبها يُدرى

من نثره

عنوان نثره(2) :

وصل فلان وهو يصل الزفرات ، ويقطّع حسرات ؛ حين خاب ظنه الذى لا يخيب ، ولم يفز قدحه وهو المُعلّى فى الخدمة السالفة بنصيب ؛ وحق له أن يصدق له فيما أمّل ، ويُصرف فى أحسن الأشغال ولا يُهمل ؛ ولم لا يحسن لمن استحسنت خدمته ، وقُدمت ذمته وحرمته ؛ بما أسلف لهذا الحزب الغالب من انتباه والناس نيام ، وانتصار بالمال والنفس والكلام ؛ وخوض فى لجج المهالك ، وقطع لمضيقات المسالك ؛ متى يجنى ثمرة ما غرس ، ويمشى فى ضوء ذلك القبس .

[32A]

فصل :

وإلى هذا فإنا كتبنا إليكم — كتب الله لكم من النعماء ما يهطل غمامه ، ومن العزة الشماء ما تتفتح عن زهر المسرة كمامه ؛ من قرطبة — حرسها الله — والخيرات تزدحم بنا ، والمسرات تتسابق إلينا ؛ والذى بيننا لا يحتاج إلى وساطة الأقلام ، ولا يخاف عليه تغير الليالى والأيام . ولما وصل بكتابكم المرعى المحفوظ ، المقبول الملحوظ ، الفقيه أبو فلان وجدته فيما التمس ، ضد ما وجد المتلمس(3) ، وعاد من قضاء غرضه به عَوْد الباكر المغلّس . وهو لعمر الله أهل لأن تتحقق أغراضه ، ولا تتصوح بالإهمال رياضه ؛ ومثله من تشفع فيه وطلب له ما يكفيه .

(1) ت : « خطها » .
(2) جاء هذا النثر مقدما فى الأصلين (ص ٨٥) بعد البيتين :
من وليت حياة الدين إلا هى ... جلت وعزت فلم تلحق بأشباه
وأصفيا بمحرزتم عن حقيقتها ... فولوا جميعا علينا الحمد لله
(3) المتلمس : هو جرير بن عبد العزى ، شاعر جاهلى . يشير إلى الكتاب الذى حمله وفيه مقتله ، فضاع عليه أمره وتلها .

وللآداب أكواسٌ أديرت ... على أهل الصبا زمن التصابى
وأقمار الجمال بكل أفق ... تُطالعنا فتزهد فى الشباب
فديتك إنّ بى نجوى وشوقاً ... وليس البُرء إلا فى الجواب

وكان جوابه مالا يخفى حُسنه ، إذ تأوّد فى روض الأدب غُصنه :

[وافر]

أبا حسن لعمرك إنّ ذكرى ... لأيام النعيم من الصوابِ
أمثلى ليس يذكُر عهد حمص ... وقد جمحت بنا خيلُ التصابى
ونحن نجُرّ أثوابَ الأمانى ... مُطرّزة هنالك بالشبابِ
وعهدٌ بالجزيرة ليس يُنسى ... وإن أغفلتَه عند الخطابِ
هو الأحلى لدىّ وإن تحامى ... عن العسل اجتماعُ الذبابِ

[33 B] وكان المشارك هذا البيت الى المحبوب الذى كان يشاركه فيه فى الجزيرة الخضراء ، وكان يكثر الاجتماع معه فى جنة لوالده عن وادى العسل ، فقد طرّف ما شاء ، وأحسن الإبداع والإنشاء .

ولما اجتمعتُ به مُستحسنا لهذا المقصد ، قال لى : قد كنت ذكرته أيام تلك المزاحمات ، ثم أنشد :

[مجزوء الرجز]

جنة وادى العسلِ ... كم لى بها من أمَلِ
لو لم يكن ذبابها ... يمنع ذوقَ العسل

ولما التقينا بتونس بعد إيابى من المشرق ، وقد دخل ظلامُ الشعر على صبح وجهه المشرق ، قلتُ لأبى الحجاج مُشيرا إلى محبوبه ، وقد غطّى هواه عنده على عيوبه :

[سريع]

يا أبا الحجاج هذا الذى ... قد كنتَ فيه دائم الوجدِ
انظر إلى لحيته واعتبر ... فيما جنى الشعرُ على الخدّ

فأطرق ساعة ، ثم قال خارجا عن السمع والطاعة :

[سريع]

إن غدا الشعرُ شعاراً له ... فإنه كالوشى[1] المبردِ
وهل ترى أحسنَ من روضة ... يلتف فيها الآس بالوردِ

فتركته وهواه ، وأيقنت أنه لا يفارقه إلى أن يلاقى صداه[2] .

(1) ... « كالوشى » ، ... « البرد » .

(2) الصدى : ... — ... — ... ، ... .

١٢- أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسى (*)

من أشياخ المؤرخين ، الأدباء المشهورين ، بالتصنيف والإقراء ، صحبتُه زمانا بإشبيلية ثم بالجزيرة الخضراء ، ثم حاضرته غير ما مرة بحضرة تونس ، أدام الله لمالكها اتصال الظهور والاعتلاء . وفى جميع ذلك استفدتُ من فنون آدابه مالا آنس به ذكره ، ولا أستنقص[1] — متى أخذته الأكثر من جهة / الأمور الدينية — قدره ، فقد كان — ساعده الله — [33 A] حافظا لنكت تواريخ الأندلس حديثا وقديما ، ذاكرا للمضحكات التى صيرته للملوك والكبراء جليسا ونديما ، إلا أنه بُلى بالتقتير على نفسه ، إلى حين حلول رمسه ، فكان يجمع ما يحصل له من المرتب وأنواع الإحسان ، ولا يخرج من ذلك إلا ما لابدّ له منه مما يقيم به أود الإنسان .

ومما أنشدنيه من شعره قوله فى طالب من أعيان الجزيرة الخضراء ، تهافت فى حبه جماعة من الأدباء والشعراء :

[خفيف]

قد سلونا عن الذى تدريه ... وجفوناه إذ جفا بالتيه
وتركناه صاغرا لأناس ... خدعوه بالزور والتمويه
يُضلّ يهديه نحو مُضلّ ... وسفيه يقوده لسفيه

وكان من القوم الذين هاموا بهذا المذكور ، وقاموا فيه بالمقام المشهور ، أديب يقال له العار ، وسُلط[2] على أبى الحجاج البياسى حتى سافر عن الجزيرة ، وكان يلقب بالقط ، فقال أحد الشعراء :

[طويل]

عذرت أبا الحجاج من رب شيبة ... غدا لابسا فى الحب ثوبا من العارِ
ولم أر قطّا قبله فرّ من فار ... وإلفاه العارُ المشارك للشوى

وكتب إليه بعضُ أحبابه مذكّرا بالأيام السوالف ، التى قطعوها وهى أنزه عطلة المسرات من السوالف[3] :

[وافر]

أبا الحجاج تذكُرُكم بعيشا ... وعيشا تحال على الشبابِ
بوادى حمص أو وادى شريش ... سقى بلديهما قطر السحابِ

(*) المغرب (١ : ٢٠٥ و ٤٢٧ ، ٣٠ : ٧٣) .

(1) ت : « ولا أنقص » .

(2) ت : « وسلط » .

(3) أى ... ما يعصر من الحرير ... « السلاف » .

١٤ - أبو العباس أحمد بن الحاج الإشبيلي (*)

نثره

كان أبوه من التجار ، فنزعت به همته إلى منافسة الصدور في الإيراد والإصدار ، فنشأ منتهضا بالأدب ، مائلاً إلى القيام بلسان العرب ؛ إلى أن صار يقول : إنما مثـ[ـل] أبو الحسن بن عصفور في كتاب « سيبويه » ما أراد ، فإنه لا يجد من يرد عليه .

وأبو الحسن الآن إمام بهذا الشأن في المغارب والمشارق ، وهو حيث حل فيلـ[ـه] نازل بالمحل الرفيع ومقابل بالبر الفائق .

مع ابن سعيد

وجالستُ أبا العباس كثيراً بجامع العديس[1]، وكان عزيز المجالسة لشيخنا أبي الحسن الدباج . فذكر أنه جرى منه مرة في المذاكرة، ما أوجب أن أكتب إليه معتذرا بما صدر عنه في المبادرة ، للرد في المحاورة والمحاضرة :

[بسيط]

عُذرًا لفضلك يا أُستاذ من [1] خجلي   إذ ليس يخلو ذوو الآداب من شَغَب

[34 A] / فالكل منهم يَرُوم السبق مجتهدًا   لكي [3] يُرى سابقًا نوعًا من الغَلَب

وما نطقتُ بشيء قد نطقتُ به   إلا وقد ملكتْني نشوةُ الأدب

بينه وبين سبط الدباج في غلام

وكان معنا بعض العشيات بجامع العديس[4] بإشبيلية، فنظر سبط الدباج [أبو بكر][5] إلى أسود حافظ للحديث يقرأ عليه صبي جميل الصورة، فقال لابن الحاج : أجز يا أبا العباس :

[مخلع البسيط]

أنظر إلى قارئ حديث   مُشبهٍ حُورٍ على غُلام

فقال ابنُ الحاج مجاوبا له ارتجالا :

[مخلع البسيط]

كأنه الصُّبح مُستمدًا   سناه من غَيْهب الظَّلام

فقال : أجز أيضا يا أبا العباس :

[كامل]

ومُعشَّق مثل النهار لحنُه   يتلو الحديثَ على أخي[6] دَيْجور

(*) نفح الطيب (٥ : ١٧) .

(١) ت : « العابس » .

(٢) ب : « خجلي » مكان « خجلي » .

(٣) ب : « لكن » .

(٤) ت : « العويس » .

(٥) التكملة من ت .

(٦) الديجور : الظلام .

فقال ابنُ الحاج ارتجالا :

[كامل]

فاعجبْ لمن أبدى التعجبَ منهما: نورُ الحديث أتى بذاك النُّور

أمره وشعره في ذلك

ثم ركب البحر فحصل في الأسر ، فخاطب الحضرة العلية الأميرية المقدسة مُستصرخا من الثاني[1]، فخلصه ما هو المعهود مما خصه[2] الله به من الحنان والإلطاف. فمما قاله في ذلك الشأن ، وقد صار في حضرة تونس من الأعيان :

[كامل]

ناديتُ والبحرُ الخضمّ مُعارضٌ   بحراً بجُودك لا يَغيب بِبرّه

فأجبتني إذ لا مُغيث ولم يكن   إلاك يَنْصُر للغريب وشِعْره

وأنقذتَ للآداب من أسرى[3] وقد   أسديتَ ما حاز الثناءَ بأسره

ثم تضاعف تقريبُه ، وتوفر من المال[4] والجاهَ نصيبه .

(١) الثاني، أي الأسر .

(٢) ب : « مما خصها » .

(٣) ت : « قد » مكان « وقد » .

(٤) ت : « الملك » .

١٥ - ابن همشك التملي

الشيخ الفقيه الأديب(١) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي بكر ، المعروف بابن هُمُشْك(٢) التملي .

وسبب معرفتهم بهذا الاسم محاربة جده أبي بكر لابن هُمُشْك الأندلسي(٣) الثائر بجيان وقهره له ولقرابته ، حتى جاز بهم البحر إلى سلا ، وأسكنهم بمكناسة بأمر صاحب المغرب . وولي بعد ذلك أشغال سبتة برا و بحرا ، وكان مشكور السيرة ، حسن السريرة ، معروفا بالنزاهة والطهارة / ، وتُوفي بنزارة(٤) ، ودُفن بسبتة عام ستة وستمائة . [34 B]

ونشأ والده الشيخ الفقيه الخطيب الصالح أبو زكريا يحيى بسبتة ، ولقي علماءها وصلحاءها فروى عنهم وسمع منهم . وأخذ عن أبي محمد بن حوط الله في إجازته لهم جملة ، منها : الحديث المسلسل في الأخذ باليد .

وكان من أهل الصلاح والدين ، مشهورا بالنزاهة والطهارة ، مع حظ من حفظ الحديث والفقه . وولي الإمامة بجامع قصبة سبتة والخُطبة بها ، والأمانة على مفاتح القصبة والبلد والبحر والمجاز وغير ذلك أربعين عاما . ثم خرج من سبتة عام ثلاثين وستمائة في فتنة أبي العلاء بن المنصور وسطوته بالموحدين خوفاً على نفسه ، فاستوطن الجزيرة الخضراء وسكنها ستة أعوام مجاورا للعلماء والفقهاء ، عاكفاً على الصلاح والخير مع الانقباض والزهد . وبنى مسجدا بها عند النجارين منها ، يعرف بمسجد ابن هُمُشْك إلى الآن . ثم رحل منها إلى سبتة عام ستة وثلاثين . وعاد إلى ما كان عليه من الولايات والجاه إلى أن ولي الوزير أبو علي بن خلاص سبتة وثار بها عام واحد وأربعين وستمائة . فأبقاه على ما كان عليه ثقة به ، وركونا إلى ما صح عنده من أمانته ودينه . ثم خرج من سبتة عام سبعة وأربعين ، وقد جف ماء عمره المعين ، بعد موت أبي علي بن خلاص وخروجه منها بعام . فأقام بحضرة

(١) ت : «النبيه» .

(٢) قال ابن الخطيب في الإحاطة (١ : ٣٠٥) ، وقالوا : هامشك : معناه : ترى المقطوع الأذن ؛ و «ها» منهم قريب مما هي في اللغة العربية ، و «المشك» : المقطوع الأذنين .

(٣) هذه العبارة ساقطة من ت . (٤) ب : «بالمنارة» .

تونس ملازما الجامع ، محافظا على الصلوات وتلاوة القرآن ، مشتغلا بما يعنيه ، إلى أن تُوفي على تلك الحال في الثالث عشر لرمضان المعظم عام ستة وخمسين وستمائة .

وشهد جنازته خلقٌ عظيم من الخاصة والعامة ، ولم يتخلف كبير أو أحد من الدولة ، وكبروا تحته تبركا به ، وأتبعوه ثناء جميلا .

وكان أهلا لذلك ، رحمه الله .

ونشأ أبو عبد الله المذكور أيضا بسبتة وتأدب بها و بالجزيرة الخضراء ، في حين سُكنى أبيه بها ، وقرأ بها القرآن . وكان حسن الصوت به ، مليح التلاوة ، من أهل الطلب والذكاء والفطنة والدهاء ، كثير المشاركة ، جميل المعاشرة ، جامعا لأنواع العلوم والآداب ، كريما جوادا بماله وجاهه ، لكل(١) من قصده ، ويكتب في حق الناس بجميع الأمور ، ويلقى بالاحتفاء والرحبة ، مُقدَّما عند الحكام ، وجيها ناهضا في الأمور ، واسع الحيلة ، جيد النظر عند الحوادث والملمات ، / فصيح اللسان ، صاحب حُجة . [35 A]

شعره في جارية اسمها نسيم

ومما أنشدني من قوله في جارية اسمها نسيم ، وكان يكْلَف بها ويهيم ، ويستضيء بنور محياها في الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتمم السمع والطرف ، بحيث تختلس اللب والألباب ، وتعيد إلى أخلاق الشيب الشباب : [طويل]

تبارك باري الخلق إذ صوّر الخلقا … وأتقنهم صُنعًا وأطلعهم أُفْقَا
وأودع في الأجفان سحرًا مُضاعفًا … يُعلِّمني التّهيامَ والوَجدَ والعِشْقا
وذكّرني من كنتُ أعهد أُنسه … مُقيمًا ولمّا بان أورثني شوقا
على جيدُ القطر وافى فهاجني … غراماً وتَهياما وزاد الحشى خَفَقَا
ولما رأيتُ الحُسن بالطاق طالعاً … لمحتُ ثناياها وقد لمعتْ برقَا
صبوتُ وقد يصبُو الحليمُ لمثلها … يَرِقُّ وكم صَبٌّ لغانيةٍ رقَّا

وكتب إلى الجانب العلي : [متقارب]

أيا مَلِكًا سعدُه مُقْبِلُ … خرجتَ وساعدك المحفِلُ
إلى الصيد أرسلتها أكلُبًا … تصيد الوُحوش ولا تَقتُلُ

(١) ب : «يصل» .

يُحلّق صقرك وَسْط السماء ... ويُردى الكَراكِيَ إذا يَنْزِل[1]

فهنّاك الله ذاك الخروج ... فللخلق خيراتُه تَشْمَل

فيابن الخليفة حُزتَ العُلا ... وقد رَضِى الله ما تفعل

وكتب لهم :

[طويل]

بعثتُ به حُلو السَّريرة والجهر ... كذِكرك يا مولاى فى محفل الفخر

أتى من رءوس النخل مُستطرف الجَنَى ... لغير زمانٍ حاجب ثَوب المُر

وواقَى على بُعد المَزار مُغرّبا ... مُناى بإلحاق له واحدَ العمر

ومنّه عندى القبولُ فأسعُدى ... به أقبلت لا زال فى أنفس[2] الذكر

بعثت به صقيل الأديم ، كأنما غُذِى[3] جسمه من تسنيم ، راض[4] قبله الصبح اللطيف[5] ، فجاء به أبيض سليماً من الزيغ والتحريف ، بُشراه من وجهكم [الكريم][6] نشره وحسب باعثه ذكركم بالشكر المعطر نشره .

وكتب لهم .

أبق الله نِعم مولانا ظلالا ، يَرِد بها الآملون عَذبا زُلالا ، بعث عبدهم إلى حضرتهم الناضرة من ذوابل الأقلام ، ما ثمر نُوّارا أنوار أوامرهم الكرام ، فيا عجبا لها تجلة تصغر مواهبهم الجسام ، فتلقيها بقرطاس كأنه السماء إذ فيه رزق الأنام ، وكأنها قطع بجرأتها الوصول إلى بدر التمام ، فى مثلهم رضى الله عنهم ومثلها يصلح[7] من نظم الكلام :

[بسيط]

انفجر الفجرُ أقلاماً وحق[7] لما ... لما رأى عجباً للبدر إذ كتبا

عُطارد كفُّه لكنّ مَطلعه ... سعدُ السُّعود به تُستمطر السُّحبا [35 B]

(١) ت : « تنزل » .
(٢) ت : « الدنيا » مكان « الذكر » .
(٣) ت : « مزج » .
(٤) ت : « وراض » .
(٥) ب : « والجبل » .
(٦) التكملة من ت .
(٧) ت : « يطل » .
(٨) ت : « له » مكان « لما » .

وكتب لهم :

[مجزوء الرجز]

مَدينة مسوّره ... تحار فيها السحرة

لم تجنها إلا يَد ... عذراء أو مخدّره[1]

بدت عروساً تجتلى ... من قَرْمك[2] مُزعفره

وما لها مَفاتح ... إلا البنان العشره

مدينة ميمونة الطائر ، غُنية الأزهار عن السحاب الماطر ، تجلّت جواريها داعية إلى الأنس ، فيا لها أوانس ليست من الإنس ، بل ما لها فى الحيوان جنس ، تزخرفت قُبتها من الأزهار بأصفر كالعقيان ، وأخضر كالزمرد وأحمر كالمرجان ، وأقامها عمود الصبح لكى لا يصحب شبها مذ كان ، طاعت بجلالك ، ودانت لبهائك وكمالك ، فخذها فألاً لما تجدد[3] من الولاية ، فى أيام مولانا المنصور الراية

وكتب إليه الحكيم أبو الحسن المروزى :

[كامل]

من شاء يبلغ فى المعالى رُتبة ... ترقى على الفلك المكوكب مِنّة

فحمد[4] بن محمد يأتى قاصداً ... ويقر عيناً بالذى قد أمّله

بالأمر الذى أنتم بلقائه ، وأسأل الله طول بقائه ، ووصلتنى تحيتكم فأحيت سرورى وأنسى ، وبسطت آمال نفسى ، هذا وإن كانت كمستدراك الكاتب ، وقدح الراكب ، كأنها خيل فى قوم ، أو خيال فى نوم ، فقد يرتاح بالنسيم العليل ، ويكثر من محب القليل ، وتصلكم تحفة الإدلال ، وجهد الإقلال ، ومجال العذر لديكم فى القبول فسيح ، ولسان الود كلسان العز فصيح : والله يُبقى[5] ودكم ، ويحفظ عهدكم[6] . والسلام . كتاب الموفق إليه

(١) هذا البيت ساقط من ت .
(٢) القرمك : الدقاق من كل شىء ، ولعله يريد به هنا : فتات الزعفران .
(٣) ت : « لما تقدم » . (٤) ت : « لحمد » . (٥) ت : « يرضى » .
(٦) ب : « ودكم » ، والظاهر أنها من أوهام الناسخ .

كتاب ابن بلال إليه

وكتب إليه أبو الحسن بن بلال، بعد ما أمره[١] بذلك من يعز عليه :

[مرج]

حُسام راق للعَيْنِ … زها منه بلونَيْنِ
يُشبَّه منه مَرآه … بلَيلٍ بين صُبحين
وإلّا فهو مَحفوف … بهَجْرين[٢] ووَصْلين
له من كُل ذى طَرف … سوادُ القلب والعَين

لازال فى خضراء غضٍّ نضيرها، ومشارع صاف[٣] نميرها، ولا رِيع بانقضاض الباشق[٤]، والنَّسول[٥] الطارق، وحُيِّيتَ أيها الفاضل المَودود من ناظم ناثر، جامع بين الزَّهر والأزاهر، ولا زلت تُحف ذوى الأخطار، بكل ما سَبح ومشى وطار، ناجح المسعى، خصيب المَرعى، ما هَدل حمام، وهَمل غمام، وعليك/ أفضل التحية والسلام.

[36 A] كتاب ابن أبى الحسن إليه

وكتب إليه من القاهرة الحاج أبو الحسن بن أبى الحسن لتُونس، حرسها الله تعالى :

[مرج]

[يا بن هُمُشْك][٦] أرى حَنينى … إليك طُولَ الزَّمان يَنمى
وذِكرك الدَّهـرَ فى لسانى … لأنه مُتْعِبٌ لهمّى
الا رَعى الله ما تقضَّى … كأنما كان عيشَ حُلم
ونحن فى غِبطة وأمن … وحادثُ البَين ليس يَرى
ثم انبرى[٧] بعد ذا بِتَرْع … لو يَمّم الهِند كان يُصْمى
إن تَنثُروا عِقدنا عساه … يَعود يوماً بحُسن نَظم
فيَغتدى الشملُ فى اجتماع … ويَعدل الدَّهرُ بعـد ظُلم

حرس الله ذلك الوفاء، ولا كَدّر ذلك الصفاء، فلم يُبد خَليلٌ بعد الفِراق، ما أبديت من التفقد والاشتياق، تمتد الأيام وذكرك مُبيد[٨] ومُعيد، وتَبلى الليالى وعَهدك كودّك جديد :

[طويل]

ولاشك أنَّ الأصل فى المجد ثابتٌ … غدا فرعُه بالفضل والود مُثمرا

(١) ت : « بعد أمره ».
(٢) ت : « بوصلين وهجرين ».
(٣) ب : « طاف ».
(٤) الباشق : طائر من الجوارح.
(٥) النسول : الذئب، السلالة والمرأة.
(٦) التكملة من ت.
(٧) ت : « وابتدى ».
(٨) ت : يبدى.

ولما وصل بكتابكم قريبُ الرئيس أبى عثمان صاحب مترفة تُلُقِّىَ بالراحتين، وحُمِلَت حوائجه على الرأس والعين، وكذلك ابن مهدى محمد تلقاه أخوكم بما اقتضاه تنبيهكم عليه، وعرّف وجه عنايته إليه :

[سريع]

وكُل من يُحْمَلُ [من][١] حاجرٍ … فليس يُلقى بخلاف القَبول

ولما وصل الحاج المذكور الى تونس كتب لابن هُمُشك :

لا أوحش الله من مَرآكم، ولا أخل من لفظكم ومعناكم، يصلكم من المُهاداة[٢] ما يَعلم أن الله كم متصل، والوُد غير منفصل :

[متقارب]

وغِبتم عن العين مُذ مُـــدة … فَـسُنوا افتقاداً[٣] بأن تحضُروا

يا أمى، فى الاجتماع بكم فوائد: فمتى خُفَّ بكم وصلتم، وإن حسبتم أنكم تتقلون فما أنصفتم :

[متقارب]

وما كنتُ أعدل عن ذاتكم[٤] … لو أنى ابتدأت دُخول البَلَدْ
وعُذرى بادٍ إلى أن أرى … مُحيّا السُعود وغِيلَ الأسد

ولله يُبقيكم على ما أُجبلتم عليه من السعى فى حوائج الإخوان، والثُّبوت على تقلب الأمراد[٥].

[36 B] كتاب العربى صاحب سبتة إليه

وكتب إليه الفقيه أبو القاسم العربى صاحب سبتة / ، الى تونس، حرسها الله تعالى :

[وافر]

إذا ما مال قلبُك نحوَ شخصٍ … فنحوَك قلبُــه أبداً يَميلُ
وإن تَشكُره يوماً وهـــو نـاءٍ … فشُكرك عنده وافٍ جَزيل

(١) التكملة من ت.
(٢) ت : « السادات ».
(٣) الافتقاد : الطلب عند الغيبة.
(٤) ت : « داركم » مكان ذاتكم.
(٥) الأمراد : بريد الليل والنهار. وفى ت : « تقلب الزمان ».

محصكم أيها الولى الكريم المبارك الأمون[1] تحية المسرور على الصفاء والوفاء، حيّاكم الله تعالى من البرة بأكملها، ومن المسرة بأتمها. تحية الله الطيبة الكريمة، ورحمته وبركاته العميمة، من محبكم ومحكم البر بكم، الحافظ لعهد ولائكم، المثنى على ودكم، محمد بن أحمد العربى. وبعد :

فكتب إليكم - كتب الله لكم عزة دائمة، ومبرة ملازمة - من سبتة - حرسها الله - ولا جديد إلا ماعود سبحانه من كريم صنعه، وجميل لطفه، فله سبحانه الحمد كثيرا على عوارفه[2]، والتكريم لولائكم، والاخلاص فى ودكم، والدعاء لتأكيد عهدكم، والشكر لسرو منعكم فى المواصلة، وكريم قصدكم. والله يصل ذلك ويدانه، ويقيه من غير الدهر وآفاته، ولا وصل الله عزتكم ومبرتكم، وحرس ولائكم الأصدق ومودتكم، وإنه وصل كتابكم الكريم تعززون فيه ودكم، الذى أبى له أن يتغير عن حال صفائه الكريم، وعهدكم الذى لم يتغير عن معالمه القديم، وتكون الثناء الذى يثنيه وفى مثلكم زكت منه الشمائل والشيم، فوقفت عليه وقوف مغتبط بمودتكم على بعد الدار، حافظاً لأذمتكم المرعية[3] على الدوام والاستمرار، شاكراً ما عندكم، مظهرا الغيب من المقاصد الفاضلة التى لا تنكر على أمثالكم من الأفاضل الأحرار، مقيما على ما يرضيكم لأيام القرب والجوار.

كتاب ابن حكم إليه

وكتب إليه الرئيس أبو عثمان بن حكم صاحب منرقة، من رسالة :

ووصل الكتاب المفيد، المجاد الجيد، المسمى بالطالع السعيد، فى محاسن [أعلام][4] الكرام بنى سعيد، فأسديتم لعمرو الله يداً، وأهديتم ما مثله يهدى وبه يهتدى، ولم يزل من يده وقفت عليه حتى قلت :

[سريع]

إنّ كتاب الطالع السّعيد   فى وصف أعلام بنى سعيد
أحسن من ورد يد تضيد   ومن حلّ فوق طلاّ الجيد
جاب لنا من أفق بعيد   أمواج بحر وفجاج بيد
فنحن منذ عادنا فى عيد   ما لا يرى عليه من مزيد[5]

(1) ت : « الميمون ».
(2) ب : « بجانبكم ».
(3) الزة : المحكمة.
(4) الكلمة من ت.
(5) هذا البيت ساقط فى ب.

وكتب إليه الفقيه أبو عبد الله التيجانى :

[سريع]

أبلغ سلامى يا أبا القاسم   لأنى خشيت أوحد العالم
أفضل أكرم به من فتى   تلقاه سالك سالم[1]
وفى الرشاجات وإعدادها   ما شئت من سعد به قائم
من بعد الحسبان قد أهديت   العربى الفاضل العالم
فأقدم الرسل عليه بها   حتا بلغت تحفة القادم
والكتب تأتيه جوابتها   خطوطها تجرى على الراقم

وكتب إليه أبو القاسم بن يحيى، حاجب[2] صاحب مالقة :

[كامل]

حيّا أبا عبد الإله كما قضى   حكم الوداد على ذوى الألباب
تهدى امرئ أصفى إليك ضميره   بالغيب فصل خلاصة الأحباب

مكاتبة الأولياء - أدام الله علاكم - فى حال النأى والقرب تشد أمراس الإخاء، وتديم عقد الوفاء، وتؤكد أسباب المقة والحب، لا سيما عند من يتحقق أن المرء بأخيه كثير، وأن الحظ إلى الاستكثار من الإخوان فقير[3]. ولما كانت - أعزكم الله - أخباركم تروى، وآثاركم تهدى إلى، أزكى من الزهر، وأرق من السحر، واقترنت بها وصول خطابكم الكريم، الواقع منى مورده العذب موقع النسيم، اهتززت إلى لقياكم اهتزاز الغصن المروح، وارتحت إلى معانيه ما عرفتم به ارتياح الغريب إلى وطنه بعد النزوح، فإنى مع بلك إخائكم الكريم، فأبلته - وإن كنت لم أزل أقابله - بما يجب من الشكر الجسيم، والثناء العاطر الوسيم.

رده إلى قابس

وكتب من حضرة تونس إلى قابس، وشاركه فى ذلك الفقير الكاتب أبو عبد الله التيجانى :

[طويل]

وأورق[4] منسوب لغاية قابس   بقلبى من ذكراه جذوة قابس
يغنّى فوق الباسقات هديله   فيرقص أعطاف الغصون الموائس

(1) كذا فى الأصول.
(2) هذه الكلمة ساقطة فى ب.
(3) ت : « فقير ».
(4) الأورق : الطير الحائط سواده بياض.

فكم صَفَّقت أجناحُه وهو طائر ... كتصفيق دارِ الفَلاحين دارس
يُريك من المَرجان حُمْر أنامل ... ومن رائق الفَيْروز زُرق مَلابس
ويَنظُر عن ياقوتتَيْن تَودّ لو ... حوتْهنّ أجيادُ الحِسان الأوانس
إلى مِثله تَصبو النُّفوس[1] مَحبّةً ... ففيه غِنًى عن مُطـرب ومُجالس
عسى[2] ابنُ هَمُشْكَ أن يرى ما نرى به ... فليس وإن شَـطّ المَزار بآيس
ولم لا ولى عنـد ابن مكّىّ الرِّضا ... ذَخيرة دار رسمُـها غير دارس
إسيُهدى[3] مع المَلّاح زوجين منه أو ... سيبعث[4] لى زوجين مُحْبة فارس
فكم من كريمٍ أقبلت منـه تُحفة ... على نأى دارٍ وأتصال بَنابس

[B 37]

فوجّه أبا مروان لى مُتفضلا ... به فلقد[5] عُوِّدتَ بَذل النفائس
يُسـلّ هُوى حسنُه[6] وغناؤه ... فيُصبح من بعد الحبيب مُؤانسى
عليكم سلامٌ مِن مُحبكمُ الذى ... يُجلّ بعلياكم صُـدورَ المجالس

كتاب ابن ياسين إليه

وكتب إليه الشيخ أبو على الحسن بن ياسين من ظاهر سبتة :

وصل كتاب الشيخ أبى عبد الله بن هَمُشْك ، وصل الله وداده ، ويسّر فى كُل صالحة مُراده ، وعُلم مقتضاه من حفظ العهود ، والجرى فى حلبة الوفاء على السَّنَن المحمود ، فشكر الله ما أولاه ، وأحسن جزاءه وتولّاه ، وبادر بتيقظه النبيه ، إلى التعريف بما وصل من اللطائف والتّنبيه ، وأى لطائف مُعجبة ، ومحاسن مُعربة ، مثل ما أهديتم إلىّ من أديكم ، وأوليتم من حدكم المعلوم من مذهبكم ، فلقـد أوردتم من الأدب عذبا مَعينا ، وأوجدتم من مستطرف الأنس على الوحشة مُعينا ، فكتابكم نُعب الطرف فلا برح ودكم بمثله مُتحفا ، والدهر ببقاء جنابكم مُسعفا :

[سريع]

يا قمـرَ الأفق ونُور الصباح ... ومورد العَـذب الزُّلال القَراح
فضضتُ عن كُتبكم ختمه ... كما يُفَض الختم عن صِرف راح

(١) ت : « يصبو الحليم » . (٢) ت : « يمى » . (٣) ت : « ساهدى » .
(٤) ت : « ليبث » . (٥) ت : « بها فقد » . (٦) ت : « وإعتناؤه » مكان « وغناؤه » .

وقتُ لما راقنى حُسنُه ... مقال مَعنًى بَهْم المِلاح
كأنما يَبسم عن لؤلؤ ... مُنضَّـد أو بَرَد أو أقاح

وقد انتهى الثناء على حكم الاختصار ، مع أن الإطالة فيه أولى من الاقتصار ، ومدار المودة على المعتقد ، وقد حصلت منها على الإبريز المنتقد ، والله يُديمها فى ذاته ، ويحفظ على كلكم حسن أدواته :

ما كتب به إليه أبو الحسن أيضا

وكتب إليه الحاج أبو الحسن على بن أبى الحسين ، المتقدم الذكر :

[بسيط]

الحمد لله قد[1] عُوفيت من سَقَم ... ولُحت كالبدر موجوداً من العَدَم
وبشّر الله إخواناً تُحبهم ... وهُم بحُبك ما حالُوا على القِدَم
يدعون منك أخاً برًّا بأجمعهم ... ما زال مُهتبلا[3] يُعنى بأمرهم
سُررتُ لما وعى سمعى بأنك قد ... أصبحتَ[4] تركب أو تمشى على قدم
وقتُ والشوقُ يَطويني وينشُرنى ... وقد ترنّمتُ مِن لَحنٍ[5] ومن نَغَم
يا مَنزل ابنِ هَمُشْكَ لا خلوت من الـ ... ـقراح والجاه والرّاحات والنِّعَم

[38 A]

والرواقص والقَينات مُقتعـد ... فى ساحة لك لا تخلو[6] عن الخَدَم
هولاك مازال مغرى بالمِلاح و بالـ ... ـحسان والراح والريحان والكرم

(١) ت : « الشدة » . (٢) ت : « إذ » .
(٣) مرتل : مشغول . (٤) ت : « أصبحت » .
(٥) ت : « فى بحر » . (٦) ت : « القدم » مكان « الخدم » .

١٦ – الفقيه أبو الحسن بن الفضل

ت ، ب ، ه

أصله من أوريولة⁽¹⁾ ، ولزم سُكنى إشبيلية ، فصار معدودا فى أعيانها⁽²⁾ ، واستقل بالفكر يخلد فيها لو أن آمرأ يخلد ، وكان له فى أثناء تلك المهلة من أنواع النعم ما لا يُعَدّ ولا يحد ، وحسبك أنه لم يكد يوماً يخلو من وجه جميل ، وكأس وخليل ، وألحان تُطرب الثكلى ، ومحاضرات أشهى من بلوغ الآمال وأحلى ، ما بين قصور طريانة⁽3⁾ وشنتبوس⁽4⁾ ، والهانى السلطانية والعُروش ، وكلما صعد المد ارتفع معه إلى فم الخليج الباسم ، عن أزهاره ، فإذا نزل الجزر انحدر معه إلى حصن الفرج القائم خطيباً للذات ما بين رياضه وأشجاره .

من شعره إلى أبى عمران

وله الموشحات السائرة فى أقطار المشرق والمغرب . وأما شعره فوجدتُ بخط والدى أنه كتب لى مرة ، وأنا بديوان الروم بإشبيلية ، من موضعه المعلوم بالزكاة :

[مديد]

يا أبا عِمرانَ كُن لى مُخلصاً … واتخذنى من كِبار الناصحين
قد حَبانا⁽5⁾ الله من إحسانه … ما أرَانا منه غيظَ الحاسدين
قُسِّمت من بيننا حِصَصٌ فلا … تَدعِ اللذاتِ فيها أجمعين
لكَ عُشر الرُّوم فيها وأنا … أبدا حظى زكاةُ المسلمين

قال : وكَتب لى مرّةً أخرى من موضعه المعلوم بالمواريث إلى دار المُخُص :

[خفيف]

يا خليلى وأنت نِعم خليلٌ … عَدِّ عنّى يَدين بالتُّرُهاتِ
وآغتنم فُرصةَ الزمان وحظّا … قد أتى لم أخله فى الدُّهَيْرِيات
قُسِّمت حِصَصٌ بيننا بآعتدالٍ … فكذا فَلْتَكن من اللذّات
أنت تَجبى أحياءها دائمَ الدهـ … ـر وعندى جبايةُ الأموات

بينه وبين أبى عمران فى شأن ابن جامع

وسمعته يقول لوالدى ، وأنا حاضر : ما رأيت أكرم من الوزير أبى سعيد بن جامع ، ولا أحسن سياسة ، وكأن الله خلقه لغير الوزارة : لما طلعتُ إلى حضرة مراكش سلمت عليه ، وترددت إليه ، وعرضت عليه يوماً قصيدة / رغبت فى رفعها للمنصر ، [38 B]

---

(1) أوريولة (Orihuela) : حصن بالأندلس ، من كورة تدمير .
(2) هذه العبارة « من أنواع النعم » ساقطة من ت . (3) طريانة (Triana) : من كورة إشبيلية .
(4) شنبوس : Santiponce . (5) ت : « حباك » .

نعم وقال لى : آجتمع فى شأنها مع الكاتب . فاجتمعتُ به . فأعلمنى أنهم أمروا ألا يَرفع إليهم شيئا⁽¹⁾ من هذا النوع . فصنعت هذه الأبيات وعرضتها على الوزير :

[خفيف]

يا إماماً له من الله حُكمٌ … عادلٌ فى تصرُّف الأحكام
كيف يأبى المديحَ مَن بعُلاه … ومَعاليه مِدحةُ الأيام
هَبك خُيِّبت حظَّ مَطْلَبك منه … أين حظُّ الوفود أهلِ النِّظام

فقال : هذا أحسن من طريق الأدب الذى قرأناه فى الكتب ، ولكن قواعد زماننا لا تحتمل مثله ، بل التقرّب⁽2⁾ منه يُبعد ، فما المطلب الذى جعلته إليه وسيلة ؟ قلت : شغل الزكاة والمواريث بإشبيلية ، من غير أن يكون لمحافظ بها علىّ أمر ولا نهى . فقال : يُنظر فى ذلك . ثم لم تمر إلا أيام قلائل وكتب لى بذلك ، وزُوِّدت وانفصلت أحسن انفصال .

شعره فى مدح أبى العباس

ووقفت له على قصيدة يمدح بها أبا العبّاس حين بايع لنفسه بإشبيلية ، مطلعُها :

[خفيف]

خدمتْكَ السيوفُ والأقلامُ … ورعتْك الشهور والأعوامُ

وكان مُعجبا بهذه البداءة . ويقال : إن الممدوح انتقدها لسوء التأويل⁽3⁾ فيما افتتح به مدحاً وعجزا .

شعره فى مدح ابن هود

وامتدح محمد بن هود فى أول دولته بقصيدة منها : [مخلع البسيط]

أحييتَ فى الناس يابن هُودٍ … مُلكَ بنى هُـــودِ الكِرامِ
ولم يزل أمرُنا قديمًا … فى آل لخم أو فى جُذامِ

يُشير إلى بنى عبّاد ، أعظم ملوك الأندلس ، وهم من لخم ؛ وهود من جُذام .

وسار إليه حين كان بغرناطة فأقام بها مدة ، فقال — وهو مما لا يخفى مكانُه من الإحسان — :

[متقارب]

سئمتُ المُقامَ بغَرناطة … والسِّن حالٍ بنا تَنطِقُ
وما أنكرتْ مُقلتى شخصَها … ولكنّها غيرَها تَعشق

---

(1) ت : « ألا يرفع إليهم شىء » (2) ت : « التقرب » . (3) هذه الكلمة ساقطة من ب .

وفاته

ثم كانت وفاته سنة سبع وعشرين وستمائة .

شعره في مجاوبة أبي بحر

ومن محاسن شعره في مجاوبة أبي البحر صفوان، صاحب كتاب «زاد المسافر»[1] وكان والدي لا يرى فوقه غاية في مقصده :

[سريع]

أنكرتُ أن راع الزمانُ أدبي ... وهل رأيتَ ذا نُهى مُؤمِّنا

وفيك لم تَقضِ الفُروض حقَّها ... أفي تَرجو أن تُقيم السُّنَنا

[39 A] من نثره إلى أبي عمران

/ وأما ترسيله فمما يدل على طبقته قوله في رسالة خاطب بها والدي في إحدى سفراته إلى مراكش :

وأما ما نشأ من عجائب هذه السفرة التي أطربت نوادرها ، وأضحكت مواردها ومصادرها ؛ حكاية شيخنا القلطي مع خديمه المراهق ، الأسمر الفائق ؛ ذي الطَّرْف الكحيل ، والخد الجميل ، والرِّدف الثقيل ، والخصر الضئيل :

[بسيط]

ذاك الذي بِتُّ من وَجْدٍ به وقَدتْ ... فيـه أحاديثُ جُلّاسي وسُمّاري

نَشوان من خمرة الدَّل التي شَغلت ... مَن ظَلّ يعشقُه عن كُل خَمّار

يا لها أعجوبة طريفة ، أطرف من فقه أبي حنيفة :

[مجتث]

أعجوبةٌ ما سمعنا ... بأختها في أوانِ

قد صار شيخُك منها ... أُضحوكةً في الزَّمان

وذلك أنا لما خرجنا من عين القدح قاصدين قصر كُتامة ، ظهر من هذا الشيخ في هذا الأسمر ما لم يظهر من الذي تمنّى أن يكون هامَه[2] ؛ وصار يغار عليه من الألحاظ، ولا يبرح متى كلم أو نظر يغتاظ ؛ إلى أن وصلنا إلى وادي المخازن ، والسيلُ قد ضاقت بطلائعه صَدره ، وهو أبداً يزيد مدّه ولا يُلم به جَزْره ، ولم يَسَع الوقت جوازُ الشيخ والغلام ، بل بادر بتجويزه وقد أقبلت كتائب الظلام . فلما أن دخل الشيخ في ذلك العباب ، بعد

---

(١) هو « زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر » لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي . وقد طبع بيروت (١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م) .

(٢) الهامة : طائر يخرج من رأس الميت إذا قتل .

التجاوالتي من خوض ذلك العُباب[1] ، منع الوادي نفسه بمزاحمة[2] المياه ، وبقي الشيخ في أعظم مصاب ؛ وكنت يا أخي فيمن ظفر بالمجاز[3] ، وحصلت له الحقيقة بعد المجاز :

[وافر]

فبات الشيخُ في همٍّ وغمٍّ ... ضجيعَ الفكر والحُزْن الطويل

وبتُّ ضجيعَ أسمره أنادي ... بحيَّ على التواصل والوُصول

فلا تسأل — فديتُك — عن مبيتي ... هناك وسَل بحالك عن مَقيلي

ثم إنه لما وضح النهار ، وأصبح الشيخ كالموله لفقد الجوار ؛ اكترى الشيخ من سبح به إلينا ، وأرسل الله منه نقمة علينا . وجملة الأمر أنا ظفرنا بليلة برّب هواه ، وصفعنا نهاره جميع قفاه .

---

(١) ت : « العباب » .

(٢) ت : « من مزاحمة » .

(٣) ب : « وكتب يا أخي من ظفر بالمجازي » .

١٧ - أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن صاحب الرد(*)

نبذ من خبره [39 B]

بيته بإشبيلية من أجلّ البيوت ، ولم يزل له مع تقلّب الزمان ظهور وخفوت ، إلى أن كانت دولةُ ابن هود فكان ابن صاحب الرد هذا من أشعل فتنها ، وشغّب(1) إحَنها . ولاه في أول أمره معقل رُنده(2) ، فخدع عقله بأن جعل حكم السيف في يده ، وإنما استدرجه بذلك للخروج عن بلده . وحضرت مع والدي على رُندة وأمرها إليه ، فعُجنا الركب عليه ، وأقمنا في ضيافته مدة ، واستفدت من محاضراته وكتبه فوائد عدة ، وكان الرجل أديبا شاعرا ، ذوّاقا لأطراف العلوم ، يغلب عليه الذكاء حتى يُميله إلى التهور والحدة المفرطة . ثم وصل إلى إشبيلية فجعل يطعن على وُلاة ابن هود ، إلى أن أمكنته الوثبة فأخرج أخاه سالم ابن هود منها ، وجمع أشياخها . ولم يشكّ أحد أنه يطلب الأمر لنفسه . فقدّم ابن عمه أبا مروان أحمد بن محمد الباجي وخرج يذُبّ عنه بمن اجتمع له من الجند ، وانتقل من الكتابة والقلم ، إلى السيف والعلم ، وأخذ بقول الشاعر في ترك الدفاتر ، للزمان(3) الغادر . فحمل في العرب حملة لم يكن عنها رُجوع ، وبات لديهم بليلة نابغية لم يدر فيها طعم الهجوع . ثم أرادوا التقرب به لابن الأحمر المستحوذ حينئذ على قُرطبة وحطّوه في يديه ، فأقام عندهم أشهرا ثم أطلقه على أن يسعى له في شأن إشبيلية . فلما حصل بها مع ابن عمه الباجي لَمَّا(4) عن ذلك . ثم احتاجوا إلى الاستنصار بابن الأحمر على ابن هود فنصرهم ، وقد نوى الفتك بهم . فلما فرغوا من هزيمة ابن هود على حصن الفرج ، واتفقوا على الخروج والمساعدة على أخذ شريش وغيرها مما هو في طاعة ابن هود ، وثب عليهم بظاهر إشبيلية في الأخبية ، ثم ضرب أعناقهم وملّك بلدهم ؛ وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

من شعره

ومن شعر أبي بكر فيما كان يرومه فيخوّفه منه الناظرون في العواقب ، قولُه من قصيدة :

[رمل]

مُرَّ مَرَّ السَّيلِ لا ترجِعْ إذا … خوّف الناهي وقد طاب الحِمامْ
واعلمنْ أنّ المنايا قُدِّرت … في مِهاد الأمن أو حدّ الحُسامْ

(*) نفح الطيب (٤ : ٢٩٢) .
(1) ت : « وشغب » .
(2) رنده .
(3) ت : « الفاتر » .
(4) لما : أي صرف واشتغل .

شعره في غلام

ومن لطائف الشعر في غلام كان أدباء إشبيلية قد فُتنوا به ، وكان مروره على دار أبي بكر الأستاذ الذي يقرأ عليه القرآن(1) ، فكان ربما اعترضه ومازحه :

[سريع]

يا بدعَ الخَلْق بلا مِرْيةٍ … وجهك فيه فتنةُ الناظرين [40 A]
وربما إذ نلتقي خطرةً … فيغلب الوردُ على الياسمين
طُوبى لمن قد زُرته خاليًا … فمتّع النفسَ ولو بعد حين
من ذلك الثغرِ الذي وِرْدُه … ما زال فيه لذةُ الشاربين
وما حَوى ذاك الإزار الذي … لم يَبْعُد عنه أملُ الزائرين

وله معه النادرة الشائعة بإشبيلية : حُكي - والله أعلم بالحقائق - أنه أعطاه في زيارة ربع دينار ، ومرت أيام فصادفه عند داره فقال : هل تُريد أن أزورك ثانية ؟ فقال له أبو بكر في الحين : لا يُلدغ المُؤمن من جُحرٍ مرّتين .

(1) هذه الكلمة ساقطة من ت .

١٧ - أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن صاحب الرد(*)

شيء عنه [39 B]

بيته بإشبيلية من أجل البيوت ، ولم يزل له مع تقلُّب الزمان ظهور وخفوت، إلى أن كانت دولةُ ابن هود فكان ابن صاحب الرد هذا من أشمل فتنها . وشغب(1) أخنها، ولاه في أول أمره معقل رُنده(2) . فخدع عقله بأن جعل حكم السيف في يده ، وإنما استدرجه بذلك للخروج عن بلده . وحضرت مع والدى على رُندة وأمرها إليه ، فُعجنا الركاب عليه، وأقمنا في ضيافته مدة ، واستفدت من محاضراته وكتبه فوائد عدة ؛ وكان الرجل أديبا شاعرا ، ذواقا لأطراف العلوم ، يغلب عليه الذكاء حتى يُميله إلى التهور والحدة المفرطة. ثم وصل إلى إشبيلية فجعل يطعن على وُلاة ابن هود ، إلى أن أمكنته الوثبة فأخرج أخاه سالم ابن هود منها ، وجمع أشياخها . ولم يشكّ أحد أنه يطلب الأمر لنفسه . فقدّم ابن عمه أبا مروان أحمد بن محمد الباجي وخرج يذُب عنه بمن اجتمع له من الجند ، وانتقل من الكتابة والقلم ، إلى السيف والعلم ، وأخذ بقول الشاعر في ترك الدفاتر، للزمان(3) الغادر.

فحمل في العرب حملة لم يكن عنها رُجوع ، وبات لديهم بليلة نابغيّة لم يدر فيها طعم المجوع . ثم أرادوا التقرّب به لابن الأحمر المستحوذ حينئذ على قُرطبة وحظوه في يديه. فأقام عندهم أشهرا ثم أطلقه على أن يسعى له في شأن إشبيلية . فلما حصل بها مع ابن عمه الباجي لَهَا(4) عن ذلك . ثم احتاجوا إلى الاستنصار بابن الأحمر على ابن هود فنصرهم، وقد نوى الفتك بهم . فلما فرغوا من هزيمة ابن هود على حصن الفرج ، واتفقوا على الخروج والمساعدة على أخذ شريش وغيرها مما هو في طاعة ابن هود ، وثب عليهم بظاهر إشبيلية في الأخبية ، ثم ضرب أعناقهم وملك بلدهم ؛ وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

من شعره

ومن شعر أبي بكر فيما كان يرومه فيخوّفه منه الناظرون في العواقب ، قوله من قصيدة :

[رمل]

مُرّ مَرّ السيل لا ترجع إذا … خوّف الناهي وقد طاب الحِمام

واعلمنْ أنّ المنايا قُدّرت … في مِهاد الأمن أو حدّ الحُسام

(*) نفح الطيب (٤ : ٢٩٢) .

(1) ت : « وشغب » .

(2) رنده .

(3) ت : « الفاتر » .

(4) لَهَا ، أي صرف واشتغل .

شعره في غلام

ومن لطائف الشعر في غلام كان أدباء إشبيلية قد فُتنوا به ، وكان مروره على دار أبي بكر الأستاذ الذي يقرأ عليه القرآن(1) ، فكان ربما اعترضه ومازحه :

[سريع]

بالبدعِ الخَلْقِ بلا مِرْيةٍ … وجهك فيه فتنةُ الناظرين [40 A]

لاسيما إذ تلتقي خطرةً … فيغلب الوردُ على الياسمين

يكون لمن قد زُرته خاليًا … متّعَ النفسَ ولو بعد حين

من ذلك الثغر الذي وِرْدُه … ما زال فيه لذةُ الشاربين

وما حوى ذاك الإزار الذي … لم يبعُد عنه أملُ الزائرين

وله معه النادرة الشائعة بإشبيلية : حُكي – والله أعلم بالحقائق – أنه أعطاه في زيارة دينارا ، ومرت أيام فصادفه عند داره فقال : هل تُريد أن أزورك ثانية ؟ فقال له أبو بكر في الحين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

---

(1) هذه الكلمة ساقطة من ت .

١٨ - أبو جعفر أحمد بن طلحة (*)

نفح، ٥

من بيت مشهور بجزيرة شُقر من عمل بلنسية. كتب عن وُلاة من بنى عبد المؤمن، ثم آستكتبه آبن هود(١) حين تغلّب على الأندلس. وربما آستوزره فى بعض الأحيان. وهو ممن كان والدى يُكثر مجالسته، وبينهما مُزاورة كثيرة، ولم أستفد منه إلا ما كنتُ أحفظه من مُجالسته.

بينه وبين ابن سعيد

وكان شديد التهور كثير الطيش، ذاهبًا بنفسه كل مذهب. سمعتُه مرة يقول، وهو فى محفل: تُقيمون القيامة بحَبيب، والبُحترى، والمتنبى! وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه! فانبرى له شخص له حِدّة وإقدام، وقال: يا أبا جعفر، فأرِنا برهان ذلك، وما أظنك إلّا تعنى نفسك. قال: ما أعنى إلا نفسى! ولِمَ لا، وأنا الذى أقول ما لم يَهتد إليه متقدّم ولا يَهتدى لمثله متأخر:

[سريع]

يا هل ترى أظرفَ من يومنا ... قلّد جيدَ الأفق طوقَ العقيقْ
وأنطق(٢) الوُرْقَ بعيدانها ... من فضة كُلَّ قضيب وَريقْ
والشمس لا تَشرب خمر النّدى ... فى الرّوض إلا بكؤوس الشّقيقْ

فلم يُنصفوه فى الاستحسان، وردّوه فى الغيظ إلى أشدّ مما كان. فقلت له: ياسيدى، هذا والله السحر الحلال! وما سمعت من شعراء عصرنا مثله، فبالله إلا مازدتنى من هذا النمط. فقال: لله درّ أبيك من مُنصف آبن مُنصف! آسمع وافتح أذنيك، ثم أنشدنى قوله:

[وافر]

أدِرْها فالسماءُ بدتْ عَرُوسًا ... مُضمّخة الملابس بالغَوالى
[40 B] / وَخدُّ الروض خَفّره أصيلٌ ... وجفنُ(٣) النّهر كُحّل بالظِّلال
وجيد الغُصن يُشْرِف فى لآلٍ ... تُضىء بين أكفاف الليالى

(*) نفح الطيب (٤ : ٢٨٤، ٥: ٢٨٤، ٣٥) المقتضب من تحفة القادم (ص ١٠٧) المغرب (٢: ٣٦١) الاحاطة (١ : ٢٤٤ — ٢٤٥).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود. مات مقتولا سنة ٦٣٥ هـ.

(٢) ت : «وانطق». (٣) الجفن، بالفتح والكسر: الكشح. يريد الشاطئ.

قلت: بالله أعد وزد. فأعاد والارتياح قد ملأ عِطفه، والتيه قد رفع أنفه، ثم زاد قوله:

[سريع]

لله نهرٌ عند ما زرتُه ... عاين طَرْفى منه سِحراً حلالْ
إذ أصبح الطّلُّ به ليلةً ... وجال فيها(١) الغُصن شِبهَ الخيالْ

قلت: ما على هذا مَزيد فى الإحسان، فعسى أن يكون المَزيد فى الإنشاد. فزاد ارتياحه وأنشد:

[وافر]

ولما ماج بحرُ الليل بينى ... وبينكمُ وقد جدّدتُ ذِكْرا
أراد لقاءكم إنسانُ عَينى ... فمدّ له المَنامُ عليه جسرا

قلت له: إيه! زادك الله إحسانا! فزاد:

[وافر]

ولما أن رأى إنسانُ عينى ... بصحن الخدّ منه غريقَ ماءِ
أقام له العذار عليه جِسرا ... كما مدّ الظلامُ على الضياء

قلت: كل ما يكرّر ويطول فإنه مملول، إلا ما أوردته آنفا فإنه كنسيم الحياة ما إن يُمل، فبالله إلّا تفضلت بالإعادة والزيادة. فأعاد ثم قال: وهذا حسبك لئلا تكثر المعانى عليك فلا تقوم بحق فهمها وإنصافها. ثم أنشد إذ ذاك:

[كامل]

هاتِ المُدام إذا رأيتَ شبيهها ... فى الأفْق يا فرداً بغير شَبيهِ
فالصبح قد ذبح الظلامَ بنَصله ... فغدت تُخاصمه الحمائمُ فيه

قلت: ملأ الله سمعك بكل بُشرى، فما زالت المحاسن على مَن قبلك تترى.

له فى خلع لابن هود

وكان قد تهتك فى خلع لابن هود. ولكثرة هزائم ابن هود ربما آنهزم ابن طلحة مع الخلع فبناها على ما ذكره:

[مخلع البسيط]

يا ملكاً لى بأن أراه ... يَنهزمُ الدهرَ للأعادى
منّى له ألف ألف سرٍّ ... لا يخرج الدهرَ من فؤادى

(١) ت : «فيها».

كم بتُّ في تَفرة وَظَبي   عليه ما مال من[1] يُعادي
فقلتُ والقلبُ من حبيبٍ   ومن عدوٍّ لدى جِهاد
ما لم يزل لى بك انهزام   تَ فلا أبدوا مرادى

[41 A] ومن محاسن شعره

/ ومن محاسنه في هذا المعنى قوله :

[وافر]

ألفتُ الحرب حتى علّمتنى   مُقارَعة الحوادث والخُطوبِ
ولم أكُ عالماً وأبيك حرباً   بغير لَواحِظ الرَّشا الرَّبيب
فها أنا بين تلك وبين هذى   مُصابٌ من عدوٍّ أو حبيب

فراره يوما كان مع طالم سنة

ثم إنه لما حضر ابنَ هود وقعة حصن الفرج تأنهزم ، فرّ بالعلج المذكور ، واختفى في بعض قُرى الشرف ، ثم نزع إلى إشبيلية وأحسن لقاءه ، وحباه صاحبه أبو بكر بن صاحب الرد ، واعتكف مع العلج المذكور في وادى إشبيلية مصعداً ومنحدراً ، ومتنزهاً ومشتهراً ؛ إلى أن جرت كائنة قتل ابن صاحب الرد ، ثم رجوع إشبيلية لابن هود ، فهرب بالعلج إلى سبتة ، فأحسن له القائم بها أبو العباس الينشتى[2] ، فلم يقنع بذلك الإحسان وكان يستريح بما يوغر صدره . قال الينشتى يوما في مجلسه : رميت يوما بسهم رمية ، فبلغ السهم إلى كذا وكذا — ذكر أمدا بعيدًا — فقال ابن طلحة إلى شخص بجانبه : والله لو كانت قوس قزح ! فشعر الينشتى إلى أنه قال مايشبه ذلك . فلما انفصل المجلس استدعى ذلك الشخص وعزم عليه أن يحكى له ما ساءه به . فأخبره . فأسرّها في نفسه . ثم بلغه أنه هجاه بقوله :

[وافر]

تَجمعا بالموثق فارتحلنا   وشاقِهُنا[3] له حَسَب وعِلْمُ
ورُمت يداً أُقبلها وأخرى   أعيش بفضلها أبداً وأَسمو
فأنشدنا لسانُ الحال عنه   يدٌ شلاّء وأمرٌ لا يَتِمّ

(1) ط : « يُعادى » .
(2) ب : « الينشتى » .
(3) ت : « وشقعنا » .

فزاد ذلك في حنقه وبقي يترصّد له الغوائل ، وكان له عليه أُذن ممن يشرب معه . فحفظ عنه أبياتا قالها في شهر رمضان ، وهو على حالة استهتار :

[وافر]

يقول أخو الفُضول وقد رآنا   على الإيمان يغلبنا المُجونُ
أتنتهكون شهر الصَّوم هلّا   حماه منكُمُ عقل ودين
فقلت أصحب سوانا نحن قومٌ   زنادقةٌ مذاهبُنا فُنون
ندين بكلِّ دين غير دين الرَّ   عاع فمابه أبداً نَدين
نحُثُّ على الصَّبوح[1] الدهرَ ندعو   وإبليسٌ يقول لنا امين
فيا شهر الصيام إليك عنّا   إليك ففيك أكفرُ ما نكون

فأرسل إليه مَن هجم عليه وهو على هذه الحال ، وأظهر إرضاء العامة بقتله / وذلك [41 B]
في سنة إحدى وثمانين وستمائة .

(1) ب : « الصباح » .

١٩ – أبو بكر بن البناء محمد بن أحمد الأشبيلي(*)

نشوؤه

كان أبوه أحمد بنّاء بإشبيلية فنشأت مع ولده همّة من صغره، بلغته ما شاء من وطره. فاعتكف على القراءة والنسخ مدة، وكتب عن ولاة عدة، ثم اختص بالكتابة عمن صار أمر إشبيلية إليه، وصار كل امرىء منهم لا يعتمد في أسراره ومشاوراته إلا عليه، فانتقل من خطة الأقلام، إلى الخوض في النقض والإبرام. وكان متشبثا بالعفاف والكفاف، وطلب العافية وتوطئة الأكناف، ثم أخرجت منه الليالي والأيام، صَرِماً(١) قنة وصاقعة لا تدفع ولا ترام. عهدى به رئيس بيت الكتّاب في دولة الباجي وابن صاحب الرد، وهو المشير الذى له في تلك المحن الإمضاء والرد. ثم امتدت به المهلة(٢) إلى أن صار أمر ابن الجد في يده، وبلغه ما ساءه(٣) من ذوى منافساته في بلده، وكان أحقد من دب ودرج، فظهر له في تلك الرياسة ما نقل عمله(٤) المستعمل الى المرج.

رأي أبي عمران فيه

وكان كثير الصحبة لوالدى والملازمة لمجالسته، وهو أحد من استفدت منه ومن كتبه ومن مجالسته ومذاكرته. فقال لى والدى يوما، وقد مررنا في مدة الباجي: ما رأيت أعجب من أمر هذا الرجل! هو في أحواله على ضد ما عند الناس، عُرف بالتّمبيس(٥) في الدّين وأهون ما عنده أن يسعى في سفك دم إنسان، تخاصم مع وكيل له في شبر من أرض.

وعُرف بالتواضع ولو عاشره عماره بن حمزة، والفضل بن يحيى، وعبد الله بن طيان، لتعجبوا من هيئته وإعجابه بنفسه وذهابه بها الى ما تحط دونه الرءوس.

وعرف بالكتابة والإمامة في طريقتها، ولو فُتشت رسائله لم توجد له نادرة ولا فصل مستطرف، وما كان إلا ناسخ رسائل الناس.

وعُرف بيُمن النّقيبة والوفاء لمن يستكتبه، وقد عددت خلقا ممن كتب عنه هلك بدعاوة(٦).

إلا أنه عند ما يدبر أمره أو يُعزل يتحيّل في الانفصال منه، فلا يُنسب له ما يحل به لا يظهر إسلامه له. وإلا فما رأيناه قط سافر مع والٍ عُزل عن إشبيلية، وترك بسبب الوفاء له وطنه.

(*) المغرب (١ : ٢٤٩)

(١) الصرم، بضمتين: مصدر «صرم»: التفل، والذى في الأصلين «صرم» بالصاد، والصرم القطعة والجماعة.

(٢) ب: «ثم امتدت به الحرب إلى». (٣) دوت: «ما شاء». (٤) ت: «وطنه».

(٥) التمبيس: التلبيس. (٦) دعاوة: داهية.

[42A] قال: والحقيقة في أمره أنه أشأم الناس على من كتب له وأسعدهم في خاصة نفسه، لم تجر قط عليه نكبة، مع ما قاسى من اختلاف الدول واشتعال الفتن. وآل به الأمر إلى خروج من إشبيلية حين استولى عليها النصارى في أول شهر رمضان سنة ست وأربعين وستمائة، ومات بسبتة في شهر شوال منها.

وكنت قد كتبت من نظمه ونثره كثيراً، ثم تفقدته بعين الانتقاد فنبذت الجميع، إذ لم أر فيه من غريب ولا بديع، ولم يتعلق بخاطرى من شعره في هذا الوقت إلا أبيات من قصيدة مدح بها الباجي وابن عمه، ووزيريه: أبا بكر بن صاحب الرد، وأخاه أبا عمران، وكان معجبا بإنشادها، ومُنعماً على السامع بإيرادها:

[سريع]

أنتم وُلاة الأمر رغماً على ... آناف(١) أعداءٍ وحُسّادِ

في منتضى المجد(٢) اشتركتم وفي ... بحبوحة الرأى لدى النّادى

ثلاثة مثل الأثافي على الرأ ... ى الذى يَعدو على العادى

هُزّوا بما أعطيتم قُبّة الـ ... نصر وهُزّوا قُبّة الوادى

وهذا النمط كما تراه، هو المختار مما كتبه سامعه ورواه.

غزل ابن سعيد ورأي أبي ... فيه

وسألته يوماً بمحضر والدى أن ينشدنى شيئاً من غزله، فاعتذر وخجل وفكّر ولم يأت بشئ. ثم انفصلنا فقال لى والدى: ما إخالك تعقل(٣)، هذه صورة ينطبع فيها عشق أو ارتياح أو شئ من أسباب الرقة، إنما أسأل منه أن ينشدك في فتنة أو سخط أو بلاء، فطبعه أميل الطباع إلى ذلك.

شعره في رثاء أبي حفص

وتراخت المدة بعد مفارقته إلى أن لقيت الكاتب أبا عبد الله بن الأبار البلنسى بحضرة تونس، فأنشدنى لابن البناء المذكور ما لم أر في شعره مثله، وهو قوله في رثاء السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وقد عُزل عن بلنسية وولى إشبيلية فمات بها:

[طويل]

كأنك من جنس الكواكب كنتَ لم ... تفارق طُلوعاً حالها وتواريا

نجمتَ من شرق تروم تلاليا ... فلما انتحيتَ الغربَ أصبحتَ هاويا

(١) ت: «أنوف».

(٢) الصغرى: الأصل. (٣) ت: «ما أخالك» مكان «ما إخالك تعقل».

٢٠- ابو القاسم أحمد بن محمد البلوى الأشبيلى(*)

شيوخه — كاتب شهير المكان فى الصناعة ، أديب غير مرضىّ(١) البضاعة ، ولم يرزقه الله كتابا ينتفع بها ولا عِلمًا يُثاب ، لحرمانٍ لزمه ملازمة / التطيُّر للغُراب . عهدى به فى إشبيلية حينا [42 b] القاه لا يأخذ إلا فى زَمانة(٢) الزمان ، وخيانة الإخوان ، حتى صرتُ أراوغ عن لقائه ، وأدعو الله الا يُعذِّبه بطول بقائه .

من شؤمه — كتب عن جماعات من سادات بنى عبد المُؤمن الوُلاة ، ثم صار مَشئوم الطلعة لشؤم اشتهر به مع جرى القدر بقلة رزقه وانقطاع سببه ، فلا يتعرّض لرئيس فيستكتبه ، ولا يأخذ فى صحبة نبيل فيَصحبه .

كتابه وقصيدة له — وصنف كتابا فى رسائل كتّاب عصره ، ترجم فيه خَبَره عن خُبْره . واشتهرت له بداءة قصيدة انتقاها أبو العلاء ، حين جلس للهناء ، بقُبة وادى إشبيلية ، وقد جاءت البشائر بقتل اليَاسى ، الذى أضرم الأندلس نارا ، وهى : (بسيط)

• ياهبّة السعد هُزّى قُبة الوادى •

لم ألق بإشبيلية من الأدباء والشعراء إلا مَن يَحفظها و يلهج بذكرها ، ثم لا يحفظون مابعدها .

من شعره — ومما أنشدنيه أبو القاسم لنفسه ، وهو فى بيته كأنه فى رَمسه : [وافر]

لمن أشكو مُصابى مِن(٣) البَرايا ... ولا ألقى سوى رجُلٍ مُصاب
أمور لو تدبّرها(٤) حكيمٌ ... لعاش مدى الزمان أخا اكتئاب
أمَا فى الدهر من أفضى إليه ... بأسرارى فيُؤنِسَ بالجواب
يلَمُّ من الأنام فما(٥) جَليسٌ ... سَرِى عنّى الهُموم(٦) سوى كتاب

وقوله : [متقارب]

لَبُعد حَبيب إذا ما حَصَلْ ... وقد قَنيتُ فى رِضاه العِلَلْ
وقُربُ عدوٍّ على بُغاة ... حَسُودٍ حقُود كثيرِ الجَبَل

(*) نفح الطيب : (٤ : ٣٠٠) .
(١) ت : « مرض » .
(٢) زمانة الزمان : أى آفته ، وما يصيب به .
(٣) ت : « فى » .
(٤) ت : « حليم » مكان « حكيم » .
(٥) ت : « فما جليس » .
(٦) ت : « وجز على تباى » .

وقَوّمَ صَديقى على غَفلة ... أوانَ(١) إليك مسعى وارتحل
فأحوجك الدهرُ يومًا له ... وقد نهضتْ بمُناه الدُوَل
أخفُّ على ناظرى طلعة ... من الشَّيب إذجاء قبل الأجل
وولّى الشبابُ ولم أقضِ من ... زيارته ورِضاه الأمل
فطوبى لمن مُتّعت نفسُه ... به ثم فى ذَيله قد رَفَل

وأنشدنى قصائد طويلة تَدُل على طُول نفسه ، وشدّة مرسه(٢) .

من رسائله — وكتبت من ترسيله هذه الفصولَ ، واختصارها عُنوان عما يطول :

فصل :
وما كتبتُ إليكم يا أخى المُشفق الحَدِب هذا الكتابَ ، إلا وأنا مولَّه العقل مما حلّ بى من اعتداء الزمان وخذلان الأصحاب ، وأشدّ من ذلك / اختلالُ أحوال ربّة الدار ، [43 A] وكونها جارت فى أفعالها وأقوالها وجرّت على غير الاختيار :

[بسيط]

عندى من الحُزن ما لو أن أيسره ... يُلْقَى على الفلك الدوّار لم يَدُرِ

وكيف بها العيش مع سوء الحال باطنا وظاهرا ، وواردا وصادرا ، أحيانى الله بالحِمام ، وحيّانى بحلول دار السلام .

فصل :
لأشتكى يا أخى إلا إليك ، وإن كنت أوردُ من ذلك ما يشُق عليك ؛ لكنى أعلم حُسن شركتك فى السرّاء والضرّاء ، ومحافظتك على شُروط الوداد والإخاء . أصبح أخوك بهذه البلدة أفرغ مما(٣) يجلب الرزق من حجّام ساباط(٤) ، وأشغلَ فيما يُثير الأفكار من ذات النحيين(٥) ولم يكن لها المسكينة بذلك الشغل اغتباط .

(١) ت : « وران » .
(٢) المرس : الممارسة وشدة العلاج .
(٣) ت : « عما » .
(٤) ساباط : بالمدائن . وكان فيها حجام يحجم الناس بنسيئة ، وإن لم يجئه أحد حجم أمه ، حتى قتلها ، فضرب المثل به .
(٥) النحى : الزق . وذات النحيين : امرأة من تيم الله ، وكانت تبيع السمن فى الجاهلية ، فساومها خوات بن جبير ، فحلّت نحيا مملوءا ، فقال : أمسكيه حتى أنظر غيره ، ثم حلّ آخر وقال لها : أمسكيه فلما شغل يديها ساورها حتى قضى ما أراد وهرب .

فصل :

ولو شاهدتَ ما نحن فيه من اشتعال الفتنة ، واشتغال أصناف الناس بأنواع المحنة ، لذُهلت عن تلفيق كلمتَيْن ، وحمدت الله فيما حَماك به عن هـذا الموطىء المَسخوط على من البَين ؛ سيف مجرّد ، وخَيْف[1] محدَّد ؛ وحقد لا يَقتصر على النفوس ، وغِلّ لا يُشتفى إلا بقَطف الرءوس .

وفاته

وكانت وفاة هذا المُمتحن بخاطره المولّه ، في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، بعد ما فرّق[2] من الوسواس عقلَه .

---

(١) الخيف : جمع خيفة ، بالفتح ، وهي السكين . وفي ت : « حيف » بالحاء المهملة .
(٢) ب : « ماق » . وماق : حمق والتاث .

٢١ - أبو الربيع الداني سليمان بن أحمد بن على بن أبى غالب[*]

نشأته

من بيت مشهور بدانية نبيل المراتب . كان أبوه أبو جعفر قاضيا بمالقة . وله شهرة باللغة والأدب والقصائد فى امـداح أرباب الدولة . ولم يزل ملحوظ المكانة ، موصوفا بالجلالة والصيانة ، إلى أن جرّت الأقدار إليه ، أن أودع الجزيرى المشهور بالإنكار والقيام حين أخذ فى يديه . فيقال إن امرأة القاضى أشفقت عليه فأطلقته . ويقال إنها ارتشت عليه بمال باعث فيه دم بَعلها ، وأوردته شر الموارد بذميم فعلها . رُفعت القضية للمنصور فخرج أمرُه بأن يُضرب ألف سوط ثم يُصلب . فكان ضربه بإشبيلية . فلما انتهى إلى خمسمائة خرجت روحه ، فضرب بقية الألف حتى تناثر لحمه . فقال ابنه أبو الربيع يرثيه ، بما أزرى على من سلك ذلك المسلك وافتنّ[2] فيه : [بسيط]

[43 B]

أجهلا منك أن يبكى لما قُدِرَا … أو أن يقول أسى بالِيته قُبِرا
فاضت دموعك أن قاموا بأعظُمه … وقـد تطايرَ عنها اللحمُ[3] فانتثرا
وأوثقوه إلى شمَّـاءَ مائلة … يُنكِّس الطرفَ عنها كلُّ من[4] نظرا
ضاقت به الأرضُ مما كان حمّلها … مِن الأيادى فحجّت شِلوَه صبِرا
وعزّ ذاك أن يحظَى به كفن … فما تَسربل إلا الشمسَ والقمرا
لم تضحَ[5] أعظمه يوما ولا ظمئت … دمعى لهن وقلبى مُزنةٌ وثرى
يا أحمد بن على هُبَّ من وسنٍ … فما عهدتك تَكرَى[6] قبلها سحرا
تاقَ الدُّجى والمُصلَّى تحت غيهبه … إلى تلاوته[7] الآياتِ والسُّورا

ثم أُلهم عليه بقتله ، فقال حين دفنـه وقد غُصّ بماء جَفنه : [وافر]

خليلَ لو ترى فى حِمص دَفْنى … أبى لهجرتَ طعمك والمَنـاما
أُواريه بقبرٍ من ضَريح … كأنى مُغمِد منه حُسـاما
كأنّ محاجرى ودقَت[8] لديه … عشيةَ قُمتُ أدفنه غَمـاما

(*) المغرب (٢ : ٤٠٦) نفح الطيب (٤ : ٢٨٧) . وفى ت « بن أحمد بن غالب بن أبى غالب » .
(١) ت : « والحريرى » .
(٢) فى ب ، ت : « واقى » .
(٣) ت : « وانتثرا » .
(٤) ت : « ما » .
(٥) تضح ، أى لم يصبها حر الشمس .
(٦) تكرى : تنام .
(٧) ت : « تلاوتك » .
(٨) ب ، ت : « وردت يديه » . والظاهر أن صواب العبارة ما أثبتنا .

ثمة الحديث عنه

وتعلّق ابنُه[١] بطريقة الكتابة، فأبلى فيها شبابه ؛ ثم مال في شَيَخه[٢] إلى طريق التوثيق، وتمدّح في أثناء ذلك أربابَ الدولة بما ينفّس عنه بعض الضِّيق . عهدي به بإشبيلية يجالس والدى كثيرا ، إذ كان شريكه[٣] قبل ذلك في كتابة السيد عبدالواحد بغَرناطة . واستفدتُ منه في ذلك الأوان فوائد، ثم تضاعفت أيام اجتماعنا بمراكش في تلك الأزمات والشدائد. ولما بُويع صاحبه أبو محمد عبد الواحد بمراكش اختصه بالاستدعاء ، وجزاه على سالف خدمته من الإحسان أعظم الجزاء ؛ ثم لم تَطُل المدة، حتى حصل بعد خلع مخدومه في شدّة، وتقلّبت به الفِتن ، ولم يَخْلُ في وقت من شكوى زمن ، إلى أن وقع في المحنة العظمى بدخول يحيى بن الناصر مراكش ومدحه إياه بالقصيدة التي اشتهر منها هذا البيت :

[بسيط]

فَمُلْك يحيى حياةٌ لا تَفادلها ورُكن إدريس واهى الرُكن مُندرِسُ

موته

فسار هذا البيت حتى خاف من أجْله حُلول أجَله ، فاستتر مدة ثم شرد على البلاد إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

من شعره

وسمعت منه ، ومن والدى عنه ، مقطّعات لم أرض منها ، مع ماتقدم ، إلا قوله :

[رمل]

الذى أهـواه يَدرى أنّنى هالكٌ فيـه ولا يَرحمُنى

[44 A] / والذى يلْحَى عليه ناظرى حُسْنُ خدّيه ولا يَعذرُنى

كُلّ أحوالىَ فيه عَجَب وهواه بعـد ذا يُعجِبُنى

وقوله :

[مجتث]

مصاحبِى الضيف مهلا ليسـوا بأهـل ودادى

لا أحسـن الظنّ فيمن مُرادُه كمُرادى

وكيف آمَنُ شخصًا صلاحُه فى فَسادى

---

(١) ت : « أبوه » .

(٢) الشيخ ، بالتحريك : الكبر ؛ مصدر : شاخ يشيخ .

(٣) ت : « شريكاله » .

من نثره

ومما يدلك على منزع نثره، هذه الفصول المُقطعة من رسائله فى حُلوه ومُرّه :

فصل :

نكتبها لكم[١] [كتب الله لكم[٢]] نظرا يصلح أفكاركم[٣] ، ويؤمن جهاتكم وأقطاركم من غرناطة – حرسها الله . وليس شيء بفضل الله وبركات الأمير – خلده الله – فله عوارف السعد يتوالى إلا كل ما يسر سماعه الأولياء ، ويسوء الأعداء . والحمد لله الذى قضى لنا بذلك ، بحسن التصرف المسالك . وقد رأينا – ونسأل الله ألا يعدل بنا عن الرأى الذى فيه النجاح ، ولا يخفى عليكم منا غير ملابس الخير والصلاح – أن نُقدم عليكم القائد الأجل أبا فلان سدد الله مقاصده ، وأنجح لديكم مَصادره وموارده . وقد أوصيناه بما يُوجب الشكر من المخلوق ، والأجر من الخالق ، وهو على ماجربناه ناهض عاقل مجرب صادق .

فصل :

وبعد . أبعد الله عنك مايكدر خاطرك ، ويقذ[٤] فى ناظرك ؛ فإنى كتبته إليك وأنا أجتهد فى النظر كيف يكون الخلاص عليك ؛ من مَرّاكش جبر الله صدعها ، وأذهب ضُرها وأعاد نفعها ؛ وأحوالها قد تحولت ، ودُولها قد تنقّلت ؛ والرأس قد عاد ذنبا، والذَّنَب قد أصبح رأسا متوّجا معصّبا ؛ والفتنة على ساقها قائمة ، والحرب[٥] مع اختلاف الليل والنهار دائمة .

فصل :

كتب مُجِلّ مقـداره ، ومُلتزم إجلاله وإكباره ، المُثابر على حفظ عهده ، الناظر على ما لا يختلف فيه غير حاسد من كَريم مجده، فلان بن فلان بن فلانة؛ والحال بنعم الله مامنوالآلاء بفضله متوالية ؛ وعندى من حسن المُعتقد لفضلكم ، مايكون عند من عرف فضلكم وأصلكم ؛ وصله الله فى ذاته ، وجعله مبلغا لمرضاته .

---

(١) ت : « إليكم » .

(٢) التكملة من ت .

(٣) ت : « أفكاركم » .

(٤) يقذ : أى يؤذى .

(٥) ب : « والفتن » .

٢٢ - أبو العلاء بن عبد الحق بن أبي علي بن حسان المرسي(*)

[44 B] نبذة عن جده

من بيت شهير بالحسب، موصوف بالكتابة والأدب. كان جده أبو علي / كاتباً لابن مردنيش صاحب مرسية، ثم توالت الأحوال المتقلبة، فصار مع الموحدين، وحل منهم بالمكان المكين.

زواجه بنت أبي محمد بن عطية

وكان بينه وبين أبي عبد الرحمن بن طاهر رئيس مرسية ممازحة، فاستشاره يوماً في الزواج فأشار عليه ببنت أبي محمد بن عطية صاحب التفسير، وقال: إنها كانت في عصمتي ثم خرجت عني بائنة ولا أرتضي لك في مرآها(1). فهي بمكان لمن يرغب في الدين والدنيا. فتزوجها. وولد له أبو جعفر عبد الحق بن أبي علي، فذهب مذهب أبيه من أمه: عبد الحق بن أبي عبد الرحمن بن طاهر، في الفلسفة والطب وغير ذلك من العلوم القديمة، حتى برع فيما ذهب إليه، وصارت الإحالة فيه بمرسية عليه.

شيء من أبي العلاء

وولد له أبو العلاء بجمع صفتي أبيه وجده، حتى خرج في العلم القديم طباً وفلسفة وغير ذلك وفي الأدب نسيج وحده، وصعد — حين فرع — إلى مراكش، فقصر أمله على الوزير أبي سعيد بن جامع فأبل(2) به يده، وأعانه على ما شاء وعضده، وتقلبت به الأمور إلى أن رأيته مع والدي في إشبيلية وقد قذفت به تلك الفتن إلى أن اضطربت بنو أبيه في حضرة ملكهم، ونثرت على الآفاق فرائد سلكهم. وكان أبو العلاء من أعلام فرضه، فله رحمه الله محاسن عديدة. ثم سكن الجزيرة الخضراء حين ولي والدي أعمالها من قبل ابن هود، فهنالك كثرت منه الإفادة، إذ كان لا يزال يجري في حلبة المحاضرة جياده.

من شعره يعاتب أبا عمران

فما سمعته من شعره حينئذ قوله وقد لامه والدي على منادمة الرعاع، وكونه حرة في ذلك من صنعه قاعدة الإجماع: [رمل]

يا أبا عمران دعني والذي … لم يمل لي خاطر إلا إليه
ما نديمي غير من يعذبني … لا الذي يعلى بين يديه
يرفع الكلفة عني ويرى … أنها واجبة مني عليه

(*) نفح الطيب (٤ : ٢٨٨)

(1) ب : «في سواها». (2) ت : «فأبل».

وله يعاتب أحد المنعمين عليه

وقوله يعاتب أحد المنعمين عليه، وقد استدعاه إلى منزله والمسير إليه: [سريع]

أتمم بإسعاف إلى منزل … ما حسنه إلا بإلمامكا
وارحل إليه ناظراً سامعاً … لكي ترى آثار إنعامكا

رحلته إلى مراكش

ثم رحل إلى مراكش فصار بها كاتباً للرشيد، واتفقت له القضية المشهورة في الكتب لابنه عندما هدم موضعاً في داره للبنيان، وتم به البناء، ووقعت المسألة للرشيد، فقال: ما شيء أعطاه الله لا سبيل إلى أن يعاد علينا / فيه كلمة. فما زال في ذلك المال المتنعم ينعم ويتنعم، إلى أن حيل بينه وبين مناه بالمنية، وأخذته مع معظم أمنيته. [45 A]

وفاته

وكانت وفاته بمراكش سنة إحدى وأربعين وستمائة.

---

٢٣ - أبو عبد الله محمد بن غالب الأستجي [*]

شيء منه

ساد بنفسه ، وجنى يومه على غير أس من أمسه ؛ ورحل عن إستجة فسكن مالقة ، وما زال ينهض لبلوغ المجد حتى عانقه ؛ فصار يكتب عن ولاتها ، ويُعد من سَراتها . لازمت مجالسه أيام إقامتي بهذه المدينة فعاينت منه ما يهزني من الظرف [1] ، مع التزام الوقار والسكينة . وأفادني من نظمه وكتبه ومجالسه أحسن إفادة .

من شعره

وهذا عنوان ما أنشدنيه من شعره ، الذي يسا له في الرقة أبو عبادة [2] ، قوله من قصيدة :

[كامل]

لا تخش قولاً قد عقدت الألسنا ... وابعث خيالك قد سحرت الأعينا

واعطف على فُتات روحي زاهقٌ ... وانظر إلى بنظرة إن أمكنا

لا يخدعنك أن تراني لابساً ... ثوبي فقد أصبحتُ فيه مُكفنا

ما زال يحركه يستميل خواطري ... بارق من ماء الصفاة وألينا

حتى غدوتُ بحر حُبٍّ زاخر ... فرمت به الأمواجُ في وسْط القنا

وقوله من أخرى :

[كامل]

ما للنسيم لدى الأصيل عليلاً ... أتُراه يشكو زفرةً وغليلا

جرّ الذيول على ديار أحبتي ... فأتى يجرّ من السقام ذيولا

وقوله :

[كامل]

بين الأراكة والكثيب حبيبُ ... يسبي القلوب جماله [3] فتذوبُ

قد كان يصعد في السماء توقداً ... لو لم يثقل منعطفيه كثيب

---

[*] ت : « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن غالب الأستجي الجيري » .

[1] ت : « الطرب » . [2] هو البحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشاعر .

[3] ب : « فيذيب » مكان « فتذوب » .

وقوله :

[مجزوء الرمل]

لي بذاك الوجه شُغْل ... عن صديقي وعدوّ

ليتني لم أخل منه ... في رواح وغُدوّ

أسطر الحسن به لم ... تمح آيات السلوّ

وقوله في رضوان الشاعر :

[مجتث]

بعُدَ رضوانُ عني ... تيهاً ويسخر مني

ولا يزور إباءً ... ويقتدى بخلف ميْن

كأنما في يديه ... مفتاحُ جنة عدن

وفاته

[45 B] وبلغني / أنه مات سنة اثنتين وأربعين وستمائة بغرناطة .

٢٤ - أبو عبد الله محمد بن على بن عسكر الغسانى قاضى مالقة (*)

شيوخه عهدى به فى بلده، ورياسةُ فتواها وحكمها الشرعىّ فى يده ؛ ومجلسه مُنتدَى الأعيان، ومُرتق لفلان وفلان ؛ وهو يُقرئ كل فن ، ولا ينفصل عنه كل طالب إلا آنفصال الخليع عن الدّن . وهو ممن آنتفعت به وبكتبه ومجلسه ، وظفرت فى موطن الأغتاب برّه وتأنسه . وكان متشيعا فى حُب بنى سعيد ، ومادحاً لهم بغير ما رسالة وقصيد ، حتى إنه صنف كتاباً فى أنسابهم ، وما حواه علمه من مناقبهم وأحسابهم .

من شعره وكانت نيّة الرحلة المشرقيّة ، والزورة النبوية ؛ قد ثارت حينئذ فى خاطرى ، وملكت باطنى وظاهرى ؛ فأودعنى هذه الأبيات التى أنشدتُها عند الرَّوضة ، على ساكنها أفضل الصلوات والسلام :

[وافر]

علَىّ إذا أتيتُ ترى محمدْ ... صلاةُ الله لا تَعدوه سَرمدْ

فقبّله وقُل صَبٌّ غَريب ... بأقصى الغَرب أمّك وهو مُقعد

أراد زيارةً فَثناه عُذر ... وكم سَيفٍ بُراز وهو مُغْمد

فإنْ مُنع المَسير أتاك منه ... سَلام طَيّب أبدا يُردّد

ومَدح لايزال بكلّ حين ... من الآداب كالدر المُنَضّد

أقمتُ وأنت ترحل يابن موسى ... لقد تلتَ السُّرور وظلْت مُكمَد

ورغبت إليه فى أن يُنشدنى شيئاً من غَزَله ، وكان لا يتظاهر بذلك إلا أنه لا يخلو منه، لِما جعل الله فيه من الرقة واللطافة، وسَلب عنه من الغثاثة والكثافة . فأنشدنى وقال: حسبك منى ، واكتمه بفضلك فى بلدى عنّى :

[سريع]

أهواك يا بدرُ وأهوى الذى ... يعذُلنى فيك وأهوى الرّقيبْ

والجارَ والدارَ ومَن حولها ... وكُلّ من مَرّ بها من قريب

* المغرب (١ : ٤٣١) التكملة لابن الأبار (ت ١٠١١) النباهى (ص ١٢٣) نفح الطيب (١ : ٦٩٥) طبعة أوربة .

ما إن تنصرت ولكننى ... أقولُ بالتّثليث قولاً غريب

ثالث الألحان والكأس إذ ... تبسم عُجْباً والغزالُ الرّبيب

بينه وبين أبى عمران وبينه وبين والدى مخاطبات، منها هذه الرسالة فى حق طالب قصده للتصرف فيما قلده من الجهات :

[مجزوء الرمل]

يابن عمار بن ياسرْ ... أولاً طِبتَ وآخِرْ

[46 A] لست تحتاج لِتنبيهٍ على كسب المآثر

ومَلّى الله لسيدى ، وأسنى ذخيرة فى يدى ؛ ما عوّد من جاه قائم ، وثناء مُلائم ؛ يرد (١) الكالوارد ، ويصدر بهذا الصادر العائد . تشيّع معظّمُ بينكم، ومادح حبكم ، ومؤتن مبتكم، منه من حسن الظن والأمل فيكم ، ما يحمله على إسعاف مرجيكم؛ ثقة بما يصدر عن تلك الأزهار، ومايليق بالأوائل منكم والأواخر . وإن الفقيه النبيه الناظم الناثر أبا فلان — بلغه الله بحكمكم الجارية، وأثمر احتكم الزاخرة — لم يزل يرتاح متى ماذكرتم إلى لقائكم، ويدعو الله أن ينعم بالبهجة فى بقائكم، إلى أن ارتفعت عوائقه، واستقامت على الطريق طرائقه ؛ فقصد جهتكم المحروسة بقلب ملآن من الآمال ، وخاطر (٢) إلى محل محل (٣) بمحط الرحال ؛ وقد أرسلت به ظامئا إلى نهر زلال، ووكلته إلى ماحباكم الله من كرم الخلال .

وفاته ومات بمالقة سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

(١) ت : « يريد » .

(٢) ت : « وناظر » .

(٣) ب : « محيض » .

٢٥- أبو أمية بن عفير قاضي أشبيلية(*)

كان بينه وبين والدي أحسن ما يكون بين اثنين ، وكان مجلسه مسرة للقلب وقرة للعين ؛ إذ كان مع براعته وتقدمه في العلوم الشرعية ، أقوم الناس بالفنون الأدبية ؛ وقد اشتهر بسرعة الخاطر في الارتجال ، وعدم المناظر له في ذلك المجال . ورأيته كثيرا ما يصنع القصائد والمقطعات ، وهو يتحدث ويفصل بين الخطباء في أكثر الأوقات . ومع سرعته في هذا المنزع ، فإنه لا يأتي إلا بأحسن ممانظمه وأبدع . وآلت به الحال إلى أن صعد إلى مراكش فانقطعت عني أخباره من سنة ثلاث وثلاثين ، ثم سألت عنه حين قدمت من الشرق فلم أقف من سنة وفاته على يقين .

من شعره

هذه فرائد من شعره ، تدل على ما نبهت عليه في ذلك من عجائب فكره . فمن ذلك قوله :

[مخلع البسيط]

ديارهم تلك نصب عيني ... وليس لي وصلة إليها

إلا سلامي لذي ابتعاد ... من بعد سكانها عليها

[46 B] / وقوله في قضية اتفقت له بمجلس حكمه :

[مخلع البسيط]

تخاصمت ظبية وتيس ... عندي فطالعت(1) في الرءوس

نخفت من هزها لخارت ... في مذهب العاشقين توسى

ولم يكن من يكون مثلي ... يقضي على الظبي للتيوس

وقوله :

[وافر]

ووجه تغرق الأبصار فيه ... ولكن يترك الأرواح هيما

أتاني ثم حياني حبيب ... به وأباحني الخد الرقيما

فمر لنا مجون(2) في فنون ... سلكت به الصراط المستقيما

إلى أن قلت هل لك يا حبيبي ... إلى أن تربع الأنس المقيما

(*) نفح الطيب (٤ : ٢٨٩) . (1) المطالعة : المشاهدة . (2) ت : « مجون » .

بشدو يبعث الإيناس فينا ... وكأس تترك الدنيا نعيما

فقال تبيح(1) أكواس الحميا ... فقلت : نعم إذا كنت النديما

فلم نترك من اللذات وجها ... أوان يعانق الغصن القسيما

نبسطنا على الآثام علما ... بأن أمامنا ربا كريما

ولإعجابه بهذا المقصد كرره في قوله ، والعود في مثله أحمد :

[بسيط]

ومذهب الخد تياه أغر شرف ... نشوان من خمرة الإدلال والمرح

وافى فوفى بوعد ظل يمطلني ... فيه وأطلع صبحا قبل لم يلح

فقلت هل لك في تكميل لذتنا ... بحث كأس بها إكمال مقترح

فقال لي هل تبيح الخمر قلت له ... نعم إذا كان منك النقل للقدح

فقال هات على اسم الله مغتبقا ... إن شئت نيل المنى من بعد مصطبح

فلم نغادر من اللذات مقترحا ... ولا قطعنا زمانا في سوى القدح

بحياة الظرف والأدب ، إلا ما أصغيت إلى هذا الكلام المنتخب ؛ وعجبت كيف لم تنفه ماء دجلة والفرات ، وأعجب من ذلك : من أنتج مثله كيف مات !

(1) ت : « يبيح » .

٢٦- أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الجيانى

ش، ح عرف بابن السماك ، كان سامحه الله من أمجن العباد ، لايكاد يسكت عما يصدع الرءوس ، ويؤذى جلساءه بأشدّ من خُمار الكئوس ؛ وكان يحفظ كثيرا والمحاضرة قليل ، وبالجملة فإنه كان من نُفاية(١) الكُتّاب وممن ليس له تحصيل .

[47 A] جالسته بإشبيلية وبمالقة وغرناطة فكنت أبلى / بمحاضرته فى كل بلد، ولا أتحصل منه إلا بنذر فائدة وكثير نكد . وأنشدنى من شعره جملة يكفى منها ما أورده ، وأما فصول نثره فلم أرضها لمن يعرف الكلام وينقده ؛ فلذلك أضربت عنها، وفى غيرها من فصول هذا الكتاب المفيدة عوضٌ منها .

وفاته وكان والدى من أبغض خلق الله فيه ، فقُدِّر أن ماتا فى سنة واحدة، وهى سنة أربعين .

وقد كان يكتب عن وُلاة بلده فى مدة ابن هود وما سَلَف من دولة الموحدين .

من شعره فمما سمعت عنه من شعره ، فعنونتُ به عن مقدار قدره ، قوله :

[بسيط]

إيّاك أن تُكثِرَ الإخوان مُفتتناً ... فى كُلِّ يومٍ إلى أن يكثُرَ العددُ

فى واحدٍ منهمُ تُصْفِى الودادَ له ... من التكاليف ما يَفْنَى به الجَلَد

وقوله :

[طويل]

أصاحِبَ هذا الوقت والواحدَ الذى ... بقيتُ به فى غُربتى مُوحشاً وَحْدِى

أمَا نظرةٌ فى عبدك المُخلص الذى ... يُريد إذاً يَرعى الوفاء عن(٢) العبد

وهل نافعٌ أنّى بلغتُ جميعَ ما ... أردتُ ولم أُدرك به البَعضَ من قصدى

إذا أخصبتْ تجدٌ ولم يكُ(٣) لى بها ... مَرادٌ خَصيبٌ فالسلامُ على نجد

وقوله :

[طويل]

تَحِنُّ رِكابى نحــو أرض ومالها ... ومالىَ من ذاك الحَنين سوى الهم

بهذا قضى الرحمنُ فى كُلِّ ساخط ... يموت على كُرْه ويحيا على رَغْم

فكم راغب فى موضعٍ لا ينالُه ... وأصبحتُ فيه مثلَ يُونس فى اليم

ولم يكن له فى طريقة فى الغزل وِرْدٌ ولا صدر .

(١) ت : « نقاية » . (٢) ت : « على » . (٣) ب : « ولم يكن » .

٢٧- أبو محمد عبد الحق الزهرى القرطبى(*)

ش، ح لا يكاد أحد يعرفه إلا باليقين . وهو كاتب أديب شاعر ، وربما تصرف فى القضاء فارتكب ما لا يليق ، إذ هو من أحفظ الناس بأشعار أبى نواس .

ولأبى القاسم بن هشام القرطبى فيه أقوال مشهورة ، وأخبار فى طريق أهل الأدب مذكورة . وكثيرا ما جالسته بإشبيلية ومالقة فرأيته من المُجّان ، وكأنما يغرف من ماء عذب مَعين ؛ وما أدرى هل بقى إلى هذا الأوان ، أم غُيّب شخصه عن العيان .

من شعره علق بخاطرى من شعره قولُهُ من قصيدة أنشدها الباجى القائم بإشبيلية حين خلع طاعة ابن هود ، وبدّل شعاره الأسود فى البُنود(١) :

[بسيط]

كأنما الرايةُ السوداءُ قد(٢) نَعبت ... لم غُراباً ببَيْن الأهــل والولدِ

مات الهُدى تحتها من فَرط رَوعته ... فأظهر الدهرُ منها لِبسة الكَمَد

هو وابن سعيد فى غلام وكنت معه يوما بمالقة على الساحل ، فجاء غلام بديع الصورة ، وتجرّد وشقّ البحر كالسيف المهند ، فقال :

[مجتث]

جسمٌ هو الماء لُطفاً ... وارته شُــقة ماءِ

فقلت :

لا بل هو النُّور أضحى ... يَدِبّ فى الظَّلماء

قال :

يَمْضى كسَيف بغمْد ... ويُنْتَضى لقَضاء

قلت :

كأنه نجمُ رَجْم ... يَشُقّ ثوبَ السماء

(*) المغرب (١ : ١٢٠) صلة الصلة لابن الزبير (ص ١٠) .

(١) ب : « بالبنود » .

(٢) ت : « نعبت » مكان « نعبت » .

٢٨ - أبو بكر محمد بن عبد الله الدانى

شىء عنه

كان أبوه من دانية ، وأما ابنه المذكور فإشبيلىّ الدار ، بينى وبينه المجالسة والمذاكرة والجوار . وهو شاب مُشتغل بالأدب ، يُدخل نفسه فى أهل التعبير والحسب ، كثير الوقوع فى الناس ، مؤذٍ بمحاضرته جميع الجُلّاس . جالسته ببلده غير مرة ، ثم تجنّبته لأنى لم أنفصل قطُّ عنه إلا بمَضرة . وكان يُدِلّ بالخال[1] والمال ، إذ كان ابن أخت أبى العباس ابن بقىّ ، مشرف إشبيلية . وإذا أنشد طلب من كل سامع إظهار الاستحسان ، وتحريك اليد والرأس واللسان . وبالجملة فكان رضاه غاية لا يدركها أحد ، ومودته لا تستطاع إذ طَبَعه الله على الغلّ والحَسد . وحملته نزواتُ جنونه ، ومختلبات ظنونه ، على أن نزع من بلده إلى ابن الأحمر حين غلب على قرطبة ، والفتنة قد أشعلت نارها ، ورفعت منارها ، وخاطب جماعة من إخوانه بإشبيلية يرفع فيها من مخدومه الجديد ، ويذم أهل بلده ما بين القريب والبعيد[2] . ثم جرى على تلوّنه ، وترك تَمَسّكه[3] وتصوّنه . فنُمى إلى ابن الأحمر أنه عَامله بتلك المعاملة ، وخرق فى خدمته ستر المجاملة ؛ فصلبه على نهر قرطبة والقلم[4] مربوط ببنانه ، لكى يعلم الناس أنّ ضاربَ عنقه سيفُ لسانه . وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

لابن البناء فيه وقد مات

وعهدى بالكاتب أبى بكر بن البناء لمّا بلغه خبره تمثّل بقول أبى الطيب :

[بسيط]

قالوا لنا مات إسحاقٌ فقلتُ لهم هذ الدواء الذى يَشفى من الحَمَقِ

من شعره فى خاله [48 A]

/ وكان مشهور الشّعر ، ولم يثبُت بخاطرى منه إلا قولُه لخاله ، فى عتاب خفيف لتقصيره فى تبديل حاله :

[سريع]

قد كنتَ فى قُربك ذا غِبْطةٍ وسَقطةٍ فى الدّهر لا تُستقالْ

أدعوك بالخالِ ولكنّها مُردَفة بالداء عند المقالْ

يَنبع فى كُلّ ما رُمتهُ من مَطلبٍ بُخلًا وكم نَخّ خالْ

---

(١) ب : « بالجلال » . (٢) ب : « ما بين القريب منهم والبعيد » .

(٣) ت : « مسكه » . (٤) من هنا إلى قوله : « قصيدته أولها » (ص ١٣٨) ساقط من ت .

أَلبَنٌ ما تذكره دائمًا يا تاركى عند اختبار الرِّجال

لكُلّ قميص فى الورى لُقبة تخرج والأيام مثلُ الخيال

أبو عمران مع خاله فى شأنه

قال والدى : كلمت فيه خاله المذكور ، وكان من أهل المُروآت مع البعيد فكيف مع القريب ، فقال : إنه أكثر من عتابى حتى خرج إلى الهجاء . وأنشدنى هذه الأبيات . قلت : والله إن هذه حكمة وتذكرة . فقال : يا فلان ، أنا أعرف به منك . والله ما يصلح إلا من يضرب عنقه ، ولا يصلح لى ولا لغيرى أبدا . فلم تمض إلا شهور ، حتى كان له الخبر المشهور .

٢٩ - أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندى(*)

نسبه

ينسب إلى شَقُنْدة، قرية مُطلّة على نهر بقُرطبة، مجاورة لها من جهة الجنوب. وهو كان بينه وبين والدى صُحبة أكيدة، ومُجالسات أُنس عديدة، ومداورات تتصل، وعشرات لاتكاد تَنفصل. وهو ممن آنتفعت به وبمجالسته.

رسالته

وله رسالة فى تفضيل الأندلس يعارض بها رسالة أبى يحيى الطبجى فى تفضيل بَرّ العدوة، أورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزع، وعُذوبة المشرع؛ وكان جامعاً لفنون من العلم الحديثة والقديمة، وحسبه أن كان ممن عُيّن بمجلس المنصور، لم تزل له بها مشاهدة غير ذميمة.

ولايته القضاء وموته

ووَلى فى وقت قضاء بَياسة وقضاء لُورقة. ولم يزل ملحوظ الجانب، محمود المذاهب إلى أن كانت وفاته بإشبيلية سنة تسع وعشرين وستمائة.

من شعره

سمعته يوماً يُنشد والدى قصيدة فى المَنصور على الأرل(1)، وقد نهض للقاء العدو، ومطلعها:

[بسيط]

إذا نهضتَ فإنّ السعد مُنتصر   يَرمى السعود سهاماً والعِدا غرضُ
إذا الهسبطة تَطويها وتَنشرها   فليس فى كُلّ ماتنويه مُعترض

[48 B] /وسمعه يقول: أنشدتُ الوزير أبا سعيد بن جامع قصيدة أولها(2): [بسيط]

استوقف الركب قد لاحتْ لك الدارُ   وآسأل بربعٍ تنامت عنه أقمارُ
لاخفّف الله عنّى بُعد بَينهمُ   فإنني سرتُ والأحباب ماساروا

إلى أن انتهيت إلى قولى:

ألا رعى الله ظبياً فى قِبابهمُ   منه لهم فى ظَلام الليل أنوار
غدا أنيساً بهم لا شىء يَذعره   لكنه عن جَنانى الدهرَ نَفّار

قال: فقال لى الوزير بلوذعيته: يا أبا الوليد، هذا الظبى يفارك، فلم يواتِه. فخجلت، وقلت: قد قيل: إياك وما يعتذر منه! فكيف ومالى اعتذار!

(*) نفح الطيب (٤ : ١٧٧ و ٢٠٨).

(1) كذا فى الأصل.   (2) إلى هنا ينتهى السقط من ت.

من نسيبه

ومن محاسنه فى النسيب قوله:

[خفيف]

ملأنى بذكر من هِمتُ فيه   وعِدانى عنه بما أرتجيه
وإذا ما طَرِبتُما لارتياحى   فاجعلا تمرتى مُدامةَ فيه
ليت شعرى وكم أطيل الأمانى   أىّ يوم فى خلوة ألتقيه
وإذا ماظهرتُ يوماً بشكوى   قال لى أين كُلّ ماتدّعيه
لادُموع ولا سَقام فمن ذا   شاهدٌ عنك بالذى تُخفيه
قلت دَعنى أمُتْ بدائى فإنى   لو بَرانى الغرامُ لا أبريه

من شعره فى إبلاله من مرضه

وأخبرنى أحد إخوانه أنه مرض فى بياسة ثم أبلّ، فقال فى عَوده، مايشهد له بلطافة تخلصه:

[مجزوء الرجز]

إنى مَرضتُ مرضةً   أسقط منها فى يدى
فكان فى الإخوان مَن   لم أره فى العُوّد
فقلتُ فى كُلّهمُ   قولَ آمرئٍ مُقتصد
أيُر الذى قد عادنى   فى آست الذى لم يَعُدِ

٣٠ - أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأفلح اللخمى(*)

نفح، ع ه

من البيت المَشهور بإشبيلية . منهم ابراهيم بن حَجاج الذى دام له القيامُ بها والاستبداد عليها فى مُدة بنى أمية إلى حين وفاته . ولم يزل منهم مع توالى الأعصار ، والنهار ، أعلام عِلم ودين ، وأرباب تَرفيع وتمكين ، إلى أن نشأ أبو الوليد المذكور فرفع فى طريق الأدب مَنارهم ، وأوقد فى علَم العُلوم نارهم ، وعهدى به مع والدى فى أعمال مُنادمة [49 A] وأطراد مُجالسة ومحاضرة ، وفى أثناء ذلك اقتبست من أدبه ، واستفدت منه ومن كُتبه . وتقلّب به الحال مابين قاضٍ ووزير ، وكاتب ومُشير ، إلى أن أخرج سالمَ بن هود من إشبيلية ابنُ صاحب الرد(1) ، فلم تَعطفه عليه الأواصر الحَميّة وأظهر للدولة السالفة وفاء المهد ... بسالم المذكور ، وكان له فى السّعى معه القيامُ المشهور ، وصار يكاتب من شَريش أقاربه ومعارفه ، ويمنّيهم صلاته وعوارفَه ، حتى أُودعوا الحُبوس ، وكادت جسومهم تفارق الرموس ، ثم إن الأقدار جرت بعود ابن هود إلى ماسُلب عنه ، فحظى عنده ابن حجاج وتمكّن منه ، وخَلع عليه وزارته ، وأسند إليه إرادته ، فأصبح لايرد السلام إلا بالإيماء ، وانطلقت فيه ألسنُ الشعراء بالهجاء ، والعامة بالدعاء .

بين ابن سعيد وابن سهل فيه

ومن أبدع ماوقع فيما يتعلّق بهذا الفصل ، ماجرى لى مع إبراهيم بن سهل ، وذلك أنى كنت أسايره يوماً وإذا بأبى الوليد قد أقبل فى موكب يغصّ به الرَّحب ، والعين تمجّه أكثر مما يمجه القلب ، إذ كانت طلعته غيرَ مقبولة ، وراحته عن المكارم مغلولة ، فنظر ابن سهل إلى صورته أعلى(2) شفته ، فقال ما يشهد له الإبداع فى صفته :

[سريع]

• وزيرُنا ياويحنا أفلحُ •

فقلت :

• فهل ترانا معه نفلح •

فقال :

• يقرأ راجيه على فيه لا •

(*) نفح الطيب (٤ : ٢٩٢) .
(1) هو أبو بكر بن عبد العزيز ، ابن صاحب الرد . وقد مرت ترجمته ص ١١٢ — ١١٣
(2) ت : « لأعلى » .

فقلت :

• فحاجة المسكين لا تنجح •

وبلغ والدى ما جرى بينى وبين ابن سهل فى هذا الشأن ، فاغتاظ وشكا من أهل سره فلان وفلان ، ثم أحضرنى وقال : أخبرنى بما كان بينك وبين اليهودى فى شأن ابن حجاج . فقال : ما أبعد الفلاح من وجهك ! ما كفى أنك أدخلت روحك فى التهمة بهجو الأعيان ، حتى رضيت أن تكون زاملة ليهودى شاعر ، فاشتركت معه فى الصفة بالهجو وانفرد بحصول المعنى . فخجلت وأقسمت ألا أعود إلى مثل ذلك .

وبلغ الوزير القصّة وصادفتُ أن أمر لى بإحسان ، فسعى فى قطعه وصار بعد إقباله زاورا . فقال والدى زاجرا عن الوقوع فى مثل ما فرط ، وواعظا بضرب الوزير على رسم الإحسان كأنه غلط :

[كامل]

أبنىَّ لا تهجِ الرجالَ تَهجهمُ ... ومتى مكرتَ(1) فمكرهُم لا يُغفلُ

واحذره مثلَ النار إن واقعته ... فلقد أذاقك غرسه لو تَعقل

[49 B] ثم حضّنى على أن أعتذر له بقصيدة أُوشّيها بمناقبه ، وأُحلّيها بوصف ما أعلى / الله من مراتبه ، فلما نظمتها ورمتُ إنشادها أبى ، قال وهو يتبسم : مرحبا بالشاعر مرحبا . ثم قبض وجهه وقال : من أين يليق بمثل حَسبك الشعر فى الهجاء أو فى المدح ؟ فقلت : ياسيدى ، اسمع قصيدتى وقل بعد ذلك ما بدالك . فاستحيا وجعل يتأملها ويهز رأسه مظهرا لوامع الاستحسان ، ثم صار يعقد بالبنان ، إلى أن بلغ هذه الأبيات :

[سريع]

مَن كان فى مَنصبكم فليكُنْ ... يَفعل ما يطعن(2) فى المَنصب

ألآن أساء القوم لم تُحسنوا ... فى الفعل والحلم لدى المُغضب

هذا بذا فما الذى سُدتم به ... وفقتم عن كُلِّ ذى مطلب

حكماً تروم العفو لكنكم ... أنتم به أولى من المُذنب

(1) ت : « ومتى نقلت » .
(2) ت : « ما يطمن » .

فارتاح غاية الارتياح ، وأكذب من قال : لم يبق من تهزه الأمداح الأديب الحسيب ؛ وضرم لى ذلك الإحسان من عنده ، ثم قال : أنت الخضراء وأظهر فى ذلك وفاءً بعهده .

هو وأبو عمران

ثم سُلِّط على والدى من لم يكفه الله شره إذ أحسن إليه ، فتوجه إلى إشبيلية ولم يرفع عليه ؛ فكتب فى ذلك إلى هذا الوزير ، يخاطبه بما فيه عنوان عن علة من النظم والنثر[1] :

وذلك مَن علم — أعزك الله — ما أحرزت من الأدوات ، وعرف ما برزت به من المعلوات ؛ كان جديراً ألا يهمل[2] من رعايتك جانبا ، ولا يزال نحو ما يُرضيك ذاهبا :

[متقارب]

فكُن واثقاً بى فإنى امرؤ ... أميز الخبيثَ من الطيِّب

فإنى علمتك عن[3] خِبرة ... فهما وصفتُك لم أرتب

لئن كنت فى الأرض ذا رتبةٍ ... فإنك أعلى من الكوكب

ثم مال مع الزائغ[4] وتأخير والدى ، فلما وصل تنكّر له جانبه ، وتكدّرت بعد الصفاء مشاربه ؛ ولم يُمهله الله بل مات فى تلك السنة ؛ وهى سنة اثنتين وثلاثين ، وعند الله يجمع من يصدق فى المودة ويَمين .

---

(١) ت : « والنثر » .

(٢) ت : « ألا يحتمل » .

(٣) ت : « من خبرة » .

(٤) ت : « ثم قال مع الزائغ » .

٣١ - أبو إسحاق إبراهيم بن أبى عبد الله محمد بن صناديد[1]

نبذة عنه كان أبوه بجيّان ، بمنزلة إنسان العين من الإنسان ، وابن قائد ، جمع ما بين الطارف والتالد ؛ إن هطل السماح فهو سحابُه[2] ، أو اضطرم الكفاح / فهو شهابه . وهو ممدوح [50 A] ينطبق فى أزجاله ، وقد وصف فيها محاسن أفعاله . ونشا ابنه لبّاس أردية الملوك ، وسالك سنة[3] الشمس عند الدلوك . مرّ له فى ترف العيش زمان نضير ، إلى أن تعس جده مع ابن عمه والأمير ؛ وذلك أن أبا مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد نشا بجيّان مكبّاً على البادية ولهيه فى جانب من شظف العيش والخمول ، وابن عمه أبو إسحاق قد بلغ من دنياه غاية المأمول ؛ فكان لا يرتاح له بصُبابة ، ولا تعطفه عليه الأواصر والقرابة ؛ ازدراء واحتقارا ، وزهده من معاشرته واستصغارا ؛ إلى أن مرّ الزمان ، وتقلّبت بجيّان أحوالُ السلطان ؛ ونال الرفيع ، وارتفع الوضيع ؛ وسعى عبد الملك فى أمر قصبة جيان ، ومكّن منها أبا عبد الله بن الأحمر ، وأخرجها عن يد ابن هود فرعى له ذلك وصار عنده فى مرتبة الوزارة بل أكبر ؛ أحوج الدهر ابن عمه أبا إسحاق إليه ، فقاسى معه فى غرناطة ما قضى ، يأخذ ثاره منه ، وتركه يعض على ما فرط منه فى يديه ؛ فلم ير إلا الراحة بالارتحال ، فكان ذلك ولكن بعد مقاسات أهوال ؛ فجاز إلى بر العدوة وهو فى عقدة التسعين ، فكانت وفاته بسبتة فى سنة ثلاث وأربعين .

وهو ممن أكثرتُ مجالسته بإشبيلية وانتفعت بأنواع آدابه ، ومجالسه وأصحابه ؛ إذ كان مجلسه[4] منتدى للأعيان ، وأدباء الزمان .

من شعره

ومما أنشدنيه من شعره ، فرأيتُ إصابته لنباهة ذكره ، قولُه وهو فى الانخلاع والانطباع كأوله :

[مجزوء الرمل]

لا تكُن تَعشق إلاّ ... أملحَ العالَمِ طُرّاً

فإذا مُتُّ غراماً ... وهوَى القيتَ عُذرا

عجباً ممن يرى الشمـ ... ـس ويُضنى الحُبُّ بدرا

---

(١) ت : « صناديد » .

(٢) ت : « سحابه » .

(٣) سنة الشمس ، أى أثرها البادى .

(٤) ب : « ومنزله » .

ثم إن شئتَ حياةً تُرتضى لا تَضعُ سُكْرا

واقطع الدُّنيا يقينا وذَرِ اللّذات تَترى

لا تكُن أعدى عدوٌ قاتلًا نفسَك صبرا

وذكر لى الشيخ أبو محمد بن خطاب أنه كتب لإخوان له أبياتا علق بخاطره منها هذا البيت وحده ، وهو :

[بسيط]

[50B] / ماذا تقــول لأقوام ذوى كَرَم قد أزمعوا أخذَ أرواح الأباريق

٣٢ - هارون بن عبد الله بن هارون

ق، ت

من كتّاب إشبيلية الذين لم يُجهل مكانهم، ولا صَغُر فى هذا الشأن شأنهم، اشتهر بالكتابة فى أبى عمران بن أبى عبد الله بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن والى بجاية ؛ ثم لما أخذها مولانا الأمير المقدس المرحوم[1] من يده ، عاد هذا الكاتب إلى بلده، وكان يلازم سكنى نخبوس ، مُكِبًّا على الفُرَج وإعمال الكؤوس ؛ وكثيراً ما كنت أجالسه وأستفيد من محاضرته ، ثم مرقت الأيام بيننا ، فبلغنى أنه صيّر سبتة دار مهاجرته .

من شعره فى رثاء ابن خلاص

ونقلت من خطه قوله من قصيدة فى رثاء ابن القاسم[2] ابن الرئيس أبى علىّ بن خلاص المتولى على سبتة حينئذ، وقد أرسل ولده المذكور إلى هذه الحضرة العلية، فغرق تحت الليل فى الغراب الميمون ، وكاد أن يخرج الحزن بوالده عليه إلى حد الجنون :

[طويل]

هو الرُّزءُ ما أبقى عزيزًا ولا صَبرًا دُهينا من الأيام بالبَطشة الكُبرى

حَقيقٌ علينا أن تَسيل نفوسُنا دمًا من دُموع مازجتْ مُزنُها القَطرا

وإنْ تَهب الدنيا نضارةَ عَيشنا وإن كان عيشًا لا شَهيًّا ولا نَضرا

أبا قاسم لَهْفى عليك وإننى لِفَقدك لا أنفكّ ذا كَبِدٍ حَرّى

هكذا يكون حُرّ الكلام ، وبمثل هذا يُعزّى أعلام الأنام . ولولا ما قدمناه من شرط الاختصار، والعدول عما يُمل من الإكثار ، لأوردنا جميع القصيدة ، فإنها فى منزعها وحيدة فريدة، وبعد ما تقدم من محاسنها التى يجب على الأديب ألا يهملها ، ولا يخليها من مجموعة نُخَبه ونخلها .

ثم ختم هذه القصيدة بذكر إنعامه عليه فى إطلاقه من الأسر، وذكر ما بُليت به إشبيلية فى ذلك الأوان من الحصر ؛ وما أدرى هل بقى حيًّا بين الورى ، أم أسترده التى منها نشأ فأودع بطن الثرى .

(1) هذه الكلمة ساقطة من ت .

(2) ب : « رثاء القاسم » .

٣٣ - أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب الأزدى[١]

[51 A] شيء منه

من بيت جليل مشهور[٢] بالقاعدة المُرسية، له ذكر تابه فى أخبار الدولة العامرية. ونشأ عزيزا فى عزة الآباء، والتيمن بشمار الزهد والعلماء. وأخذ نفسه بالتواضع الذى أمال قلوب العامة إليه، وصيّر زمامها فى يديه؛ حتى كانوا يطالبونه بالدعاء، ويزدحمون عليه عند اللقاء. وحُسد على ذلك، حتى رفع إلى مَراكش أنه يضمر ارتقاء الوثبة على ما هنالك؛ فدُوفع عنه بالتخلى من أسباب الدنيا، وشُهد فيه أنه غير متصد لمراتب العَليا. ومرت الليالى والأيام، وتلونت وجوه الشهور والأعوام؛ إلى أن صار شيخ مُرسية فى دولة محمد بن هُود، وصار إليه الحلّ والعقد فى كل محلول ومعقود؛ ولما وصل مرورنا[٣] بمرسية سنة ست وثلاثين اجتمعنا بشيخ غرناطة أبى الحسن سهل ابن مالك، وهو حينئذ مُغرب عن بلده وأهله، لما شنع عليه من قوله، الذى خيف أن يتطرق إلى فعله؛ بجمع بين والدى وبين ابن خطاب، ثم تكررت المجالسة فرغبت إليهما فى الحضور عنده وسماع ما يكون فى مجلسه من فنون الآداب، وصرت فيمن انتفع[٤] بكتبه وعلمه، وظفرت ببرّه وتأنسه؛ إلا أنى لم أجسر على أن أستنشده شيئا من شعره، إعظاما لشيبه وهيبة لجلال قدره؛ ثم كان الانفصال، فبلَغنا بحضرة تونس أنه انتقل من زى العلماء إلى زى أصحاب السيوف، وأخذ فى أخذ الأموال من غير وجهها وسفك الدماء؛ فاستعذنا بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[٥]، وعلمنا أنه سيُقتطف اقتطاف النَّوْر؛ فلم تمض إلا شهور حتى بلغنا أن زيان بن مردنيش صاحب بلنسية قد انقض عليه انقضاض العُقاب، وحمله أهل بلده وذوى حسده على ضرب رقبته، وزعموا أن ذلك بما ضرب هو من الرقاب.

بيعته

أخبرنى صاحب حمله، وكاتب بيعته الشيخ أبو المطرف بن عميرة، أنه بويع بمرسية صدر المحرم من سنة ست وثلاثين وستمائة. وقيل: يوم الجمعة أول يوم من شهر رمضان فى هذه السنة.

---

(١) «الأزدى» ساقطة فى ت.
(٢) زائدة فى ب.
(٣) ت: «ولما برزنا» مكان «ولما وصل مرورنا».
(٤) ت: «فصار فيمن انتفت».
(٥) الحور بعد الكور: أى من النقصان بعد الزيادة. وقيل معناه: من فساد أمورنا بعد صلاحها.

من شعره

واجتمعت بعد ذلك بأبى إسحاق بن لبون المرسى، فأنشدنى له هذين البيتين فيما كان يرومه من الوثوب، والتعرض للحسام المخضوب:

[كامل]

أربأ بنفسك أن تكون مُتابعا ... ما الحُرّ إلّا من يُقوم[١] فيُتبَعُ

لا يدفعن الذُّلّ عنك مُقدرا ... ما بالحِذار يُذاد ما يتوقع

[51 B]

وأنشدنى له غيرُه هذين البيتين:

[خفيف]

لى حبيبٌ أراه فى كُلِّ آنٍ ... هو أُنسى وبُغيتى وجنانى

رام قومٌ أن يَحجُبونى عنه ... فاختفى عن عيونِهم وأتانى

---

(١) ت: «يرى».

٣٤ - أبو القاسم بن حسان الإشبيلى

جَلّ فى إشبيلية مقدارُه ، وشهر فيما بين المنازه والديار مَنْزهه وداره ، إذا قيل : قصر ابن حسان ، فلا يشاركه فى هذا الوصف إلا ما كان منزلاً للسلطان .

ودخلت إليه مع والدى وهو بهذا القصر فى بهو قد ملأه من الكُتب ، وحَلّ منها بمنزلة البدر من الشُّهب ، لا بل الشمس فى تكاثف السُّحب ، فسافرت[1] إبصارنا فى تلك الساحة العريضة الطويلة ، وتقيدت بمحاسن رياضه البديعة الجميلة ؛ ثم جالس والدى بما لديه من فنون الآداب فأطنب وما قَصّر ، وانفصلت عنه وقد امتلأت حقائبنا من رغائب السمع والبصر . وكذلك إذا قيل فى المنازه التى على النهر الأعظم منزه بَيْسانه ، مال كُل ذى سمع وبصر إلى ألحان أطياره وأفنان أشجاره المُزدانة ؛ وكم للأدباء والشعراء به من مُنزهات ، وفكاهات مُتصلات ؛ إذ كان صاحبه — رحمه الله — أحبّ أهل بلده فى استدعاء أديب غريب ، وتأنيسه وإنزاله من مكارمه بالمحل الرَّحيب ؛ وكثيراً ما جررنا فيه ذيل العيش النضر ، وصعدنا له مع المد ونزلنا عليه مع الجزر .

أخبرنى أحد خواصّه أنه كان ربما خلا فى الأسحار ، وأخذ فى الصلاة والاستغفار ، ثم رفع يديه مُتضرعا داعيا ، ثم قال فى أذيال ذلك : اللهم يارب النّعم علىّ ، حُط بعينك التى لا تنام قَصرى ورياضى ، لا أسألك فى الدنيا زيادة عليها .

ودخلت مع والدى عليه فى هذا المنزه[2] ، فلما أخذَت المحاضرةُ والمؤانسةُ حقّها ساله والدى أن يُنشدنى شيئا من شعره ، أتشرّف بين أقرانى بذكره ، فأنشدنا فيما[3] بين يديه من الأسفار والأزهار عِلا ، حتى قلنا أنه قال ذلك مُرتجلا : [بسيط]

إنى اطّرحت سوى ما تستلذّ به ... عينى وسمعى من زَهر ومن أدَب

فلستُ أبرح والأيام شاغلةٌ ... أُقسّم الطرف بين الرّوض والكُتب

كم رُمت حيث نجومُ الأفق مَرتبةً ... فعارضتنى خُطوب الدّهر فى الرُّتب

لئن أعطتنىَ الأيام خِبرتها ... أرحتُ نفسىَ من هَمّ ومن تعب

وإن بُليت بشخص دون منزلتى ... فالبدرُ يُبلَى على عَلياه بالذَّنب

(١) ت : « فسافرت » .   (٢) ت : « المنزل » .   (٣) ت : « ما » .

ولما تمكّنا بمراكش فى مدة العادل اجتمعنا به هنالك ، وقد تلقّ بقبول طويل عريض ، ثم انفصل إلى بلده بجناح غير مَهيض ، وساق[1] لأصحابه ظهائر ، وصار له فى إشبيلية موارد ومصادر ، فوجد من ذلك فى نفسه أبو العلاء حتى نفاه ، وأسكنه اليسانة مدينة اليهود وأقام فيها مداه[2] ، إلى أن عفا عنه بالشفاعات وأقام بإشبيلية مُطّرح الجانب ، غير آمن شر العواقب ، إلى أن احتاج أبو العلاء كتاباً أُحيل فى وجوده على خزانة كُتبه ، فوجّه إليه فى طلبه رجالا كان فى وقوفهم على بابه قضاء نحبه ، فكُتب فيمن مات خَوَراً[3] من غير حين ، وكان ذلك فى سنة خمس وعشرين .

(١) ت : « وصار » .   (٢) ت : « وأقام فيها مدة » .

(٣) الخور ، بالتحريك : الضعف .

٣٥ - أبو بكر محمد بن قسورة بن زهر الإيادي

بنو زهر

حسب(1) بني زُهر بإشبيلية أشهر من أن يُنبَّه عليه، ومكانهم من العلوم والمناصب أجلّ من أن يُشرح ماله. وهم قسمان: بنو عبد الملك الذين منهم أبو بكر صاحب الموشحات، وبنو قسورة الذين منهم أبو بكر هذا. ولبني قسورة في جزائر نهر إشبيلية مظهر قديم، لم يزالوا يجرون من حكمه على صراط مستقيم.

من شعره في جنة قشتيلة

وكان للشيخ أبي بكر بن قسورة جنة قشتيلة أمام قورة، وهي مشهورة بحسن المنظر مقصودة بالتنزه، إذ هي بجزيرة معترضة بمحاسنها من صعد أو انحدر كالعِقد النفيس. وكم لنا بها مع هذا الشيخ وابنه «خصيب» الفتان الصورة(2) الظريف الأديب من ليال وأيام، كأنها في فم الزمان ابتسام، وكان يجري لنا في أثنائها من المجالسات المحتوية على فوائد الأدب، ما تنقضي بجمعه حقائب الحقب. ولا أنسى من لذات الدنيا يوما ركبنا فيه النهر إلى هذه الجزيرة، إلى أن أطللنا على مباني قورة، وهي أمامنا كالحسناء الغريرة، فهز الشيخ إلى القول ما عاينه من ذلك المنظر الذي لم يخلق لغير النعيم، فقال مخاطبا لي ولولده وهو في ذلك قُعدد(3) يزين التحكيم:

[كامل]

[52 B] / اشرب على الوادي على الأنسام | تهفو الصَّبا منهن بالأعلام
وانظر لقورة كالعروس وعقدها | نهرٌ حَباها منه نَبْه حُسام
واعطف على قشتيلة الغرّاء لا | تبرح تحيّيها بكأس مُدام
هي جنة الدنيا وإن نازعتني | فأقِم بها تأمن صُروف حِمام

مجانه

وكان الشيخ أبو بكر على حالٍ جليل من الصيانة، والخير والأمانة، حتى قدّمه أهل بلده إماما بجامعهم الأعظم، وكان — رحمه الله — حقيقا بأن يؤتم به ويقدم، وكنت أرغب في مجالسه، والاستفادة من منازعه وملاطفته.

بينه وبين وكيله

رأيته يوما وقد جاء وكيله بمرتّبه، فأعطاه درهمين منه. فاستحيا الوكيل وقال: لا إله إلا الله! أنا آخذ هذا القدر كما يأخذ الأجنبي من الناس! فقال: يا ولدي، هذه عادتي في كل شهر مع من ساق المرتب كائنا من كان، وأخاف إن منعت ذلك منك أن يصير عادة ويطيب لي الإمساك، فأفعل ذلك مع غيرك فيذمّني.

(1) ت: «وكانت».
(2) ت: «الصوت».
(3) القعدد: بالكسر والضم: العاجز، كأنه يزن القعود.

من شعره في متبرم

وكنت معه يوما في قبلة الجامع، وإذا بشيخ كثير التضجر والتبرم، فكثّر علينا ما كان به، فقال له الشيخ أبو بكر: الدار التي تسكن فيها هي لك أو بالكراء تسكنها؟ فقال: لي. فأفكر ساعة ثم قال، فأحسن ما شاء فيما نحاه من المنزع والمقال:

[كامل]

خُذْ بالتعزّي تسترح وانظر إلى | من حطّ دونك في الحظوظ وأُجْمِلِ
وانظر نُوَب الورى واصبر على | غمرات دهرك راجياً فتنجلي
كم من ذليل عاد وهو معزّز | وعزيز قوم عاد مثل مُذلَّل
دع التضجّر والتبرّم دائما | مستعجلا في الرزق ما لم يُعجَل
ما أنت في حالٍ تسوء وأنت قد | ظفرت يداك ببُلغة وبمنزل
دبّر الأمور وكن به متكتّما | والقَ الورى بتعزّز وتجمّل

وله يخاطب أبا العلاء

ومن المحاسن المقصودة قوله يخاطب أبا العلاء حين بايع لنفسه بإشبيلية:

[كامل]

والله ما أدري بما أتوسّلُ | إذ ليس لي ذاتٌ بها أتوصّلُ
لكن جعلتُ مودّتي مع خدمتي | لعلاك أحظى شافعٍ يُتقبَّلُ
إلا كنتُ من أدوات زُهرٍ عاطلاً | فالزُّهْرُ(1) منهن السماك الأعزل

(1) زهر الأولى: قبيلة المترجم له. وزهر الثانية: النجوم.

[53 A]

٣٦ - أبو على عمر بن محمد الأزدى الشلوبينى(*)

بلده

ينسب إلى شَلَوْبينة ، من حصون غَرناطة الساحلية ، وهو إشبيلى .

طلبه للعلم

كان والده خبازا بإشبيلية فأنفتْ نفسه من صنعته ، وانحرفت همتُه من حرفته ، وعكف من صباه على النحو حتى برع فيه ، ولم يترك أحدا فى عصره يوازيه . شهدتُ مجلسا إقرائه بإشبيلية غاصًّا بالبلديِّين والغُرباء من الآفاق ، ثم رحلت فوجدت ذكره قد ملأ مسامع الشام والعراق ؛ كان مع إمامته فى النحو مُقرئا لمصنَّفات الأدب الجليلة ، قائما بمعرفتها وضبطها وروايتها ماهرا بذلك غُدُوَّه وأصيلَه .

منزلته وكتبه

قرأتُ عليه منها "الكامل للمبرد" و"ديوان أبى الطيب" ، وسمعت غيرى يقرأ لديه غير ذلك وهو فى جميعها كالعارض الصيِّب ، إلا أن النحو كان الغالب عليه ، والجالب من أقطار البلاد إليه . وله فيه تصانيف مذكورة ، منها : التوطئة ، ثلاث نسخ ؛ شرح الجزولية . وكان كلما صنف كتابا زاد فيه بزيادة عمره ، ولا يخلو منه إلا بحلول قبره . واشتهر فى إقرائه بحدة الخلق والسب لأئمة النحو وغيرهم ممن يعرض له ذكر لا يبالى من وضع فيه لسانه ، شأنه ذلك أمره .

لابن حبة فيه

وفى هذا الشأن يقول ابن حُبَّة الطبيب ، وكان ربما ألمّ بمجلس إقرائه إلمامَ الرقيب :

[وافر]

تجنّبْ إن رشُدتَ أبا علىٍّ ... ولا تقربه ما بين الأنامِ
ونكِّبْ نحوه إن كنت تأبَى ... وتأنفُ همةً سَقَطَ الكلامِ
يمدُّ الرجل فى الإقراء جهلاً ... ويلعن سيبويه بلا احتشام
وإن بإزاه مُعترضٌ بحق ... سمعتَ لديه غوغاء الطَّغام

هو وابن الصابونى

واتفق له مع ابن الصابونى الشاعر الحكاية المشهورة ، وذلك أن الشاعر المذكور كان يلقب بالحمار ويغتاظ من ذلك ، فبينما هو ذات يوم يقرأ عليه كتاب «الإيضاح» إذ مرت مسألة :

(*) المغرب (٢ : ١٢٩) التكملة لابن الأبار (ص ٦٥٨) بغية الوعاة للسيوطى (ص ٣٦٤) الديباج المذهب لابن فرحون (ص ١٨٥) الشذرات لابن العماد (٥ : ٢٣٢) النجوم الزاهرة (٦ : ٣٥٨) .

لحن مَرْوان بجزم* ، وتشعبت المذاكرة إلى أن اغتاظ الأستاذ عليه ، فزحف إليه من موضعه وقال له : ياحمار ابن حمارين(٢) ! وجعل يصعد هكذا شيئا فشيئا إلى أن قال له : ابنة ألف حمار ! إملأ الأرض حميرا ! ثم جعل / إصبعيه فى أذنيه ونهق وهو يزحف إليه . واجتمعت العامة على باب المسجد ، وكانت حالة مضحكة .

[53 B]

هو وأبو العلاء وقد منعه مجلس الفقه

وكان أبو العلاء بن المنصور قد جعله يحضر مجلس المذاكرة فى المذاهب ، فوضع لسانه فى أئمة الفقه ، فمُنِع الحضور من حينئذ ، وقيل له : أنت رجل لا تترك عادتك ، وأئمة الفقه ليسوا كأئمة النحو ، ويخشى عليك من أن تتعرض لسفك دمك .

من نثره

ولما سافر أبو العلاء إلى مُرْسية خطب خطبة قال فى أولها : تملك الله وتدرك . وكان يجعل السين والصاد ثاء ، فتطيَّر الناس بذلك ، وكانت الحركة على ما اقتضاه الدعاء ، لم يرجع إلا وقد ثار سلطان الأندلس عليه .

شعره فى غلام

وكان له نظم اشتهر ، منه قولُه فى صبى اسمه قاسم ، وهو مما سمعتُه منه وكتبته ، لأنه يهزمه :

[طويل]

وما نمَّى قلبى وفَضَّ مدامعى ... هَوًى قدَّ قلبى إذ كلِفتُ بقاسمِ
مَنَنْتُه جَهدى فكان لِشقوتى ... وطُول عنائى قاسياً غيرَ راحمِ
وكنت أظن الميم أصلاً فلم تكن ... وكانت كميمٍ أُلحقت فى الزَّراقمِ

والزراقم : الحيات . والمراد أنه قاسى . فانظر إلى هذا التكلُّف فى الغزل ، والتعسف الذى يظهر فى كل قول وعمل .

من شعره

وأنشد أيضا فى مجلسه لنفسه ، وأنا أسمع قوله :

[بسيط]

لو لم تكن لِىَ أعراقٌ لها كَرَمٌ ... ولم يكن فى رجال الأزد لى سَلَفُ
لكان فى سيبويه الفخرُ لى وكفَى ... بذاك فخرًا فكيف العلم والشَّرفُ
والحمدُ لله حمدًا لا انصرامَ له ... فكُلُّ ذى حَسَدٍ فى مثل ذا يَقِفُ

(٢) ب : « يا حمار يا حمارين » .

من غفلته — وله حكايات مشهورة في الغفلة، منها عُقود العنب الذي وضعه في نهر إشبيلية، وهو في القارب حتى يبرد، ثم مد يده ليأخذه.

ملحه — ومنها أنه كان ينسخ والشمير إلى جانبه، فينشر الورقة بالشمير فتسود جميعها.

ومع هذا فإنه كان من ذوى المروءات والعصبيات[1]، له في ذلك غير حكاية، وأما في درجة العلم والدراية، فإليه كانت قصَبُ الغاية.

وفاته — وكانت وفاته ببلده إشبيلية في سنة ست وأربعين وستمائة، قبل استيلاء العدو عليها بقليل.

---

(1) ت: «التعصبات».

٣٧ - أبو الحسن على بن جابر الدباج الإشبيلي*

[54 A] ثنى عنه — تمكن من الأدب بمنزلة عالية، لا تزال مجالسه بمحاضرتها حالية، ونسخ من تصانيفه[1] بعثة إلى ما يبقى الخاطر، ويقصُر عن نضارة منظره مطلول الروض الزاهر. وهو ممن زال يليه مدة، ورويت عنه من الكتب عدة؛ وكان مع رقة حاشيته، وتلطفه مع أهل غاشيته، أمتن الناس دينا، وأخلصهم فيه يقينا؛ حتى إن أهل إشبيلية ارتضوه بالجامع لبني إماما، ورزقه الله من حب الخاص والعام ما صير حبه لزاما؛ فحيثما توجه لقى القبول، والبر الموصول. وكانت له في أثناء إقرائه نوادر سوائر، وثوبه مما حرم الله طاهر.

هو ورجل في مجلسه — كان أحدُ المتطلبين الأعيان، كثيرا ما يلزَم مجلسه لغرض كان له في بعض القوم، فدخل يوما فرفع الأستاذ رأسه وقال: ارجع إنه ماجاء اليوم. فخجل وعاد على حافرته[2]، ومنعه ذلك من مخالطة الصبي ومجالسته، ثم لم تمر الأيام حتى قرئ بمجلس الأستاذ قول المتنبي:

[بسيط]

وقد طرقتُ فتاة الحيّ مُرتديا ... بصاحب غير عِزهاة ولا غَزِلِ

فقال ذلك الرجلُ المتجنب: سيدى، ما العزهاة؟ فقال الأستاذ: العزهاة: من ينفر عن اللهو ولا يعود إليه. فقال: يا أستاذ، ما أدرى ما أعمل، إن أقمتُ عتبتَ، وإن تغيبتُ عِبتَ[3]. فضحك الأستاذ وقال ما معناه: لولا هذه السرائر، ما حفظت النوادر.

هو وصبي كان يقرأ عنده — وكان يقرأ عنده صبي من أعيان الجند له شارة ونخوة، فصاح به يوما: يا أستاذ، فلان قال لي: أعطني قُبلة. فقال الأستاذ غير مكترث: وأعطيته ما طلب؟ قال: لا. قال: خيرا فعلت، لا تعطه شيئا. وأخذ فيما كان بسبيله من الإقراء. ولما خلا المجلس جاء الطالب وقال للأستاذ: والله ياسيدى لقد كذب هذا الوغدُ علىّ. فقال: يكفي ما كان، وإياك أن تطلب حاجة أخرى، وتقول أيضا: يا سيدى، كذب علىّ! فضحك وانصرف خجلا.

(*) الرايات (ص ١٦) التكملة لابن الأبار (ص ٦٨٣) نفح الطيب (٢ : ٣٢٢) بغية الوعاة للسيوطي (ص ٣٤١) الشذرات (٥ : ٢٣٥) النجوم الزاهرة (٦ : ٣٦١).

(1) ت: «تصانيفها».

(2) على حافرته: أي على طريقه الذي أحسن فيه.

(3) ت: «تغيبت تغربت».

من شعره

وله موشحات ومقطعات . ومن أحسن ما أخذته عنه من شعره قوله متغزلا :

[بسيط]

لما تبدّت وشمس الأفق بادية ٌ   أبصرتُ شمسين من قُرب ومن بعدِ

من عادة الشّمس تُعشى عينَ ناظرها   وهذه نورُها يَشفى من الرّمد

[54 B] وقوله ، وقد خرج مع طلبته برسم الفرجة وأكل المُجبّنات يوم خميس / ابريل على عادة أهل إشبيلية ، فلما قُرّبت مائدتها مدّ الأستاذ إليها كفّه ، ما ردّه حرُّ نارها ولا كفّه ، وقال :

[كامل]

أحلى مواقعها إذا قرّبتها   وبُخارها فوق الموائد سامي

إن أحرقت لمّا فرنَ أوارها   في داخل الأحشاء بردٌ سلام

وفاته

وكانت وفاته رحمه الله بإشبيلية ، وقد آن أن يغلب العدو عليها ، في شعبان أرّوقة أبي علي الشّلوبين .

٣٨ - الأعلم البطليوسي أبو إسحاق ابراهيم بن قاسم*

شيوخه

قرأت عليه مدة ماشاء الله من كُتب ، ووقفت على جملة من تصانيفه التي كان يزعم أنه لم يخلق الله تعالى من يصنّف مثلها في فنون العرب .

من خلقه

وكان صعب الخلق يَطير الذّباب فيغضب ، وأما من تبسّم من أدنى حركاته أو نطق فلابد أن يُضرب .

من نوادره

وله بهذا الشأن ، حكايات تحتمل أكبر ديوان . ومن نوادره في التبرم وشكاسة الأخلاق ، أنه قال في إشبيلية ، ولم أسمع بهاج لها أو مفضل عليها أفقا من الآفاق :

[مجتث]

يا حِمص لازلتِ داراً   لكل بؤسٍ وساحة

ما بِك موضعُ راحه   إلّا ومافيه راحه

شعره في فتنة الباجي

وكان والدي كثيرا مايتعجّب من تبرمه بالزمان ، والوقوع في الإخوان وأصحاب السلطان . قال : جلست معه يوما وأخذت فيما حلّ بإشبيلية أيام فتنة الباجي وقتل من قتل ، ونفر من أنفر . فأطرق وتنفس الصُّعداء وقال : دعهم ، لايفلحوا إذا أبدا . ثم أنشد :

[وافر]

دَع الأيام تُنصف من أناسٍ   إذا صارت لهم حَقروا الكِراما

ولا تَدمع جُفونُك إن تفانوا   ولا تَقرأ على أحدٍ سلاما

وَنكّب عن مَصارعهم بجزاه   ولا تَحفظ لمَذموم ذِماما

وفكِّر في صَنيعهمُ وُلاةً   لتشكر في تَسرّعه[1] الحِماما

صحبتُ الناس جيلاً بعد جيل   فلم أرَ مَن أودّ له المُقاما

ثم اجتمعت به بعد ذلك فسألته عن قائل هذه الأبيات ، فقال : إنها من جملة مانظمته من الزهات .

مولده وشيخه ووفاته

وكان مولده ببطليوس . وقرأ بإشبيلية على الأستاذ هذيل . وكان يحكي كثيرا من نوادره ، [55 A] ووقع بتزيه / في موارده ومصادره . وتركته بإشبيلية في جملة المقرئين ، ثم بلغني أنه مات بها سنة اثنين وأربعين .

(*) المغرب (١ : ٣٦٩) بغية الوعاة (ص ١٨٥) .

(1) ب : «تصرعه» .

٣٩ – أبو المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبى غالب بن الهيثم الإشبيلى(*)

ثناء عليه

المشهور بالحفظ والارتجال . بدر الحلك ، ونادرة الفلك ، البحر الزاخر فى الرواية ، والروض الناضر فى المعرفة والدراية . إن أخذ فى الإيراد والإنشاد ، فكأنما رُد إلى الجلد جماد . فارس ميدان الارتجال ، فى أى نوع طلب من الأشعار والموشحات والأزجال .

من ارتجاله

عهدى به عند والدى فى دار المختص بإشبيلية يُمل على شخص قصيدة ، وعلى آخر موشحة ، وعلى آخر رسالة ، وكل من حضر يعوّذ بالله بديهته وارتجاله .

من حفظه

وسأله والدى يوما عن لغة . فنقلها من « الغريب المصنف(١) » ، فاعترضه من قصّر بنفسه واستهدف ؛ فأخذ يسرد الكتاب من أوله حتى وقف عند تلك الكلمة ، وقد كاد يموت ذلك الذى غمطه حقّه وظلمه .

من حفظه

وبات ليلة فى سماع ، فابتدأ السمع بشعر على القاف فأظهر حفظه ، فقال له بعض الجماعة ممن لايعرف قدر حفظه : أراك تذكر هــذه الأبيات ! فضحك وجعل ينشد من محفوظه على حرف القاف إلى أن طلع الصباح ، وقد مَجّ كل من أحفى السمع وصاح ، وهو يهدر فى طريق غير مغلق وينشد :

[كامل]

• أرق على أرق ومثلى يأرقُ •

فانتهى به انتهاء الليل فى هذا الموقف ، ومات من الخجل مَن ظل يعرف بما لايعرف .

من زيه

وكان على حال عجيبة من الزى الخشن(٢) الوسخ الأطراف ، إلا أنه مع ذلك لايزال كثير الإلمام بمنازل الكبراء والأشراف ؛ فيحتملونه على علاته ، كما يُشم الورد فى نجراته .

اجتاز يوما بسقيف أبى الحسن بن الفضل الذى تناهى إليه الظرف بإشبيلية ، وبين يديه ولد له من حُور العين ، وعليه من الثياب المدبّجة مايليق بتلك الحال من التزيين ؛

(*) نفح الطيب (٤ : ٣٤٨ ، ٥ : ٢١٥ ، ٦ : ٦٧) الرايات (ص ١٨) المغرب (١ : ٢٥٨) التكملة لابن الأبار (ت ٢٠٢٥) .

(١) هو لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ .

(٢) ت : « الطف » .

ثم جلس ثم أخذ يقبّل الطفل ويتقرب إلى والده على زعمه بضمّه ، فلما تأنس به جمع جميع ماكان اشتراه أمثاله من خمص المرق وأودعه فى كمه . فلما رأى الصبى أهل بيته يبكى ورمى بالخمص عند بابه ودخل إلى الدار فى صياح وعويل ، والهيثم فى أثناء ذلك يلتقط مارمى به ويضمه من كمه فى أوسخ من منديل .

[53 B] مقتله

وكنا ربما أحضرناه فى الفُرج لنتمتع بآدابه وارتجاله ، وتغافلنا عنه عند(١) ذكراه لسقوط همته وابتذاله . وآلت به الحال إلى أن خرج فى حصار الباجى وشدة ذلك الغلاء إلى شريش فتم بنهب فقُتل عليه شرَّ قتلة ، وهيهات أن يخلف الزمان بالأندلس أوغيرها مثله . وكان ذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

من شعره يخاطب أبا العلاء

وسمعت منه من شعره كثيرا ، ولكون معظمه لم تُنضجه الروية ، قصر عن الإكثار منه ناظرى ولم يكن لى فى غير ما أورد منه فى هذا المكان نية . فمن ذلك قوله يخاطب أبا العلاء المأمون بإشبيلية ، وقد جرى بينه وبين بدوىّ من أهل الشرف وقفة ملهية :

[طويل]

تعرض لى بالبدو أهوجُ طائش ... أتى مُسرعا نحوى تأبط لى شرّا

وذكرى عجوزى وهى تبكى تأسفا ... على بكا الخنساء ذكرى صخرا

بادرتُ من جنبى صفاةً كقلبه ... لأن يفتتح بابًا فتحتُ له(٢) شبرا

فأقسم لولا أن نحوتُ له بها ... لقد كان لى زيدًا وكنتُ له(٣) عمرا

له فى الشكوى

وقوله ، وقد نظر إلى باب غنى مَزُورا ، وبابه إلى جانبه مهجورا :

[بسيط]

يُحمى الفقيرُ ويغشى الناسُ قاطبةً ... بابَ الغنىّ كذا حُكمُ المقاديرِ

وإنما الناسُ أمثالُ الفَراشِ فهُم ... يرُوْن حيث مصابيح الدنانير

له من رسالة

وقوله فى رسالة :

[بسيط]

قد كنتُ أودع سِرّ الشوق فى طِرْسٍ ... لكننى خفتُ من نارى على الطِرْسِ

(١) ت : « من » .

(٢) ت : « بها » .

(٣) يشير إلى المثل الجارى على ألسنة النحاة : « ضرب زيد عمرا » .

وقوله فى سَبيل إشبيلية المشهور ، الذى إذا طَما أتى على المَنارة والدُّور : وله فى سبل إشبيلية

لله حِمْص أيما بلدةٍ   لو أننا نأمنُ تُقْبانَها[1] [سريع]
طاف بها والريحُ زوّج[2] له   فابتلع الأرضَ وسكّانها

وقوله وقد حضر عشية مع شَرْب بين ما بالفنت[3] من الرياض والمذانب، وقد جنحت الشمس إلى المغارب :

حبّذا الفنت ووادِيــــه إذا رقّ الأصيلُ [مجزوء الرمل]
والصَّبا مدّت على الرَّو   ض جناحيها البَليل
ولَنور القَول الحا   ظ لها القلبُ يَميل
وبقايا الشمس فى الأُفْـ   ـق كما احمرّت نُصول

(١) الثعبان : مجارى الماء . (٢) ت : «رفع» .
(٣) هو فنت الله (Hontalla) : من منازه إشبيلية .

٤٠ - أبو الحجاج يوسف بن عتبه الإشبيلى(*)

[56 A] في عمله

[كان] ظاهر المَرَح، وافر الأرتياح والمَرَح، يضجر فى المحاضرات، ويَلجُّ فى المذاكرات. جالسته كثيرا بإشبيلية فكنت ربما قدحت زنده لأقتبس من ناره ، فلا أخلو من الضرر بوابل شراره . وكان مشاركا فى الطب والأدب ، حائزا بأسبابهما ما يقصُر عنه مِن نابه أرب .

لأبي علي فيه

وفيه يقول الشيخ أبو علىّ ، ابن الشيخ أبى موسى ، ابن الشيخ المقـدس المرحوم أبى حفص : [مجتث]

إنّ ابن عُتبة فيــه   من الجنون ضُروبُ
يضجّ بِفراط منــه   ويَستجير[1] حَبيب
ما فيــه عيبٌ ولكن   الكُلّ منــه عُيوب
سُـــوء التأدّب يَحوى   وهو الحكيم الأديب

مؤلف شاعر

ومع هذا فإنه كان حافظاً لفنون الآداب، مصنّفا فيها غيرَ ما كتاب، غائصاً على المعانى تزين عليها قوة التخيل، صاقلا للألفاظ التى لاتخلو من حُسن الإبداع والتحيّل. له موشحات لرقة لطيفة يُغنّى بها فى الأقطار، ويعرف بها ما كان له فى تلك الطريقة من سُموّ المقدار.

من مجالس ابن سعيد معه

ومن المجالس[2] التى جرت لى معه، ولم أكن لمُراده فيها بإمّعة ، أنه قال لى يوماً ونحن نتغزل من أهل هــذه الصناعة ، وما منهم إلا من هو موفور البضاعة : لقــد نُمّ أهل زمانكم بوشحة مهرهم التى يقول فيها :

• ورداء الأصيل يَطويه كفّ الظلام •

قلت له : تُصحف أو تصرف ؟ فقال لى : ستجدنى إن شاء الله من المُنصفين. قلت له : أليس يُعذرون[3] على ذلك وشيخكم إمام الوشاحين أبو بكر بن زُهر لما سمع

(*) المغرب (١ : ٢٥٨) الرايات (ص ٣١) نفح الطيب طبعة أوروبة (١ : ٨١٥) طبقات الدولة أبى أمية .
(١) حبيب ، هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الشاعر . (٢) ت : «والمجالسة» .
(٣) ت : «يعذرون» .

هذا الذى نفروا به أظهر استحسان مثله من الأدباء، وقال : أين كنا نحن من هذا الرداء ! فقال : قد قلتُ أنا خيراً مما قال ، ثم أنشد ما بيّن فيه عجز نفسه عن ذلك المجال :

• والظلام قتيل والصبح دامى الحُسام •

فقلت : الله أكبر ! الآن يبدو الحق ويظهر ، أخذت «والظلام قتيل» من شعر المتنبي ، وأخذت ما ألفقته به من قول أبى جعفر بن سعيد :

[وافر]

شَرِبْنا ها وجيشُ الليل يعدو　　وأنجُمُه عوالٍ للرِّماح
إلى أن خَرّ شاكى الليل مَيْتاً　　وسيف الصبح مُحْمَرّ النواحى

وبُهت ولم يُحر جواباً، وأطرق تأسّفا واكتئابا. ثم قلت له : «ومع أنك متّبع والمُهرُ متبوع، [56 B] فإن كلامه لائق بمجالس السرور، وكلامك لا يجب أن يسمع إلا حيث تُقْرع البيضُ بالذكور[1]». فانصرف مُغضبا من ذلك الانخزال ، وهو يقول بألفاظ الحرج : ما الذنب إلا لمن يخاطب الجهّال . ثم اجتمعت معه بعد ذلك فتبسّطته باللين فى محاضرته ، وطلب ما يستفاد من مذاكرته . فأنشدنه من شعره ، ما برّز به على أبناء مصره ، وذلك قوله :

[وافر]

أعدنا لَحْمَة الظلماء ناراً　　براح بات مُوقدها براح
فأشرقتِ الجهاتُ بها وزادت　　بما آسترقَتْه من غُرر الملاح
وما زِلنا نُدير الكأس وِرداً　　وروضُ الجو يَبسم عن أقاح
إلى أن شُقّ جَيب الليل شوقاً　　وصُبّ بكأسنا ضوءُ الصباح
وقد بُطحت بكؤوس الراح منّا　　لما صَرعى على تلك البطاح

من شعره　وقوله، وقد حضر مع شَرب بجنّة من جنات إشبيلية ، وهم على الحالة التى ذكرها ابن وكيع فى قوله :

[منسرح]

قُم سَقِّنى والخليجُ مُضطرب　　والريحُ تَثنى ذوائب القُضُب

(١) البيض : جمع بيضة ، وهى ما يلبس على الرأس بجنّة ، والذكور : السيوف ، وقت : «وحيث تقرع مثيل الجيش الذكور» .

فقال :

[كامل]

انظر إلى الغُصن الذى تَهفو به　　ريحُ الصَّبا وتُميله نحو الكُؤوس
أوَما كفاه شُربه من طَلّه　　أولا فلِم جُعلت ذوائبه[1] تَنُوس
أَسقيه من أكواسنا ولو آنه　　سكرانُ يَطفح حتى مالَتِ الرءوس

هذا الطراز العالى ، والنظم الذى يُقصّر بنظام اللآلى .

ومما أنشدنيه من شعره الذى هزّنى هزّ الحُسام فى يد الشُّجاع ، وحاز به غاية الإبداع والإمتاع ، قوله :

[مديد]

أنجزتْ وعدى على[2] غَرَرٍ　　فقطعنا الليلَ بالسَّهرِ
فى حديثٍ لا يكدّرُه　　مَرُّ وَسواس من الفِكر
وكأنّى إذ أُضاجعها　　بِتُّ فى رَوض النّدى العَطِر
فى خِتامٍ من تعانقُها　　خِلْته نَسمة السَّحر
نـدعنى للـوَداع فلم　　تُبقِ مِن نفسى ولم تَذر
قلتُ ماذا السيرُ فى عَجَل　　وغُراب الليـل لم يَطر
فأنثنت كالغُصن مُشتملا　　بفُنون النّور والزَّهر
ثم قالت كُل ذى غَنَج　　وَدلالٍ غير مُعتذر
قُم فودِّع[3] غيرَ منتقد　　قبل شَوب الصَّفو بالكَدَر
نعانقنا لفُرقتنا　　ثم لا تسأل عن الخَبر

وأخبرنى صاحبه بمصر أبو الفضل التِّيفاشى قال : قدم علينا بالقاهرة الطّبيب/أبو الحجاج التيفاشى عنه [57 A] ابن حبة، فلم يجد من يُقبِل عليه إلا كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور، فصيّره

(١) تنوس : تتحرك وتتذبذب متدلية . (٢) غرر : خطر وتعرض للهلكة . (٣) ت : «ودع» .

مشاركا مع أطباء المارستان ، وكان يأنس به في بعض الأوقات مؤانسة الإخوان، فسألته عن أخبار بلاده ، فقال : فارقت الأندلس مضطربة بدولة ابن هود ، ومع ذلك فإن الرجوع إليها أحب إليّ لما هنا من أشغال النصارى في الدولة واليهود ، ثم قال :

[مخلع البسيط]

أصبحتُ في مصرَ مُستضاماً — أرقصُ في دولةِ القرود

وأخيبةَ العُمرِ في(1) أخير — مع النصارى أو اليهود

بلحد رزقُ الأنام فيهم — لا بذوات ولا جُدود

لا تُبصر الدهرَ من يُراعي — سمتَ قصيدٍ ولا قُصود

أودّ من قومهم رجوعا — للغرب في دولة ابن هود

قال البيقاني : أنشدني هذه الأبيات [illegible] وكيف جاءت ، فقال : [illegible] ما أراد الخبيث في البيت الأول ؟ قلت : [illegible] القرود في دولته . فقال : قد أشار إلى شكل الغز وتسبيهم . قال : فعجبت من [illegible] وطنه .

وفاته
وكانت وفاته بالقاهرة سنة ست وثلاثين وستمائة .

---

(1) [illegible] العمر . (2) ت : « [illegible] الأدب » .

٤١ — أبو العباس أحمد بن عفير

[illegible]

أخبرنى الشيخ الجليل أبو يحيى بن هشام أنه أرسل إليه هذ الأبيات مع الدارق الذى يقرأ بين يديه فى مجلس الوعظ ومعه قلة مُزَفَّته . قال : فحلفت أنه ليس فى منزلى قليل ولا كثير مما يطلبه . فعاد وقال : يقول لك : إن لم يكن فى دارك مُدام ، ففيها كثير من أنواع [^(١)] السُّحت والحرام ، ودنُّ المدام [^(٢)] ملآن ، ولى خاطر ولسان . قال : فاستعذت بالله من زوقه ، وأعدت رسوله يشكو ثقل قُلّته [^(٣)] .

من حكاياته — ومن حكايته الطريفة أن أحد التجار الذين يحسنون الظن بالوعظ آستدعاه إلى منزله ، وقد نَشَزت عليه آمرأته ؛ لِيُصلح بينهما برقائق وَعظه ، ورقائق [^(٤)] لفظه ، فلما وقعت عين الواعظ عليها حَشر الشعبى [^(٥)] من [^(٦)] أكفانه ، وجعل يُبدى فى طى نصحه ومُلَحه لواعج أشجانه ، ثم قال للمرأة ، فى آخر كلامه : وإن كنت قد أبغضتِ الرجلَ لكونه من صنف التجار وأطراف العاقة ، فأنا طوع يديك فيما تُريدين ، فمالت إليه فى الحين ، وانتقل من طريقة المُريدين ، إلى طريقة المُرتدِّين ؛ وفسدت على بعلها الفَساد الذى لم يَؤُل إلى صلاح ، فطلّقها وتزوجها الواعظ بنكاح خيرٌ منه السفاح ؛ وهذه لفظة من بحره ، وساعة من دهره .

---

(١) التكملة من ت . (٢) ب : « ودير الروم » .

(٣) ت : « بثقل قلته » . (٤) ت : « ودقائق » .

(٥) كذا فى الأصلين ، والمعنى بها غير واضح . ولعلها : « نشر » .

(٦) يريد أنه يشبه الشعبى الواعظ فى ورعه .

٤٢ — أبو عبد الله محمد بن ثابت

شىء منه — أستاذ الجزيرة الخضراء ، وشيخ من لقيت بها من الأدباء ؛ جالسته كثيرا ، واستفدت من كتبه غزيرا ، وكان كثير الغاشية ، رقيق الحاشية ؛ يرجع إلى دين متين ، مع خلق أرق من النسيم وأرج من مسك دارين [^(١)] .

[58 A] بينه وبين ابن سعيد فى كلام — بينا أنا / معه ذات يوم بالجزيرة الخضراء فى موضع إقرائه ، إذ مرّ بنا غلام يميس فى برود تيهه كالغصن فى ورقه وأنداثه ، فقال :

[مخلع البسيط]

هـذا هو المنطق الجميلُ   فكل قلب له يميـلُ

قلت :

* قد حال بينى و بين عقلى *

قال :

* أفى الهوى تُطلب العقول *

شعره إلى أبى عمران — وكتب إلى والدى ، وقد أغفله أيام آشتغاله بالجزيرة الخضراء عما كان يتعاهده به [^(٢)] :

[متقارب]

أتنسى فديتُك مَن لم يزل   مدى الدهر يذكُرُ ما تصنعُ

وما زِلتُ ذا ثقـة منكمُ   بما قـد أراه وما أسمع

وأنت عليمٌ بأنّ الزمان   يضُر إذا شئت أو ينفع

فكتب إليه بما شاء [^(٣)] ، وأزال عنه بالإحسان ما ساء .

---

(١) دارين : مرفأ بالبحرين .

(٢) ب : « به » .

(٣) ب : « من شىء » مكان « بما شاء » .

٤٣ - أبو بكر محمد بن عمر الأندى*

منسوب إلى «أندة»، حصن من أعمال رندة. هاجر إلى إشبيلية فاشتغل بها ومع ابن سهل بالتكثر من فنون الآداب، ومُناهبة فرص أيام الشباب، وكان كثير الخروج معنا إلى الفرج جامعاً في ميدان الشعر جاريا منه على أوضح مُنتهج، إلا أنه كان قاصرا عن طبقة ابن سهل فلذلك أضربت عن كثير من ارتجاله معنا إذ لم يكن لهذا المظهار بأهل، إلا أنه وافر عمره عذب شربه، ونما عُشبه، والمعاشرة تعجبك، وأحسن المذهب الشيك.

من شعره في ولد

فلما رأيته أهلا لهذا المكان، وثنيت عن سواه مطلقُ(٢) العنان، قوله وقد سايرني فرس كان بإشبيلية زمان الباجي، وكان عبّاد بن عبّاد بن خيار في ذلك الأوان مطمع الحي والتناجي؛ فرأيناه مقدما على جند أبيه كالبدر بين الكواكب، وكل أديب يشير إليه ويقول: هذا زين المواكب:

[سريع]

سطوة عبّاد لعباد ... ما بين إصدار وإيراد
إذا رنت مُقلته نحوها ... فإنما الموتُ بمرصاد
أبصرتهُ في بيرَة عارضاً ... كالبدر في أنجُم أجناد
وأعينُ الناس إلى حُسنه ... مِن حاضرٍ فيهم ومن باد
وسُندسيّ الخزّ من فوقه ... كأنس في الدّوح ميّاد
فقلتُ واشوقي إلى لثمه ... ما بين أعدائي وحُسّادي
لو لم تكن أيامنا أبرزت ... منه غزالاً بين آساد
[58 B] / ما دمتُ(٣) ألقاه فأرنو له ... فالدهرُ لي أيامُ أعياد

(*) المغرب (١ : ٣٣٨).
(١) ت: «منطلق».
(٢) ب: «ما كنت».

وله فيه

وقوله، وقد نظر إليه في ثوب أزرق، كأنه البدر إذا أشرق:

[وافر]

تطلّع في سماويٍّ فشابت ... له في ذلك الزيّ الظنونُ
فقلتُ إلية الأحزان تُبدى ... لنا والمُستهامُ هو الحزين
فقال لبستُها كيما تُسلّى ... فقلتُ هناك أعشقُ ما أكون
لقد شقيتْ بك الأرواحُ حزناً ... كما سعدتْ برآك العيُون

وتركته يخبط خبط عشواء في شبابه، وما أدرى ما تصرفت به صروف الزمان بعد تغزله(١).

(١) ب: «واتراني وزلاته».

٤٤ - أبو الحسن على بن معاوية الطريانى

ش، ت

منسوب إلى طريانة المقابلة لمدينة إشبيلية . شاعر أديب ، كبير أريب ، يجر تسلل معه مُجالسات أندى من الروض المَطلول ، وآنس من بلوغ المأمول ، وكان من أعرف الناس بالأخذ بالنُّفوس ، وأرقهم شمائل مع أنه على عفة وطهارة لم يقرُب قط ساحة الكئوس .

من شعره

فما أنشدنى لنفسه فأثبته فى هذا التقييد ، وحل عندى محلّ المحتاج إليه المفيد ، قوله يخاطب بعض الرؤساء الأجواد ، وقد طالت غيبته لألم حجبه حتى عن العُوّاد :

[بسيط]

يا غائباً أثَّرتْ فى الأُنس غَيبتُه … تَفديك أنفُسنا من كُل محذورِ
أنت الذى تأخُذ الأيامُ زينتَها … منه ومنك تُمِدّ الشمسُ بالنُّور
ماذا يَريبك من جُود ومن كرمٍ … وحُسن خُلق وفَضل غير محصور
فلا شكوتَ مدى الأيام من ألمٍ … ودمت فى جِنّة للنّفع فى الصُّور

وقوله ، وهو ممّا أولع بقصده ، وأكثر فى نظمه من تردّده :

[بسيط]

رُوحى الفداءُ لمن رُوحى تَراحُ به … من كُل همّ نَمّ والسمعُ والبصرُ
تصرّفتْ مُهجتى فى حُكمه كلَفاً … كِتِل ماحكت فى ظلها الصُّور

وله

ومما كرر فيه ، فكان من أنبل مناحيه ، قولُه :

[مديد]

لا أراكَ الله يا أملى … مارأتْ عَينى من السَّهَرِ
خُلِقتْ نَفسى مُفزّعةً … قبل أن تحتلّ فى بصَرى
فغدتْ ملآى تَجيش هوًى … باتّصال الشّوق والفِكَر
ويَلوم العاذلون[1] وما … يَعلمون العينَ بالأثر

(1) ت : « العاذلون » .

[59 A]

ألو دَرَوْا أنّى أهيمُ بمن … قلبُه أقسى من الحَجَر
لا يُجيب الدهرَ داعيَه … نخوةً لم تَخْلُ من أشَر
وأنا فى طوعه أبداً … كاتّباع الظلّ للصُّور
عَذروا فى محنتى ورأوْا … أنها من جُملة العِبَر

وله ملغزا

ثم حكت الأيام بالفراق ، إلى أن آجتمعتُ بصاحب له بالعراق ، فتذاكرت معه فى شأنه ، وحل كل مجال فى ميدانه ، وأنشدته له ما تقدم ، وأنا أحسب أنّى لم أبق له فى المعانى شيئة من متردّم[1] ، فقال لى : غاب عنك أجلُّ ممّا حضر ، ثم أنشد له هذا اللغز الذى ، وهو الغاية لمن أنصف ونظر :

[طويل]

وخِلٍّ صفاء زُرتُه[2] فوجدته … وشخصى منه فى الضمير مصوَّرَا
وأودعتُه سرًّا فأبداه للورى … فيا حُسن ما أبدى الغداةَ وأظهرا
تطيع له جسمٌ بغير جَوارح … يُبارى الرِّياح الجاريات إذا جَرى
أبوه حَليفٌ للثُّريّا وأمّه … به حاملٌ فى بطن مُنخفض الثّرى
تُقِمّ عليه الريحُ ثوباً[3] مُفرّكا … وتكسوه شُهب الليل ثوباً مُدَنّرا

تمنيتُ أن يعيد الدهرُ لقاءه وهيهات ، ولا أدرى هل بقى فى الأحياء أو مات .

(1) متردم : الاسم مستطلح ، أى من كلام يلصق بعضه ببعض . يشير الى قول عنترة :
• هل غادر الشعراء من متردم •
أى مترة الى القول ثم يدعوا مقالا لقائل .
(2) ت : « صفا أوردته » .
(3) مترك ، أى مدلوك . ولعله يريد تموج سطح النهر الذى يشبه الثوب المتكسر .

٤٥ - أبو الحسن على بن حجدر الإشبيلى (*)

نبذة عنه

أكثر اشتهارة بالانطباع فى الزجل، وهو ممن جال ورحل، وكان حافظاً لمكث مثله بالأدب، قائلاً من الشعر مايُستحل فى بعض الأوقات ويُكتب فيما يُستعذب.

شعره فى غلام

جالسته كثيراً بإشبيلية وعهدى به صبيحة يوم وقد أقبل علينا فتى من أعيان بلده، له علاقة بخاطره، فالتفت إليه، وقال مسلّمًا عليه :

[الخفيف]

كيف أصبحتَ أيهذا الحبيبُ ... نحن مَرضى الهوى وأنت الطبيبُ
لاتَريد الزمانَ إلا قِفاراً ... وَبِحها باعْلَى منك القلوب
كل أنسٍ يَغيب عنّى إذاما ... كنت عنّى بأنْوَر عَنى تَغيب

له بيتان إلى أبى العرب

وعهدى به يوماً آخر وقد دخل عليه أبو العرب بن مَنظور، ووجهه جيد بكل لحظ منظور؛ فقمنا له وتحرك بعضنا ولم يتحرك الشيخ آبنَ جحدر، وفهم الإنكار فى وجه أبى العرب، فقال :

[مخلع البسيط]

أعذر أباك المُسِنّ وآطلُبْ ... بالأدب المُستحبْ غيرى
فما يُطيـــق القيامَ منّى ... شيء إذا جئتَ غيرُ أيرى

[59 B] / فخجل أبو العرب ثم قال :

* لابارك الله فيك شيئا *

فقلنا : هذا موزون، وأعانه الجماعة فقالوا معه :

* ماعنده موضع لخير *

ولا أقام الإله أيراً ... يَسير إن قام شر سَيْر

موته

وطال عمره حتى جاوز التسعين، ومات سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

(*) المغرب (١ : ٢٦٢) نفح الطيب طبعة أوربة (٢ : ٤٦٢) .

٤٦ - أبو بكر عتيق بن أحمد بن ميسرة الفرغليطى

نبذة عنه

أحد الشيوخ الذين شرب الدهر عليهم وأكل، من فرغليط، قرية من قرى شقورة . يُرمى بالأحوال المنقصين للرجال فى كل قول وعمل ؛ عقربى الطبع، مشنوء الوضع، خبيث الشكل، ركيك الفرع والأصل، لايسلم أحد من لسانه، ولا يبيت فى أمانه، ولو أنه مرق فى إحسانه .

ما يحكى عنه من تحريقه الناس

ومن الطرف مايحكى عنه أنه استعار من أبى العباس بن بقى - مُشرف إشبيلية - كتابا، وجعل يطالعه ليلة أن يذم الرجل، فسوّد ذلك فى ورقة، فكان من ذلك : «والعجب من هذا المشرف الخائن الخائن، أنه يدعى الانتهاض فى شغل السلطان والأمانة، ومرتبه فى الشهر عشرون دينارا، ولقد أعطانى مرة ثلاثين دينارا . فمن أين تلك العشرة؟ وما أنفق فى ذلك الشهر؟» ثم أخذ فى ذمه، وذكر وخيم منشئه، وكيف تدرج إلى أن ولى الأعمال، وداس رقاب الرجال . ثم نسى وجعل تلك الورقة مابين ورق الكتاب المُستعار ورده إلى أبى العباس، فوجدها وقرأ مافيها وكاد يخرج من عقله من شدة الحَنق، ثم استدعاه وأوقفه عليها وأنّبه . فقال له غير مكترث : هذه عادة أهل الأدب . فأمر غلمانه فصفعوه، وقال : يافقيه ! وهذه مالة خدام السلطان، والأيمان تلزمنى لاخرجتُ من الثِّقاف(1) حتى لايبقى عليك مما أعطيتك درهم واحد . فما خرج من حبسه حتى قَبض منه ثلاثين دينارا . واشتهرت الحكاية فاستثقلها من سمعها .

هو وابن البناء

وكان أبو بكر بن البنّاء الكاتب يقول : إذا رَفع لى ابنُ ميسرة بطاقةً بمدح أحرقها ولا أقرؤها، لأنه لايقول خيرا على أى وجه كان .

ومدحه مرة بقصيدة منها :

[مجزوء الرجز]

أَابْنَ بَنّاءِ الـوَرَى ... صِرتَ رئيسًا فى(2) الْقُرى

رأى أنه مدحه بأن جعله بنّاء الورى، وما كان أغناه عن ذكر الباء والنون .

شعره فى الرعينى

وكذلك جرى له مع أبى الحسن الرعينى الكاتب، قال فيه شعرا : [سريع]

يا ابن نَقّار الدُّنا لاتزل ... فى رِفعـة مُكمِدة لحسود

(1) الثقاف : أى الحبس .

(2) ت : «الورى» .

وكان أبوه نظّارا . وأنشده هذه فى محفل، فخجل أشد الخجل، والشاعر يرتجل ذلك وينشد دون خجل .

[60 A] من شعره

وأكثر شعره سخيف المَقطع والمنزع . وقد تتدرّك له الأبيات، فما أنشدنى إيّاه وحفظته قوله من أبيات :

[رمل]

قلم آبرى بعد ما أشبعتنى   وإذ الرّقّ آمتلا قلم يُدِه

وقوله :

[سريع]

هذا الذى أقبل ما أجمَلَهْ   طُوبَى لمن فى خلوة قبّلهْ
وبعد هذا ينقضى بيننا   ماتقتضيه ذِلّة المسألهْ
أبسُط خدّى فى الثّرى أو يُرى   يَبسط خدّيه لمن يَلِيهْ

وقوله :

[طويل]

توحّد إذا أحببت عن كُل ناصح   فسُحقًا لمن يَبغى شريكًا لحُبّهِ
فهم حذّرونى ما آستطاروا بنقله   وهم أبعدونى كى يفوزوا بقُربِهِ

موته

وآلت حاله إلى أن كانت حركةٌ(1) بإشبيلية، سنة خمس وأربعين وستمائة، أطلقت فيها أيدى العامّة على كُل من كان يركب فيها من أجناد النصارى، فهرب جُندىّ منهم فى درب غير نافذ، فصادف آبن ميسرة فى آخر الدرب فطعنه فى سَلعة(2) كبيرة كانت فى جبهته حلّ بها حَينه، وكفت المسلمين لسانَه وعَينه . فقد كان معروفا بأنه إذا نظر أحدا نظر استحسان، حصل فى أنياب نوائب الزمان .

(1) ت : «وكانت» .

(2) السلعة : الغدة تحدث فى الجسد .

٤٧ - أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الحجارى

نشأته

ينسب إلى وادى الحجارة من عمل طُليطلة . وبلد أبيه بيّاسة، ومنشؤه وناديه هنالك وفى جيّان . وكان أبوه مشتهرا بالأزجال، معروفاً فى البلاد بالحلّ والترحال، ونشأ أبو إسحاق مُغْفا بالآداب، طائراً من الشعر بالأهداب . وكُنّا كثيرا ما نجالسه ونتبرّج معه فى إشبيلية ونهيّئها طلبا للإمتاع بهذيانه، والتفكّه فى قلة إحسانه . وربما كان يرتجل القصيدة من مائة بيت ليس فيها ما يُعقد عليه بنان، ولا يَرويه فُلان عن فلان . وقد تقع له نادرة ولندرة، ويبعد أن تكون منه كرّة .

من شعره

يهذى به فى مجلس الباجى المُتْرَّى بإشبيلية يُنشده، إلى أن بلغ إلى قوله يخاطبه :

[كامل]

غرت بكم حمص على أمثالها   وبحقها وبحقها أن تفخرا

فغلب الناسَ الضحك .

وأما أبو يحيى بن هشام الكاتب فإنه غطّى أنفه قاصدا التندير فيه، وكنت فيمن يليه . ثم أنشد بعد :

إن كان فيها نهرُها فلقد غدت   نُعماك فيها يابن أحمد أنهُرا

فلما انفصل قال له بعض(1) الطلبة : هل هو إلا آبن محمد ! فاغتاظ وقال : أقرنتنا والنثر ! وحلف ألا يجالس جاهلا أبدا . فما بقى من لم يضحك من منزعه . وكان فيهم / ونهيه، وعويُبه حتى حلّ بمربعه .

[60 B]

وما(2) بقى بخاطرى مما تدرّك له، ويجمل أن يُختل به إلا قوله :

[وافر]

إذا أحرزت يوماً لا تُمَرّ   فتجمع فكرةً تُفنى وحزنا

(1) ت : «أحد» .

(2) ت : «قد» .

وجمع شعره على حروف المعجم، وسماه « الوشى المُنمنم ». ووقفت عليه فتَيلَن بحظى منه قوله :

[سريع]

والله لا أفلح مَن قد غدَا … يرجُو بكم فى الدهر أن يُفلِحَا

ما فيكمُ من صالحٍ يُرتَجَى … وكلكم نُبصِره مُصلِحا

الحمدُ لله على ما نَرى … مِن دولةٍ دارتْ بنا كالرَّحَى

نهايته فآل أمره إلى أن جاز إلى بِجاية، فبلغ من الحياة الغاية. وذلك فى سنة سبع وثلاثين وستمائة .

---

٤٨ - أبو بكر محمد بن الإستبى

نشأته من حصن استبه، من عمل قُرطبة. قرأ معنا بإشبيلية على أبى الحسن الدبّاج. وعهدى به شاعر طويل النفَس، لكنْ فيما يدل على تمكن الهوَس ؛ فلما يأتى بطائل، ولو أمد بلسان سحبان وائل ؛ إلا أنه قد يندُر له ما يكون له رَمية من غير رَام ، وكان يرى أنه فى التغزل والرقة أرق من عُروة بن حِزام .

هو وابن سعيد فى شعره أنشدنى مرة وهو يهز رأسه استحسانا لما اتفق له ، وكُل من يسمعه يود أنه فضّ فاه أو قتله :

[وافر]

إلى مَن قلبُه حَجرٌ شديدُ … ومَن لا دينُه إلا الصُّدودُ

إلى ظَبىٍ مليحٍ ذى دَلالٍ … مُحِبُّوه لسَطوته عَبيدُ

فآهاً ثم آهاً ثم آهاً … على بَغضائه وله أُريدُ

ولما فرغ من الإنشاد قال : هذا والله الطراز الذى لا يحوكه أهلُ بغداد ، وحَبَّ من يعرف صحه فكيف من يَنظمه !

وأنشدنى يوما قصيدة قال فيها :

[بسيط]

إذا رأيتَ نُجومَ الأُفق باديةً … فاعلمْ بأنَّ الثريا وامت الظُّلَما

قلت : هذا بيت لا أفهم له معنى . فاغتاظ وقال : لو كنت تفهمه لكنت من بنى آدم ، أحسن الشعر وأنبله ما يكون معناه غامضاً عن أمثالك . فأضحكنى . أحفظ من هذه القصيدة قوله فى الممدوح ، وهو مثل غيره ثقيل الروح :

[بسيط]

لا تتركنه فإنَّ الرِّزقَ فى يده … وليس يُهمل من أمسى له تبَعاً

يُدنى عدوّك أو يُوليك منفعةً … والناسُ خيرهُمُ مَن ضَرَّ أو نفعا

وله في ابن الأحمر

وركب الرئيس أبو عبد الله بن الأحمر، لما تغلب على إشبيلية، إلى جنازة على فرس أخضر، فقال في ذلك :

[مجزوء الرجز]

يا حبّذا ابنُ الأحمرِ   وهو أمام العسكرِ

وتحتـه أخضرُه   أحسِنْ به مِن أخضرِ

وهو على(١) تُؤَدة   كبدرنا في المنظرِ

مُملَّكا مُخَوَّلا   مثلَ سُعودِ المشترى

[61 A] نهايته

/وتركته بالحياة(٢) خابطاً في غَشَوائه، وما أدرى هل مدّ له السبب أم كُفّ من غُلَوائه.

(١) التؤدة : بفتح الواو وإسكانها : التأنى والتمهل.

٢ ت : « فى الحياة ».

٤٩ - أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلى

شيء عنه

ينتسب(١) إلى الزبير بن العوام، حوارى النبي صلى الله عليه وسلّم. والذي اشتهر به صناعة الطب إلا أنه تعلق بالأدب، ولم يكن فيه ضعيف السبب؛ وبلاه الله بحُب المدام، حتى خرج سكران في شهر الصيام؛ فكادت العامة تُبيح دمه، لو لم تَزَع له من مداواتهم ولينة ذِمَمه؛ ولكن بعد ما رموه بالحجارة، وطردوه من حارة إلى حارة؛ وهو في ذلك يضرط لهم بفمه، ويَهُشّ عليهم كالراعى على غنمه. ولا أحصى كم لقيته في طريق دير الرّوم وهو مُلقى على حمار أو بغل، يُحمل كما يُحمل الزِّبل؛ لا يعقل سكرا، ولا يُبالى حَمَل ذما أو شكرا.

من شعره في منزع الاستهتار

ومن استهتاره المدود أنه رأى هلال العيد في بعض الأعوام، فبادر عند ذلك إلى لقاء كأس المُدام، وكتب إلى صديق له قد بلغه أنه ناظر في فطر العيد، متورّع عن تلك الليلة خيفة اللوم والتفنيد :

[وافر]

إذا لاح الهـلالُ فقُم إليـه   بإهـلالٍ لتوديع الصِّيام

ولا تَسمع بقَـدر الحـظ إلا   تلاقى وفد أكواس المدام

وقُل إن قيل : حىّ على(٢) حلالٍ   صباحَ الفطر(٢) حىّ على الحرام

ومما نزع به منزع الاستهتار، وأنشدنيه في محفل الافتخار :

[وافر]

إذا أسمعت حىّ على الفلاح   فقُم في نحو ريحان وراح

وصِلْ إلى وُجوهٍ من جَمالٍ   كساها الحُسن أردية الصَّباح

ولا تَستدع إلا كُل خِلٍّ   يسُرّك في دُنُوّ وانشراح

إذا ما زجته حدّثك فيه   مُمازجة المُدامة بالقَراح

يُقيم كأيكةٍ يهتزّ لِينًا   ويَرحل كالنّسيم على البِطاح

(١) ت : « ينتسب ».

(٢) ت : « حىّ على الصباح : هلال الفطر ».

وله فى مثل ما سبق

ولما استولى العدو على إشبيلية ركب البحر إلى جزيرة مَنُرقة ، فأقام بها تحت ظل إحسان صاحبها الرئيس أبى عثمان سعيد بن حكم . فلما طال فِطامه عن المُدَام ، بشهر الصيام ؛ كتب إليه ليلة القدر ، مُرتاحا[1] لعيد الفطر :

[مجزوء الوافر]

أيا بِـسكة ناديـنْ ... وريحان الرياحين

ومأوى كل مُضطر ... لدُنياه ولِلدِّين

عُيـدُكُمُ أتى فى خطـ ... ـبة بنت[2] الزراجين

يخاطبه مُشيرا لحدّ ، وأعلمه بوجوب المَهر والعَقد :

[مجزوء الوافر]

أتى من يابس[3] الدِّين ... نظامٌ ليس بالدُّون

يرود[4] نكاح بِكرٍ من ... بُنيَّـات الزراجين

وفى رَمضان غابَ ولـ ... ـها بين الشياطين

وشَوَّال يؤوب به ... فينكحها على الحين

/وقدر المهـر محتاج ... إلى تقـويم تعيين [61 B]

وأنى للوصىِّ ولا ... أرى غيرَ الثمانين

موته

ومات هنالك على أثر ذلك . بلغنى أنه شرب مع قوم من أبنائها ، يجرى معهم على عادته بإشبيلية مع أدبائها ؛ فزلق فيما لا يسلكونه لسانُه ، وارتمى بحيث لا يَحرون مَعَهُ ؛ فضربه أحدهم بجَرة الخمر على رأسه ضربة قضت عليه ، وسيجتمعان يوم يَعَضّ الظالم على يديه .

(1) ت : « مردا » .
(2) أى الخمر .
(3) ت : « أيا من يابس » .
(4) ت : « وددت » .

٥٠ - أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الإشبيلى (*)

نبذ عنه

يُعرف بابن الرومِيَّة ، جوال بالبلاد المَغربية والمشرقية . جالستُه بإشبيلية بعد عودته من رحلته فرأيته متعلقا بالأدب ، مرتاحا إليه ارتياح البُحترى لحَلَب . وعلمه الذى اشتهر به علم أنواع الحشائش . ويقال إنه أظهر جملة منها بالمغرب ، وقف على أسمائها وصورها بالمشرق .

من شعره

وكان غير متظاهر بقول الشعر ، إلا أن أصحابه يسمعون منه ويروون عنه . وحملتُه عليه فى بعض الأوقات ، فقال : تكفيك هذه الأبيات :

[بسيط]

نَمْ بجِلِّق[1] بين الكأس والوَتَرِ ... فى جَنَّـة هى مِلءُ السمع والبَصَرِ

ومَتِّع الطرفَ فى مَرأى محاسنها ... تَروض فِكرك بين الرَّوض والزَّهَرِ

وانظر إلى ذَهبيَّات الأَصيل بها ... واسمع إلى نَغمات الطَّير فى الشَّجَرِ

وقُل لمن لام فى لذَّاته بشرًا ... دَعنى فإنك عندى من سوى البَشَرِ

وكان كثيرا ما يطنب فى الثناء على دمشق ويصف محاسنها ، فلا أنفصل عنه إلا وقد امتلأ خاطرى من شكلها فأتمنى أن أحُلّ مواطنها ؛ إلى أن بلَّغ الله الأمل والأمانى قبل المنون :

[وافر]

وإنى لو نظرتُ بألف عينٍ ... لما استوفتْ محاسنَها العُيونُ

وفاته

وكانت وفاته ببلده فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

(*) الإحاطة (١ : ٢٢٠)
(1) بجلق : هى دمشق .

٥١ - أبو القاسم البياني

شيء عنه

منسوب إلى بيّانة ، من عمل قُرطبة . جالسته بإشبيلية وسمعت منه كثيرا من شعره . وهو جارٍ في نمط ما يغنّى به ؛ وأكثره خالٍ من المعانى التى تدل على غوص الفكر ، وعروضه من البحار التى لا تُعقد فيها الدُّرر .

من شعره

وعَلِق بحفظى مما أنشدنيه من شعره ، فلم أر إغفال ذكره ، قولُه :

[مجزوء الكامل]

وافَى كتابُك شارحًا ... مِن شوقك الخطبَ الجليلا

ولو أنّنى أخفَى(1) بذا ... لرأيتُ ما تشكو قليلا

وقوله :

[مجتث]

يا أحسنَ الناس وجهاً ... صِلْ أقبحَ الناس حالا

قـد مَـلَّه لائموه ... ولا تَمَـلَّ المطالا

(1) ت : « أخفى » .

[62 A]

٥٢ - أبو الوليد بن طيفور المارتلى

شيء عنه

رأيته في إشبيلية(1) في حوز الثلاثين وستمائة ، شاعرا متعلقا بالأدب ، وهو من بيت كأن لم يعاركه أيامُ الحرب والحَرَب .

من شعره في المبتم

وما بقى في حفظى مما أنشدنيه من شعره ، قولُه في الحافظ المبتم وقد غمطه كثيرا في فهمه(2) :

[مجزوء الرمل]

إنما المبتم يفرُّ ... من كلام الناس مَحْتَم

لا تُطالبْه بفهمٍ ... ليس للدّيوان فَهم

شعر المبتم فيه

وأنشدنى فيه المبتم ، والبادى أظلم :

[مجزوء الرمل]

لأبن طَيفور قريضٌ ... مثلُ ما طَنّ البعوضُ

عُدمتْ منه المعانى ... والقَوافى والعَروض

نهايته

ولا خبرعندى بعد ذلك الوقت عن ابن طيفور ، هل هو من الأحياء أم صار من أهل القُبور .

(1) ت : « بإشبيلية » . (2) ب : « حفظه » .

٥٣ - أبو سليمان داود الطرنقى

نبذ عنه

من طرننة ، حصن من عمل بلنسية . كان من جُلساء والدى بإشبيلية ومُذاكريه ، وممن شُهر بالشعر والتعلق بالأدب ولم يكن فى الشُّهرة بالمحل النَّبيه . عهدى بالباجى المترى بإشبيلية قد خرج إلى باب القطائع وجلس على موضع مرتفع وجَرت الغربان التى أنشأها للبين ، ودلّ تطيُّر الناس بمبدأ أمرها على أن حان له الحَيْن ؛ فلما جرى الغراب المسمى باسم السعيد نَخَر على وجهه فى المـاء . فصعق الناس حُزنا من قريب وبعيد ؛ فارتجل الشعراءُ فيما نيل من هذا الطارئ الشنيع ، فكان أشد وأنكى فى التشنيع .

من شعره

فصنع الطرنقى فيمن صنع ، وارتجل يلعثم منه لسان الجزع والطمع :

[سريع]

إن تُنكروا فِعل الغُراب الذى ... مال على المـاء بأجنانه
فإنَّه فى فِعلِه عالمٌ ... بالوَضع فى أجمل أحيانه
كالطِّفل إذ يُولد لا بُدَّ أن ... يُغسل للتَّطهير فى مائه

نبأه

وبلغنى أنه استقر بشَرِيش ، وقد جبر صاحبُها ما هيض له من الريش .

---

٥٤ - أبو النعيم رضوان بن خالد المالقى (*)

نبذ عنه

مشهور فى الشعر والإحسان ، مخالط للكبراء والأعيان ، دَمث الأخلاق ، مفتون بالجمال بما كان فتنة العُشاق . لقيته بمالقة يهيم من الغرام فى كل واد ، واغتنمت فى صحبته أياما كأيام جمع وأعياد .

من شعره

وما أنشدنيه من نظمه المُستحسن ، فما أبلاه من خاطرى تقادم الزمن ، قوله :

[مخلع البسيط]

وَجهٌ نضيرٌ لنا رياضٌ ... فكلُّنا ناظرٌ إليه
فالزهرُ فيه من زَهرِ فيه ... والوردُ توريدُ وجنتَيه
والجِيدُ جِيدُ القطيعِ حُسناً ... والوجه تُفاحةٌ عليه

وله فى رثاء ابن حسون

وقوله فى رثاء (1) أبى عامر بن حسون صاحب مالقة : [طويل]

سكتَ فحرَّكتَ الأسى والتفجُّعا ... ونِمتَ وأيقظتَ البُكا والتوجُّعا
وبتَّ فأحييتَ المتاعبَ كلَّها ... وغِبْتَ فأحضرتَ المصَائبَ أجمعا

وله

وقوله : [سريع]

لمّا تبدَّى قلتُ ماذا بَشرْ ... ولا حَوى حُسنَ حُلاه القَمَرْ [62 B]
مِن أين للبدر الذى حازه ... مِن ذلك الدَّل (2) وذاك الخَفر
وقامة الغُصن (3) ورِدف النَّقا ... وناظرُ الظَّبى إذا ما نَظر
ونكهة الرَّوض إذا ما سَرت ... فيـه الصَّبا غِبَّ نزُول المَطر
وهل له ثغر بنَيـل المُنى ... مُبتسما أو ناطقا فى الدُّرر
هذا لعمرى بعضُ ما حازه ... وما اختفى أحسنُ مما ظَهر
لام عليه عاذلٌ ظالما ... ولو رأى بعضَ حُلاه عذر
وأنكر الحُمرةَ من أدمعى ... وهو لنار فى ضُلوعى شَرر

(*) ب : « المالقى » .
(1) ث : « سورة » .
(2) ت : « من ذاك الدلال » .
(3) ت : « الحسن » .

وله وقوله :

[بسيط]

أهوى مُحادثة النّدمان فى السّحر ... ونغمة الطائر المُغنّى إلى الوَتر

وقولَ ساقِ النّدامى حان شُربكمُ ... على بَقايا شُعاع البَدر فى النّهَر

والصّبح من خَلل الأشجار مُطّلع ... وعِقْد دُرّ النّدى فى أعيُن الزّهَر

وقد غَدت رَنّة الدُّولاب مُوقظةً ... إلى الصَّبوح مُجونا دِنْ بالسَّهَر

والكأسُ ضاحكةٌ فى كَفّ شاربها ... كالبِكر تَمرح بين الأُنس والخَفَر

لا ضَيّعَ الله إلاّ من يُضيِّعُ أو ... قات الأصائل للّذّات والبُكَر

ما ضر قائل هذا الشعر أن لم يَرو من النّيل والفرات ، ولم يُحسب فى الأول من تلك الطبقات .

وفاته وكانت وفاته ببلده سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ن ن – أحمد بن رضا المالقى

لقيه شاعر ابن شاعر . لقيته بتارجة من عمل مالقة ، وكلانا مُسافر ، فأنشدنى لنفسه وأبيه، وأخذ(1) ألفاظُ السّحر ومعانيه، من ألفاظه ومبانيه. وأبو عبد الله قد ذكرته فى كتاب « الغرة الطالعة فى حلى المائة السابعة »(2) .

من شعره ومما أنشدنيه لنفسه أبو جعفر المذكور ، حَل فى خزائن الصدور والسطور ، قوله يودّع محبوبا له ، وقد حاز فى ذلك اللطف كله :

[مجتث]

ودعتُه فكأنّى ... مُودّعٌ منه رُوحى

والصَّبا فيه ما للصَّـــبا بغُصن مَرُوح

فى دَوحة قلتُ فيها ... للطير باقه نُوحى

وللغُصون(3) نُواحٌ ... من بعد هذا التّرَوّح

وله وقوله فى حالة قبّلها ، وحلف بعد السّكر أنه جهلها :

[طويل]

إذا قلتُ للساقى أدِرْها ولم يُدِرْ ... وأبدى حُمَيّا(4) فى الخِلاف على الخَمْرِ

تَخِلّ حُمَيّا الكأس وَيحك جانباً ... وقَبّله فوق الخَدّ والجِيد والنّحْر

وجُل منه فى رَوض الشباب فإن لحَوا ... ولاموك جهلاً كان عُذرك فى السُّكر

[63 A] وله مرتجلا وقوله ارتجالا ، فى المكان الذى جُلنا به فى المذاكرة مجالا :

[كامل]

لله تارجةٌ وواديها الذى ... مالت عليه للغصون قُدودُ

قامت عليه فى المَبير كأنّها ... نُصبت رُواقا قد عَلَتْه(5) بُنود

الحُسنُ مقصور على جَنباته ... والظِلُّ فيه دائمٌ(6) مَمدود

عِقد الزَّبرجد فوقه مُتعاليا ... والدُّر ذائبُـــه به مَورود

إنّى لأعجبُ من مُضيّع كأسه ... فيه بحيثُ حَمامُه غِرّيد

---

(1) ت : « ما تواجد » . (2) هو المعروف بالغصون اليانعة . وانظر مقدمة « الغصون » .
(3) ب : « تواجد » مكان « نواح » . (4) ب : « مجونا » . (5) ت : « ملاء » .
(6) ت : « دائما » .

مع أبو الحجاج

وأخبرنى أبو الحجاج البيّاسى أنه كان مُدمنا لخمر كثير القول فيها. قال: وحضرت معه فى مجلس من مجالسها فدخل شيخ ضخم الجُثّة مستثقل، فقال أبو الحجاج:

[مجزوء الخفيف]

أسقنى الكأس صاحيهْ ودع الشيخَ ناحيهْ

فقال ابن رضا:

[مجزوء الخفيف]

إن تكن ساقيًا له ليس تُرويه ساقيهْ

وفاته

وبلغنى موته سنة ثمان وعشرين وستمائة.

٥٦ - كثير الأديب

نبذة عنه

من ظرفاء بغرب الأندلس. رأيتُه بإشبيلية ومالقة وكنت أتجنّب مجالسته، لأنها تجلب [illegible]، لحنة كانت فيه، وشكاسة إن خلاها فما تُخليه.

من شعره

سمعتُه يوما ينشد لنفسه:

[بسيط]

ليس المُدامة مما أستريح به ولا مجاوبة الأوتار والنّغمِ

وإنما لذّتى كُتْب أطالعها وصارمى أبداً فى نُصرتى قلمى

بيت اشتهر له

واشتهر له هذا البيت:

[كامل]

طار الغُراب ببينهم فحسبتُه إذ طار مُشتملاً[1] صميم فؤادى

وآل أمره إلى أن جاز البحر إلى بجاية. فبلغ أبا محمد بن أبى حفص[2] واليها، أنه ينال من عرضه نيلا، فأحلّ به من الضرب والتطويف والنفى ويلا؛ واستقر بجزيرة منَرقة كهف الغرباء، وملاذ كل طريد من الأدباء.

وفاته

وبلغنى وفاته سنة ست وثلاثين وستمائة.

---

(1) ت: «فحسبت إذ طار الغراب بهم»

(2) ت: «بن أبى حفص هذا».

٥٧- أبو زكريا يحيى بن صفوان بن إدريس المرسي*

شيء عنه أبوه أبو بحر صاحب «زاد المسافر»، وابنه شاعر ابن شاعر. لقيته بمرسية وهو غضّ في بُرد الشباب، ويتيه بالمال والمكان المتمكن على الجلّاس والأصحاب.

من شعره وبقي في خاطري مما أنشدنيه من شعره، هذان البيتان وهما عُنوان أمره:

[مجزوء الرمل]

ليت شعري كيف أنتم ... فأنا الصبُّ المُعنّى
كُلّ شيءٍ لم تكونوا ... فيه لفظٌ دون معنى

وله في غلام وأنشدني له أحدُ معاشريه بتونس قولَه في نصراني لقيه(1) في يوم عيد، والحسن يُبدي ويُعيد:

[متقارب]

توحّد في الحُسن مَن لم يزل ... يُثلِّث والقلبُ من جُنده
يشفّ لك الماء من كفّه ... ويقتدح النارَ من خدّه
وفي وجهه عنبسة مثل ما ... أضاء لك البرق في رعده
فياليت عيدَيّ في نحره ... وفطريَ من مُجتنى نهده

(*) المقتضب من تحفة القادم لابن الأبار
(1) ت: «لقيته»

[63 B]

٥٩- محمد بن عبد الله القضاعي بن الأبار*

شيء عنه كاتب مشهور، وشاعر مذكور، كتب عن وُلاة بلنسية إلى أن كان آخر من كتب عنهم زيان بن أبي الحملات، ووفد رسولا عنه إلى هذه الحضرة العلية حين أخذ النصارى بمخنق تلك الجهات؛ واستصرخ مولانا الأمير المقدّس —سقى الله عهده— صوب العهاد، بقصيدته التي سارت بها الركبان في أقطار البلاد:

[بسيط]

أدرك بخيلك خيلَ الله أندلُسا ... إنّ السبيل إلى مَنجاتها درسَا

وعارضها كثيرٌ من الشعراء ما بين محظيّ ومحروم، وأغرى الناس بحفظها إغراء تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، واختار المُقام تحت الإحسان الأميري فلم يقل [...]، وصار صاحب العلامة في بيت الكُتّاب؛ إلا أنّ أخلاقه لم تُعنه على الوفاء بأسباب الخدمة، وقلصت عنه ظلّ تلك النعمة؛ فأُخّر عن تلك العناية، فارتحل تحت إحسان [...] بجاية؛ وهو الآن بها عاطل من الرُّتب، حالٍ من حُلى الأدب، مشتغل بالتصنيف [...]، مُخلّ منه بواجبه ومسنونه.

هو وابن سعيد ولي معه مُجالسات آنق من خُلق الشباب، وأبهج من الرّوض غِبّ نُزول السحاب؛ لم أجتمع به إلا في هذه الحَضرة العليّة، وبقيتْ من فوائده في النفس بقية.

من شعره ومما أنشدنيه من مُحرَّر نظامه، فأطلَعته في هذا الكتاب كالزّهر من كمامه(1)، قولُه:

[مجزوء الوافر]

حديقةُ ياسمينٍ لا ... تَهيم بغَيرها الحَدَقُ
إذا جَفنُ الغَمام بكى ... تبسّم ثغرُها(2) اليَقق
كأطراف الأهلّة سا ... ل في أثنائها الشّفق

(*) أزهار الرياض (٣: ٢٠٤) نفح الطيب (١: ٦٦٢، ٢: ٥٠٠ طبعة أوروبا) عنوان الدراية (ص ١٨٧) [...] (٢: ٢٢٦) شذرات الذهب (٥: ٢٧٥).
(1) [...] ت: «أكمامه».
(2) اليقق: الأبيض.

وله يتهادى

وقوله :

[طويل]

لك الخيرُ أتحفنى بخيرىّ روضة … لأنفاسه عند المَجوع هُبوبُ

ألبس أديب النَّور يحمل ليله … نهاراً فيذكو تحته ويَطيب

ويَطوى مع الإصباح منشورَ نَشره … كما بان عن رَبع الحبيب حبيب

وله فى دولاب

وقوله :

[كامل]

يا حبّذا بحديقـة دُولابُ … سكنتْ إلى حَركاته الألبابُ

غنّى ولم يَطرب وسقّ وهو لم … يَشرب ومنه العُود والأكواب

لو يدّعى لُطف الهواء أو الهوى … ما كنتُ فى تَصديقه أرتاب

وكأنّه مما شدا مُستهتر … وكأنه مما بكى أوّاب

وكأنه بِنِشاره ومَداره … فَلكٌ كواكبُه لها أذناب

وله فى مثله

وقوله :

[كامل]

أين المَذانب[1] لا تزال تأسّفا … يَجرى عليها من دُموعى مِذنبُ

من كُلّ بَسّام الحَباب كأنه … ثغر الحَبيب وريقه المُستعذب

كالنّصل إلا أنه لا يُتّقى … كالصِّلّ[2] إلا أنه لا يُرهب

تقتادنا أقدامُنا وجيادنا … لحَبابه وهو النّضير المُعجب

[64 A] / كلفاً بدُولاب يدور كأنه … فَلك ولكن ما ارتقاه كوكب

نصبته فوق النّهر أيدٍ قدرت … ترويحه الأرواح ساعةُ ينصب

فكأنّه وهو الطليق مُقيَّد … وكأنه وهو الحَبيس مُسيَّب

للماء فيـه تَصعُّد وتَحدُّر … كالمُزن تَستنشق البحار وتسكب

(1) المذانب : جمع مذنب ، بالكسر ، وهو مسيل الماء .

(2) الصل ، بالكسر : الحية التى تقتل من ساعتها ، والسيف القاطع ، والظاهر أن المراد هنا الأول للبادرة .

وله فى بستان الرصافة

وقوله :

[هزج]

أبُستانَ الرُّصافة لا … هويتُ سـواك بُستانا

تخال الدّوح مُجتمعا … به شِيبا وشُبّانا

وقد لبستْ مَفارقَه … من الأنداء تيجانا

تجـول به جداولُه … وتَغشى النهـرَ أزمانا

فتحسبُها إذا انسابت … أراقمَ زُرّن ثُعبانا

وله فى عمرة

وقوله :

[طويل]

ترائى له أفق البُحيرة والبَحر … فراح بماء القلب مُختضب النحر

وقد مَنع التّهويمَ أنّى هائم … بعيش مضَى بين الرُّصافة والجسر

وجنّة دُنيا لا نظيرَ لحُسنها … تفجّرت الأنهار من تحتها تجرى

إذا النّاسُ حنّوا للرّبيع وجدتنا … بها فى رَبيعٍ كُلّ حين من الدّهر

تهُب نُعاماها[1] فتُنعم أنفُسا … بأنفاسها المَلذوذة البَرْد فى الحَرّ

كأنّى من قلبى[2] المتيَّم قادحٌ … عَقاراً لتذكارى لكُثبانها[3] العُفر

وأيامى الزُّهر الوُجوه خلالها … ولا خُلّة[4] غير الحَديقة والنّهر

فمن بكراتٍ أدبرت وأصائل … جنيت بها الإقبال فى غُرّة العُمر

عشايا كساها التِّبر فضل شُفوفه … ألا بأبى فضل الشُّفوف على التِّبر

وله فى غلام

وقوله :

[كامل]

مَن عاذرى من بابلٍ طَرْفُه … ولَعمره ما حَلّ يوما بابلا

أعتدّه خُوطاً لعينىَ ناعما … فيعود خَطّيا لقتلىَ[5] ذابلا

(1) النعامى ، بالضم : ريح بين الجنوب والصبا . (2) ت : « قلب » .

(3) العقار : شجر يقدح منه الزناد .

(4) الخوط : الغصن الناعم . والخطى الرمح ، نسبة الى الخط ، موضع باليمامة .

(5) الخلة ، بالضم : الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع فى ذلك سواء .

رأيه فى عجوزة

وقوله :

[طويل]

لقد غضبتْ حتّى على السّمط نَحوَةً فلم تتقلّد غير مَبسمها سِمْطَا
وأنكرتِ الشيبَ الملمّ بلِمّتى ومَن عرف الأيام لم يُنكِرِ[1] الوَخْطا

رأيه فى كسوف البدر

وقوله وقد نظر إلى البدر عند الكسوف :

[متقارب]

نظرتُ إلى البدر عند الكُسوف وقد شِين منظرُه الأزْيَنُ
كما سفَرت صفحةٌ للحَبيـ ـب يحجُبها بُرقعٌ أدكَنُ

رأيه فى الخسوف

وقوله :

[وافر]

عجبتُ من الخُسوف وكيف أودى ببدر التِّمّ لمّاع الضّياءِ
كمرآةٍ جَلاها الصّقلُ حتى أنارت ثم رُدّت فى غشاء

من نثره

ومن عنوان نثره قولُه فى رسالة إنشاءها فى السقاية التى اخترعتها هذه الدولة القدسية ، أمام جامع الحضرة العلية :

الحمد لله حمدا لا نُقلّه ، هذا الزمان الذى كنّا نؤمّله ، بلدة طيبة ورب غفور ، ودولة مباركة محفوفة بالسرور والحُبور ، نهض بها آل أبى حفص فما آلوا ، ولا جالت النجوم حيث جالوا ، ولا نالت الملوك إلا بعض ما نالوا . مُلكٌ يشمل الإقبال ، وعزٌ يُقلقل الأجبال ، وكرم صريح الانتماء فى النماء ، وشرف سمت ذوائبه على السماء ، إلى عدل و إحسان ، هما قوام نوع الإنسان / ، مع رفق وإسجاح ، ضمنا كل فوز و إنجاح ، فقد آضت الظلمات أنوارا ، وفاضت البركات أنجادا وأغوارا ، ألبس العالمُ ربيعا ، والعالم جميعا ، والسعود طالعة ، والعصور طائعة ، بصالح الأعمال تحليها ، وعلى منصة الكمال تجليها ، فمن ذا أيها المولى يجاريك ، إلى هذا أو يباريك ، فى إقدام صادق ، وترى راياتك للأبصار[2] هدى ، وحباتك للكفار ردى ، بسيرتك عدل الدهر فما جار ، ولولا تُعرّفك ما أنار :

[64 B]

[وافر]

لقد حَسُنت بك الأوقات حتى كأنك فى فم الزمن ابتسامُ

(1) الوخط : فشو الشيب فى الرأس . (2) ت : « وراياتك » .

عليهم على صفق الندى والباس ، وسليهم منتقى حمزة والعباس ، فلا غرو أن أمن ورق ، ثم لما كسا وأطعم سقى ، إنما نعمى وفت بالميعاد ، وحسنى منالها بعد للمعاد . أنت بماء معين قد أصبح غورا ، وملأت ما بين لابتيها[1] حتى ما يرف ظلا ويرف نورا ، فيا بشرى لتونس أخصب جريبها[2] ، وأحسن وصف الروض والغدير أديبها ، وطالما أطلعت صحراء بل رمضاء ، فكم للإمارة قبلها من يد بيضاء ، غشيت حبر الحبور والسرور ، وعوضت برد الظل من وهج الحرور ، خمائل وجداول ، تداول منها العين ما تداول ، تلك تضل من أحصاها ، وهذه يضل فيها[3] حصاها ، ويا لقصرها السعيد نعمت أدواحه ، وهبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه ، هذا وإن بات السماح المفاض يسقيه ، وبات الجود الفضفاض ينقع جواده[4] ويشفيه ، وهنيئا للمسجد الجامع أن رويت جوانحه الصادية ، وجمعت فى شرعته السارية والغادية ، فهاهو بادى الغرر والأوضاح ، منبجس بالزلال القراح ، والجمهور يصفو ما منساب ، لمح الغياب بالإياب ، وطرب الشيب بذكر الشباب ، أمسوا قد سوغوا مآربهم ، وأضحوا وقد علم كل أناس مشربهم ، فهم يردون على العذب النمير ، ويحمدون بركة الأمير مكرمة ذخرها[5] لسلطانه الزمان ، وكرامة هنأه بها الإيمان ، وسلمت يمينه فيها الأيمان ، وقضية إن حجبت عن داود فما حجبت عن سليمان .

[بسيط]

جمعت للناس بين الرى والشبع فهم بأخصب مُصطاف ومُرتَبع
ولم تدع كرما إلا أتيت به تُضيف مُبتدعا منه لمُبتدع
لما وليت جعلت الخيرَ أجمعه عليهمُ فبدَوْا فى أجمل الخلع
وحسب مجدك ما أولاه جُودك من رفع الدعاء له فى كل مجتمع
لله أيامك استوفت محاسنُها فلا مزيّة للأعياد والجمع
دامت مساعيك والأقدار تُسعدها تولى المساجد أنصابا من البيع

(1) اللابة : الحرة ، وهى الأرض فيها حجارة سود .
(2) الجريب : مقدار معلوم من الأرض .
(3) ت : « بها » . (4) الجواد : العطش .
(5) ت : « ذكرها » .

٥٩ - أبو القاسم عبد الرحمن العثمانى

[65 A] لقيته بسبتة . وكان كثير الحُبِّ فى سكناها ، والملازمة للكتابة عمن تولّاها . وأخبرنى أن أصله من طُليطلة من عمل إشبيلية . وفارقته سنة سبع وعشرين والعمرُ قد أتى عليه . وبلغتنى فى إثر ذلك وفاته من غير تعيين . وكان مشهورا بالرفاهية . له فى ذلك حكايات محفوظة ، وأمور كانت عند أهل سبتة مع الأيام ملحوظة ، منها أنه كانت له ثياب النزاهة⁽¹⁾ ، وثياب الحمام ، وثياب العرس ، وما أشبه ذلك ، لكل حالة ما يليق بها ، لا يُخِلّ بشىء منها . واحتاج يوما إلى شىء ضرورى فحضر السائس ولم يحضر المُتصرف ، فلم يقدر على أن يصرف السائس . وكان يقول : لا سبيل إلى وضع شىء فى غير محله ، حتى كان يُنسب فى ذلك للهوس ، وبالجملة فكان من الخواص فى جميع ما به تلبَّس .

وممّا كتبته عنه من شعره قولُه :

[مجزوء الرجز]

حظّى من الدهر إذا ... تُغُب فيه من رأس

روضٌ بشاطى جَدول ... قُرْبَ الصُّباح والغَلَس

والغاية القُصوى إذا ... نَمت وجُوه كالقَبَس

أنا الذى تَعرفه ... سارقُ لذات الخُلَس

لا رَأْى لى فى صَفحة السْـ ... ـسيف ولا ظَهر الفَرَس

وقوله :

[سريع]

إن الذى أهواه ما شانه ... الأعذار دَبَّ فى الخدّْ

وذلك الشَّينُ له زينة ... كالآس مُلتفٌّ على الورد

يا ليتهم لما أدّعوا عيبه ... بالشَّعر خلّوني له وحدى

---

(1) ت : « النزاهة » .

وقوله :

[مخلع البسيط]

أفدى التى أقبلت إلينا ... فى أول الليل بالصّباح

وَجهٌ هو الحُسن ظَلّ يحوى ... جميعَ ما كان فى⁽¹⁾ المِلاح

ضاجعتُ منه رياضَ زَهر ... جالت لديها يدُ الرياح

ومن نثره :

حرس الله يا أخى مكانك ، وأدام لإخوانك إمكانك ؛ فما أكرم عهدك ، وأخلص وُدك ؛ إن غبت حضر افتقادك واهتمامك ، وإن حضرت قامت ظلال آدابك ولم يغب برّك وإكرامك . السيادة قلادة أنت دُرّتها ، والرياسةُ جبهة أنت غُرّتها .

فصل :

العجب يا سيدى الذى لا أرى الدنيا ونَضرتها إلا بناظره ، ولا أخطر فى بُرود النعم ما لم يأجل تمثّله فى خاطرى وتمثّل فى خاطره ، إن تغب عن مجلس لا تتضاحك مسراته إلا من سرورك ، ولا تتألق صفحاته إلا من نُورك ، ولا ترتاح راحته إلا بحلولك ، ولا يتصل إيناسه إلا بوصولك .

وكان يَذكر أنه من ذرية عثمان بن عفان ، رحمة الله عليه .

---

(1) ت : « بالملاح » .

٦٠ – أبو عبد الله محمد بن عمر الإشبيلى

[65 B]

المعروف بالمهيدو . لقيته بمراكش وقد زار والدى فظفرتُ منه ببعض الفوائد ، ثم عاد اجتماعى به بأحسن عائد ، وكان نبيل المنزع ، رشيق النَّظم والنثر/ فى أنواع ما يَصنع ، وكان حينئذ يكتب عن الشيخ أبى زكريا بن الشهيد ، وزير تلك الدولة أيامَ الناسُ من سيف الفتنة بين قائم وحصيد .

ثم إنه خرج معه إلى قتال العرب وعسكوره ، فقُتل فى وقعة تاملست المشهورة . وذلك سنة خمس وعشرين وستمائة .

ومما حفظته مما أنشدنيه من شعره ، قوله فى بربرية رآها بنقّيس فأصبحت حديث سره وجهره :

[مخلع البسيط]

لله نِقّيس من مَحلِّ   حلّ به مَن به آحتلاقى
رُؤْد[1] بها تمّ لى مُراد   لو لم يكن يَعجل الفِراق
من آل جالوت ذات دلّ   العذل فى حُبها نِفاق
كلمتُها فآزدهت وقالت   ما شرحُه اللثم والعِناق
إن كان فى لفظنا خلافٌ   فبيننا فى الهوى آتفاق

وله فى فاختة

وقوله فى فاختة[2] بعث بها إلى أبى العلاء :

[وافر]

إلا خُذها إليك أبا العَلاء   حُلَى الأمداح ترفُل فى الثَّناء
وخُذها قَينةً تُهدى عروسا   خضيب الكفّ قانية الرداء
لأجعلها على جليس أُنسى   وأُغنى بالهديل عن الغِناء

(1) الرؤد : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء . وقارن : « رود » .
(2) الفاختة : ضرب من الحمام .

وله فى أهل مراكش

وقوله فى أهل مَراكش عند اضطرام تلك الفتنة ، وما شملهم من اتصال المحنة :

[سريع]

يا أهلَ مَراكشَ عهدى بكم   وكُل ضُرٍّ بكمُ يُدفَعُ
فالآن والملْق وواحسرتى   قد أصبح الضر بكم أجمع
بعضكمُ يَقتلُ بعضاً ولا   يَرْوَى مدى الدهر ولا يَشبع
والحضرة العَليا التى طالما   ضاقت بمن حلّ بها بَلقع
فقُل لمن يبغى لها عودةً   يَحْبُرك الله هنا[1] المَهيع

وله فى شىء أنكره

وقوله وقد وقع فى خارج باب الشريعة ما ذكره وأنكره :

[مجتث]

إنَّا إلى الله حلّت   بنا أمور بديعه
بابُ الشَّريعة أمسى   تُزال فيه الشَّريعه
سَلْبٌ ونَهبٌ وقتل   من الخُطوب الشَّنيعه
وصاحبُ القصر أمسى   فيه كثل الوَديعه
وحسبه أن يُرى حا   فظاً هنالك رُوعه
تُرَق لعمرك ما تَر   أب الزمانُ صُدوعه
وشتّ تَملُّ أبى أن   ترى بعين جميعه

(1) المهيع : الطريق الواضح البين .

٦١ - أبو عمرو بن حكم القبطلى

وجه بجزيرة قبطل، من جُزُر وادى إشبيلية. صحِبتُه حين تحركنا مع العادل إلى مراكش، وكان كثيراً ما يساير والدى فى الرحيل، ويُكثر فى كُل فن من القال والقيل ؛ فلا يَقطع طريقه إلا بنوادر الضَّجر، وقوله يبين لك أنه لم يبق له مِطال من أمله مُصطبر :

[مخلع البسيط]

كم أقطعُ الدهرَ بالمطال ... سامت وحقِّ الإله حالى
يأسٌ مُريحٌ فذاك أقصى ... أمال مثل عند المآل
رحلتُ أبغى بكم نجاحاً ... فلم تُفيدوا سوى ارتحال
وعدتمُ ألفَ ألفِ وعدٍ ... لكننى عدتُ بالمحال [66 A]

وقوله :

[مربع]

حاشى لمن أملكم أن يَخيبْ ... وينثنى نحو العِدا مُستريبْ
هذا وكم أقرأ فى بِشركم ... نصرٌ من الله وفتح قريب

ثم عاد يخفى حُنين ، ولم يحصل له منهم سوى البَين .

٦٢ - أبو عمران موسى بن سالم القلعى

كان قد حلّ فى قلعة خولان(١) ، كما حل من الرأس الشأن، بيده حلّها وعقدها، وإليه صعب أمورها وسهلها . وكان بيته فى أعيان مسطورة ، فلما كانت فتنة ابن هود المشهورة ، أُخرج عن بلده ، وفُرق بينه وبين ماله وولده . فرأيته فى سجة إثر ذلك وهو أعرى من الحُسام يوم القتال، وأبكى من لبيد على أربد(٢) وعلى حاله الذى حال، ثم جاز إلى الجزيرة الخضراء رجوع المتوجع الحزين ، فبلغنى وفاته سنة تسع وعشرين .

ومما أنشدنيه من شعره ، فلم أخل بذكره ، قوله :

[مربع]

أقسم لا جفّت له دمعة ... ما غبتُ عنه وجفا ربعهُ
أظلمت الآفاقُ من بعدها ... كأنما كانت له شمعه

وقوله :

[وافر]

طلعتَ علىّ والأحوالُ سُود ... كما طلع الصَّباحُ على الظلام
فقُل لى كيف لا أُوليك شُكرى ... وإخلاصَ التحية والسلام

---

(١) خولان (Janlin) :

(٢) أربد ، هو ابن ربيعة ، أخو لبيد .

٦٣ - أبو عمران موسى بن على الطريانى (*)

شيء عنه وبعض شعره

ينسب إلى طريانة المنارة التى أمام إشبيلية على الجانب الغربى من ظهرها الأعظم. شيخ نحوى، أديب ظريف، حسن المعاشرة والاستكثار من ممازجة الشباب، وهو عفيف. قرأت عليه بقصر كتامة، وفضضت عن ثمرته فدامه (1)، بعد ما كان يظهر أنه لا يدين بالنسيب، ولا يقع له النظام إلا فى النادر والغريب، فكان مما رويته من نظمه البديع، وطالما أنشدته فى محفل فسلم إلى حسنه الجميع؛ قوله فى المدينة التى يصنعها أهل المغرب فى النيروز، وهى مشهورة العمل فى ذلك الموسم، وقد أتى فى وصفها بما يقصر عنه ذو الفهم :

[مجزوء الرجز]

مدينــة مُسوَّرة   تحار فيها السَّحره
لم تبنها إلا يد   عذراء أو مخدَّره
بدت عروساً تجتلى   من دَرْمك (2) مُزعفره
وما لها مفاتح   إلا البنان العشره

وقوله :

[وافر]

شكوتُ لها الغرامَ عسى رضاها   يُرجى بعد شقوتى النجاحا
فقالت لى إذا ما الليلُ أرخى   ستارَه فسل عنّى البطاحا
/ فيممت البطاح ولا دليلٌ   سوى عَرف تضمَّنه الرياحا
فقالت ثم قلت أمثلُ طرق   ينام وقد رأى ذاك السَّماحا
فقالت لى تنام لأن وجهى   إذا استيقظتُ يدُركك الصباحا
فتمسى طول ليلك فى عذاب   تراع وما صباح الروع لاحا

[66 B]

وقوله :

[بسيط]

يا من رآنى زاهداً فى الصِّبا   ومُقلعاً عمّا يروم التصابى
أيقنتُ أنّى فى حبال النوى   إذ طار من شعرى غُراب الشباب

وفاته

وبلغنى أنه مات سنة تسع وثلاثين وستمائة .

(*) المغرب (١ : ٢٩٤)

(1) الفدام : ما يشد على أفواه الأباريق عند السقى . (2) الدرمك : فتات الزعفران وغيره .

٦٤ - أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبى

شيء عنه

بيته مشهور بقرطبة، لم يزل يتوارث فى العلم والجاه وعلو المرتبة. ونشأ أبو عبد الله حافظاً لفنون الآداب، إماماً فى علم الحساب، مع أنه كان أعمى مقعداً مشوَّه الخلقة، ولكنه إذا تعلق علم كل منصف حقه. ومن عجائبه أنه سافر على هذه الحالة، حتى غدت بغداد له حالة، واجتمعتُ به غير ما مرة بحضرة تونس — كلأها الله — فرأيت منه بحراً زاخراً، وروضاً ناضراً، إلا أنه حاطب ليل، وصاحب طول وذيل، لا يبالى ما أورده، ولا يلتفت إلى ما أنشده، جامع بين الثمين والغث، وحافظ للمتين والرث، وقد أقرأ الأدب فى مراكش وفاس وحضرة تونس وغيرها من الأقطار، وشاع ذكره حيثما جالت به الأسفار.

من حكاياته

ومن مشهور حكاياته أنه لما قال أبو زيد الفزارى فى أبى العلاء المستنصر بالعرب على أهل مراكش قصيدته التى مطلعها :

[بسيط]

* الحزم والعزم منسوبان للعرب *

عارضها ابن الصفار بقصيدة ذم فيها أنصاره، ثم قال فيه وفى أخيه يحيى بن الناصر، الذى نازعه فى ذلك الأوان، رداء السلطان :

[بسيط]

وإنْ ينازعْك فى المنصور ذو نسب   فحبل نوح ثوى فى قمة العطب
وإنْ يقل أنا عمٌّ فالجواب له   عمُّ النبىّ بلا شك أبو لهب

وشاعت القصيدة وبلغت أبا العلاء، فحرص على قتله، وبث العيون على ختله، فلما هجم على مدينة فاس وبها ابن الناصر كان فى خدمته ابن الصفار، فبقى فيها بعد فرار مخدومه مختفياً فى خوص عند عجوز على قارعة الطريق، وقامت بحاله لما رأته عليه من الأعذار الموجبة للصدقة والحنان، وأمر أبو العلاء (1) [أن ينادى فى أقطار المدينة بالإحسان لمن دل عليه، والإساءة لمن أخفاه فستره (2) إليه ؛ إلى أن انسكنت بذلك الثائرة،

(1) من هنا نقص فى ب . (2) ت : « فستره » .

فقر إلى هذه الحضرة العلية القاهرة ، فأقام تحت الإحسان الأميري في نعم سابغة ، وموارد سائغة ، وكان يشرّفه بحضور مجلسه ، ويخصه بمذاكرته ومنافسته ، إلى أن أصبح عبد الواحد الأعمى غنوقا ، فأمسى ابن الصفار عند ذلك التقريب معوقا .

وذلك أنه وجدت في كتب عبد الواحد ومسوداته أشعار جاوبه بها ابن الصفار فيما كان عليه من فساد النيات ، في ذم المحسن والمسيء من الأحياء والأموات ؛ فقلبت عليه قلب مولانا الأمير ، وحَلَأْهُ عن مورد ذلك العذب النمير ؛ وبقي مطروحا خاملا بعد التقريب والتمييز ، إلى أن مات يوم الأربعاء الثالث عشر من جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين .

وقد أثبت هنا من شعره ، ما أخذته قبل اطراحه وهجره . فمن ذلك قوله :

[سريع]

لا تحسب الناس سواء إذا ما اشتبهوا فالناس أطوار
وانظر إلى الأحجار في بعضها ماء وبعض ضِمنه نار

وقوله :

[مجتث]

يا طالما في جُفوني وغائبا في ضلوعي
بالغتَ في السمع ظلما وما رحمت خضوعي
إذا نويت انقطاعا فاعمل حساب الرُّجوع

ومن نثره في غبيّ استدعاه ليقرأ عليه :

أيها الغبي المتعثر في ذيول جهله وجاهه ، الأشوس الطرف من غير حول ، الرافع أنفه دون شمم ، الساري إلى الهلبه[1] . . . ، يظفر منه تأه بده المخدوع بغير التعب والمين ، وعض اليدين ، من دلك على ذلك ، ومن هداك[1] . . . إلى ربعك ، وتكلفت من البخل إلى غور العلماء ضد ما في طبعك . وما العجب منك حين كنت[1] . . . في تطبيخ بطيب ، إنما العجب

(١) بياض في ت .

ممن كان في طيب بغاء يتطلغ بكنيب[1] . وكأني بك في مترك[2] . . . العاري من الفضل والإحسان ، وقد قبعت في بهوه ، وتفحت[3] تحفصك الضئيل في زهوه ، ذو اللحية الطويلة ، والجثة الضئيلة ، الوسخ الأثواب ، العريّ من الآداب ، الموسل لسانه في عرض ، الآخذ في كل قبيح بالطول والعرض .

ومنها :

ثم قلت لي : ابدأ بمذهب أبي حنيفة أو شعر امرئ القيس . فكدت أضرط ضحكا ، ولا أخاف في تبعة الأديب دَرَكا ؛ فاتق الله في نفسك ، ولا تكن في غد أجهل منك في أمسك .

(١) الكنيب : شجر شبيه بالقتاد لا رائحة له .   (٢) بياض في ت .
(٣) نفحت تحفصك : ضمه .

٦٥ - أبو الوليد بن الجنان الشاطبي

ت، ب — محمد بن الشريف أبي عمرو ، ابن الكاتب أبي بكر ، ابن العالم الجليل أبي العلاء بن الجنان الكناني. من بيت توارثوا بشاطبة، مراتب تحسدها النجوم الثاقبة ، وصاحبنا أبو الوليد أشعرهم ، وبه تجدد في أقطار شرق الأندلس مُعجزهم ؛ وهو معروف في المشرق بفخر الدين، ومصدَّر في أئمة النحويين؛ ومرتَّب في شعراء الملك الناصر صاحب الشام ، ومقطعاته الغرامية قلائد أهل الغرام .

[67 B] (١) صحبته / بمصر ودمشق وحلب، وجريت معه طلق الجموح في ميادين الأدب ؛ وهو ممن تُفرغ الدنيا عليه فُيلقيها ، وتدعوه دواعي التجرد والتزهد فيلبّيها ، وما أحصى كم لقيته بأدواح الغوطة الدمشقية راقصا مع أغصانها ، ومترنما في فنونه بين أفنانها ؛ وهنالك أنشدني قوله :

من شعره

[رمل]

أنا مِن سكر هواهم ثَمِلُ ... لا أبالى هَجروا أم وصلُوا

فبشعرى وحَديثى فيهمُ ... زَمزمَ الحادى وسار المَثل

إنّ عُشّاق الحِمى تعرفنى ... والحِمى يَعرفنى والطَّلل

فإذا ما جئتُ ليلًا أرضهم ... لم يقُل : ما يَتعبه الرجل

رحلوا عن رَبع عينى فلذا ... أدمعى عن مُقلتى ترتحل

مالها قد فارقت أوطانها ... وهى ليست لِحَمام تَنتقل

لا تظنُّوا(٢) أنى أسلُو فما ... مَذهبى عن جدكم(١) ينتقل

---

(١) إلى هنا ينتهى النقص في ب .

(١) ب : « حبكم ينتقل » .

(٢) ت : « لا تقولوا » .

وقوله :

[كامل]

خَبرٌ بأنفاس الرّياح مُعطّرُ ... وافَى شذاه فقلتُ منه أسكرُ

لله ما أحلى شمائله التى ... جاء النسيم بعَرفها يتبختر

وافَى وما فى القَوم مَن يدرى به ... إلا فتًى فى حُبه مُتنكّر

تُتلى أحاديثُ الغرام بقلبه ... ولسانُه عمّا به يَستخبر

حتّى إذا غنّى له الحادى بهم ... وسَرى له من نَشر(١) لَيلى العَنبر

هزّ المعاطفَ ثم راح مُولّها ... نَشوانَ فى ذَيل الصبابة يَعثر

مُتهتِّكا فى العاشقين كما تَرى ... يُبدى الذى يُخفيه منه ويُضمر

وقوله :

وله

[بسيط]

بالله يا بانةَ الوادى إذا خطَرت ... تلك المعاطفُ حيث الشّيح والغارُ

فعانِقيها عن الصبِّ الكئيب فما ... على مُعانقة الأغصان إنكار

وعَرِّفيها بأنّى فيك مكتئب ... فبعضُ هذا لها بالحُب إخبار

وأنتمُ جيرةُ(٢) الجَرعاء من(٣) إضَم ... لى فى حماكم أحاديث وأسرار

وكُلّ معنًى لكم فى الناس أشهده ... وكُل لفظ بكم فى الحَىّ أسمار

وأنتمُ أنتمُ فى كُل آونةٍ ... وإنما حُسنكم فى الكَون أطوار

ويا نُسيمًا سَرى(٤) تحدو ركائبه ... نحو الغُوير(٥) لُبانات وأوطار

صحبتَ ذيلًا على بانٍ(٦) بكاظمة ... وما دَرى بك حُرّاس وسُمّار

وما قَنعت بما حُمّلت من خَبر ... حتى أتيت وعَرف القوم أخبار

---

(١) ت : « الأعبر » مكان « العبير » .

(٢) ت : « وأنت يا جيرة » .

(٣) الجرعاء : الأرض لا تنبت و إضم : واد بجبال تهامة .

(٤) ب : « صبا » .

(٥) الغوير : ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة .

(٦) كاظمة : بها بين البصرة وسفوان .

ره وحضرت معه بجنة على نهر تورا(١) من أنهار جِلّق(٢) ، وقد اشتكت معاطف النهر ومال النسيم بالدوح ، فقال أسرع من البارق المتألق :

[خفيف]

يا رعى الله أنسنا بين روض   حيث ماءُ السرور فيه يجولُ

تحسب النهر عنده يتثنّى   وتخال الغصون فيه تميل

وهذا هو الطراز العالى(٣) ، والعِلْق الثمين الغالى .

ره ومن جواهره الثمينة ، وفرائده التى جلبتها للزينة ، قوله :

[بسيط]

هاتِ المُدامَ وقد ناح الحمامُ على   هذا الظلام وجيشُ الصبح فى الطَّلَب(٤) .

وأعينُ الزهر من طول البكا رمدت   فكحّلتها يمينُ الشمس بالذّهب

لا أستفيق من اللّذات آونةً   ما اهتزّت القُضب فى مُخْضَرّة العَذَب(٥)

والكأس حُلّتها حمراء مُذْهبة   لكنْ أزرّتها من لؤلؤ الحَبَب

كم قلتُ للأفق لما أن بدا صَلِفاً   بشمسه عندما لاحت من الحُجُب

إن تُهْتَ بالشمس يا أفق السماء فلى   شمسان : وجهُ نديمى وابنةُ العنب

قُمْ سقّنيها وثغرُ الصبح مبتسمٌ   والليلُ تبكيه عينُ البدر بالشُّهُب

والسُّحْب قد لبست سُودَ الثياب وقد   قامت لترثيه الأطيار فى القُضُب

ومحاسنه فى هذا الباب جمّة ، وبدائعه موقوفة على الغراميات التى هو فيها الآن أُمّة .

وله من غرامياته ومما أنشدنيه منها(٦) قولُه :

[سريع]

عليك من ذاك الحِمى يا رسول   بُشرى علامات الرضى والقبول

جئتَ وفى عِطفيك منهم شذًى   يَسْكر من خمر هواه العذول

يكفيك تشريفاً رسولَ الرضى   أنك للعشّاق منهم رسول

(١) تورا ، بالفتح : نهر عظيم بدمشق .

(٢) جلق : هى دمشق .

(٣) ب : « العالى » .

(٤) ب : « فى طلب » مكان « فى الطلب » .

(٥) العذب : الأغصان ، الواحد : عذبة .

(٦) أى من غرامياته .

بالله حدّثنى بأخبار من   حدّثت عنه ، يا نديمى(١) شمول

فهاتها أشربها قهوةً   تمرح(٢) فى وصف سناها العقول

لله ما ألطفها سكرةً   تجرّ فى تلك المغانى الذيول

أحبابنا ودعتمُ ناظرى   وأنتمُ بين ضلوعى نزول

حلّلتمُ قلبى وهو الذى   يقول فى دين الهوى بالحلول

ولى على ذكركمُ أنّةٌ   فيها حديثٌ للجوى والنحول

أنا الذى حدّث عنى الهوى   بأننى عن حبكم لا أحول

فليبد(٣) ذا العاذل فى عذله   وليُقلِ الواشى لكم ما يقول

ره وقوله :

[وافر]

أُهَيلَ الحىّ هل عَلِم الفريقُ   بأنى فيكمُ صبٌّ مشوقُ

نعم علموا وذاك بأنّ دمعى   غداةَ البين سال به(٤) الطريق

وإن لم يُبصروا الحبُّ منّى   دليلاً دلّ حسنُهمُ الأنيق

أحبتنا وشأنُ الحب شانى   وصبرى عن هواكم لا يليق

تؤمّون الحجاز وما علمتمُ   بأن القلبَ بينكمُ العتيق

والقاطى العُذَيب وفى ضلوعى الـ   ـحِمى ودموع مُقلتىَ(٥) العقيق

(١) الشمول : الخمر .

(٢) ت : « تمزج » .

(٣) ب : « فليبد » .

(٤) ب : « طرق » مكان الطريق » .

(٥) العذيب : ماء لبنى تميم على مرحلة من الكوفة . والحمى ، هنا : حمى المدينة . والعقيق : عقيق المدينة ، وفيه عيون ونخيل .

٦٦ – عبد الواحد الواعظ الأعمى الإشبيلي

رحل إلى المشرق . واشتهر بحُسن الصوت في التحريك والنَّشيد ، ودخل نمط المُريدين وهو شيطان مَريد ، ومازال بين مصادر وموارد ، ومعاناة راحات وشدائد ، إلى أن تعلق بالخدمة الأميرية ، في هذه الحضرة العلية ؛ ثم شاعت عنه خلوات قضت بإبعاده ، ثم اشتهر عنه ما بوَّأه لحده من كُفره وإلحاده ، فأصبح مخنوقا في سنة سبع وثلاثين . ولم يُلْقَ من ألقى عليه رداء الرَّدى ، خلا أنه من المُخلصين لله المُنتصرين .

وأُمرت أن أتصفح ما في بيته من المسودات والبطائق ، فوقفنا من ذلك على ما قضى بُبعده من المخلوق والخالق ، وأكثرها مجاوبات بينه وبين قرينه الأعمى ابن الصفار ، ولم يزل بعد كائنه في إبعاد وإقتار ، إلى أن لحق به في المنية ، وكلاهما كان في النعمة خبيث النية .

فمما علق بخاطري من تلك المجاوبات ، قوله يخاطب ذلك الغَوىَّ الثاني وقد نازعه مُلامة المُدمنات :

[مجتث]

إن كنت تشكو ببَرْدٍ ... وقِلَّة في البُرود

فَادْعُ بلَعْنٍ كثير ... لكُلِّ مَن في الوجود

وبعد هذا ما أخذ بزمامه ، إلى مَهيع حِمامه ، وكنت ربما سايرته في بعض الأحيان ، فأستنشده عن نفسه وعن فلان وفلان ؛ فأجده غير خالٍ من الآداب ، إلا أنه متعلق في النظم بالأهداب ، وكم أنشدني لنفسه فلم ألتفت عليه ، ولم يبق بخاطري من ذلك إلا أبيات من قصيدة مدح بها الأمير أبا يحيى ووجهها إليه . وهي :

[سريع]

هذا هو النَّحل الذى قُدِّمَا ... بجايةٌ أضحت به تُونُسَا

أراش مَن شبَّ على ظهرها ... لذاك أمسى فوقها قد[1] رَسَا

(١) ت : « أن » .

٦٧ – أبو المعالى أحمد بن أبى البركات القيجاطى

رأيته يساير والدي في طريقنا إلى مَرَّاكش مع العادل . وسمعتُه يُنشده في أثناء السير قوله في بلده ، وقد تركه عُبَّاد الصليب أقفر من جَوْف العَير :

[سريع]

أبكى جُفونى بدمٍ مُنْطَرٍ ... لم يكُ أهلاً لاجلاب[1] النَّعيم

صَبَّحَه بعد الرزايا فما ... للحانى[2] في رَبْعه من حَميم

فقلتُ أقرو[3] موضعاً موضعاً ... بمُقلةٍ تَجرى وعقدا نَظيم

وقلتُ يامربع أين الذى ... أحببتُه فيك وأين النَّديم

فقال عِقْدٌ قد غدا شَمْله ... كمثل ما يُنثر دُرٌّ نَظيم

وكانت قيجاطة جنة من جنات الأندلس ، وهى من عمل جيّان ، فاستولى عليها العدو[4] في فتنة البياسى فلم يعد إليها من المسلمين بعد ذاك اثنان . وعهدى بهذا أبى المعالى ، وكان يلقب بالقَلْطَى لقصره واجتماع خلقته ، يصعد عندما يركب الناس للرحيل ويبادر إلى قرب كُدية له فيقف عليها وهو راكب ، إلى أن تطلع الشمس ، فإذا طلعت قال بحرقة من صميم فؤاده : اللهم العن كل من طلعت عليه . لم يزل ذلك دأبه إلى أن حللنا المدينة ، وتركنا رتبة[5] المسكينة . ولم ندر بعد سنة ثلاث وعشرين هل أوبقته البوائق ، أم بقى للعنة الخلائق . [٤٥ A]

(١) ب : « خلاب » . (٢) ب : « لحاجر » . (٣) أقرو : أتبع .
(٤) ت : « النصارى » . (٥) ب : « أوربة » .

٦٨ - أبو المحامد القرطبى

لقيته[1] بالقاهرة ، وكأنه لا خبر عنده من الآخرة . شيخ قد طال عمره فى أكل الأعراض ، ووجد فى تلك البلاد التغافل فانتهض فى صنعته الذميمة أى انتهاض . فما بقى فى سمعى من شعره وليته لم يبق فيه ، قوله الذى يدل على مُعتقده الكريه :

من شعره

[خفيف]

رحم الله من لعنتُ قديماً ... فلقد كان بى رءوفاً رحيماً

أتمنى لقاء عُمر وقد أعـ ... ـوز تَبَغّى كما عدمت[2] الكريما

وله

وقوله :

[سريع]

والله ما آسفُ أن بنتُم ... عنّى ولا إن بِنتُ عن داركم

وكلما غبتُ فلا تسألوا ... عنّى ولا أُعنى بأخباركم

وعهدى به على مائدة جمال الدين به بغمور ، وقد حرك أبا الفضل النيفاشى وقال له : ما أفاق هذا العليل ! فلم يسمعه لثقل كان فى سمعه[3] ، وسمعه من ذكر[4] ذلك لجمال الدين بن بغمور ، فقال : لعنه الله ، ما ينفع فيه إحسان لأن الأذاية فيه طبع . وإنما عنى أن الصحاف تأتى كل ليلة دون لحم كالمزورات[5] .

وكان يلقب بأبى بغل . ولقب أيضا بجسر بلبيس ، لأنه أقام فيها زمانا يكرى كل من جاء من الشام أو من سافر إليها . ومات بالقاهرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

---

(1) ب : « نوع من آخر لقيته » .

(2) ب : « كما عرف » .

(3) ت : « فى أذنه » .

(4) ت : « سكر » .

(5) ت : « كالمزورات »

٦٩ - على بن أحمد الكنانى القادسى

لقيته بالبيت[1] المقدس على زين الفقراء ، وقد صدر من الحج ، وهو فى الرحلة على نهج ، لم أر فى ضيق الخلق مثله ، يكاد يخاصم من مجرة ظله .

وبالجهد حصلت من نظمه على هذه الأبيات ، وندمت بعد ذلك على مافات : من شعره

[مجتث]

ذاك العذار المُطَلّ ... دبّ عليه يُطَلّ

كأنما الخدُّ ماء ... وقد جرى فيه ظلّ

عُقود صَبرى عليه ... مُذ مَلّ فيه تُحَلّ

جَرت دموعى عليه ... فقلت آسٌ وطلّ

وكان اجتماعى به فى سنة ثلاث وأربعين ، ولم أسمع له خبرا منذ ذلك الحين . [69 B]

---

(1) ت : « من بيت » .

٧٠ - أبو إسحاق بن لبون المرسى

شيء عنه من بيت مشهور بمُرسية ، ينتسبون إلى بنى لبون المذكورين فى القلائد(1) ، الذين كانت لهم الرياسة أيام ملوك الطوائف بلورقة(2) ومُرْبيطر(3) ، ولم يخل قاصدهم(4) من الفوائد . لقيت أبا إسحاق بهذه الحضرة العلية ، وكانت لى معه محاضرات ومطايبات لم تخل من فوائد أدبية ، ولم يعلق بخاطرى مما أنشدنى لنفسه إلا قوله :

[مجزوء الرمل]

أنا سكرانُ ولكن … من هَوَى ذاك(5) الفلاني

كلما رُمتُ سلُوًّا … لم يزل يَثْنى عِنانى

له وقوله :

[وافر]

حبيبى ما لصبّك من مُراد … سوى ألا تدوم على البِعادِ

فإن كان ابتعادك بعد هذا … مُقيماً فالسلام على فؤادى(6)

وفاته وكان إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار ، لم يبق لسامعه عند الهموم من ثار ، مع أخلاق كريمة ، وآداب كانسكاب الديمة . وعاد إلى بلده ثم رحلت إلى المشرق ، فبلغنى أنه نَحَا إلى تونس العنان ، فأدركته بها منيته وهو سكران .

---

(1) أى قلائد العقيان .

(2) لورقة : من بلاد تدمير .

(3) مربيطر : حصن بالأندلس ، قريب من — طرطوشة .

(4) ت : « قصادهم » .

(5) ت : « الفلانى » مكان « الفلانى » .

(6) وجاء فى ت بعد هذين البيتين : انتهى بحمد الله تعالى وحسن توفيقه .

٧١ - أبو عبد الله بن العطار القرطبى

شيء عنه حاو المنازع ، ظريف المطالع والمقاطع ، مطبوع النوادر ، موصوف الأديب الشاعر ، ما زجته بالإسكندرية ، وبهذه الحضرة العلية ، وهو الآن مرتب تحت إحسانها ، مخصوص باعتقادها وحنانها ، وما زال يؤمن بالانفراد ، والتجول فى البلاد ، حتى قضى مناه ، وألقى بهذه المدينة العظيمة عصاه ، لا يخطر المنزله ببال ، ولا يبيت إلا عن وعد من وصال ، وأظنه تخلاه من الحبال ، لا يطرقه طيف خيال .

من شعره ومما أنشدنيه لنفسه فارتضيته وكتبته ، قوله رافعا لحضرة العلية الأميرية ، سقى الله عهدها قطر السماء ، يعرض بطلب الغداء ، بألطف الإيماء :

[سريع]

الشكر فى نُعماكم يقصُر … والمدح فى قدركم يحصُرُ

جلّتْ يا مولاى عن قا وقا … فحسبنا الصمتُ ولا أكثر

يُمْلى مولانا بإحسانكم … مُطلق القولَ ولا تحصر

ولو تجسرنا لطلبنا الغدا … ولكنا مولاى لا نجسر

ولما سمع ما ارتجلتُهُ فى السكين بالإسكندرية ، حين داعبنى بإخلاسها زين القضاة [70 A]

ابن القاضى الربعى ، وقال : ما إليها سبيل ، حتى يحضر لك فيها معنى نبيل :

[طويل]

/أيا سارقا سكّينا مَصُونا ولم يَجِب … على يده قطع وفيه نصابُ

ستندبه الأقلامُ عند عثارها … ويبكيه إن عدّ الصواب مُجاب

زاد فيه فاستحق ، وإن كان مسبوقا فقد سبق :

[طويل]

أحاجيك ما شىء إذا ما سرقته … وفيه نصابٌ ليس يلزمك القطعُ

على أنّ فيه القطعَ والحدُّ ثابت … ولا حدّ فيه هكذا حكَمَ الشرع

من شعره

وارتجل بحضرى على خليج الإسكندرية :

[هزج]

ألا يا ساقىَ الخمرِ ... أدِر صفراءَ كالتِّبرِ

وقُم يابدر فاجْلُ الشمـ ... ـسَ بين الأنجُمِ الزُّهرِ

فإنّ الصبح قد أبدى ... لنا عن صَفْحة البِشر

وقد أيقظتِ الأندا ... ءُ فيه أعينَ الزُّهرِ

ودُرّ الطّلّ منظوم ... بجيد الغُصُن النضر

٧٢ - أبو عبد الله محمد بن عمار البرجي

ترجمته

لما وصلت مع والدى إلى غرناطة، سمعت من شعره ما شوقنى إلى رؤيته، والاقتباس من أدبه ومجالسته ؛ ثم إن مخدومه محمد بن هود وصل إلى المدينة المذكورة ، فانفصل ابن عمار إلى برجة التى هى بكل قلب لما حازته من البهجة مَزُورة ؛ فخاطبته برسالة أخطب فيها وداده ، وأطلبه أن يجعلنى من جملة من أفاده .

من رسالة

ومن الرسالة المذكورة :

إنى أيها السيد الجليل، والذى أسأل إليه أن يكون لى منه نيم الخليل ، وإن لم أرك ، ولا أعطيت من التمتع بك إلا خبرك ، لذو قلب دائم على أفقك، وذو طما لا يزال شاخص النظر إلى طرفك ، لأقبسَ من فوائدك السائرة ، وألتقط من فرائدك الفاخرة . ثم ختمتها بهذه الأبيات :

[مجزوء الرمل]

يابن عمّارٍ لقد ... أحييتَ لى ذاك السَّنَبا

فى حُلَى نظم ونثر ... قلّما من يستعبا

ولقد حُزتَ مكانا ... من ذرى المُلْك عَلِيّا

مثل ما قد حاز لكن ... عِش بنُعماك هنيّا

فكان جوابه :

أيها السيد الجليل المحسن ، من فتح باب المخاطبة قبل أن يقدر اللقاء ويمكن ؛ وإنه لما خطب وُدى ذلك الخطاب، احتجبت هيبةً فلم أمد أطناب الإطناب ، وقلت لعل ورودى يكون الجواب . فهناك أغرف من بحر زخّار ، وأعرف قدر ما عمره أبو عمران من بيت عمّار :

[مجزوء الرمل]

يابن موسى دُمْ عليًّا ... وتقدّم مُشْرِفيّا

واتخذ سعدك حصناً ... واصحب العيش هنيّا

إنّ مرآك لأسمى ... منظرٍ فى الطرفيّا

[70 B]

وكذا لقطك أحل   منطق فى يتمبا
جيد عطفاك أراه   فلك الفضل عليا
وأبى مجدك إلا   موضعا حيث الثريا

وفاته — ثم وصل إلى غرناطة عن قريب، فلم يتفق اجتماع به حتى سُمع من داره العويل والنحيب. وكانت وفاته سنة تسع وعشرين وستمائة .

من شعره — وكان كاتبَ العسكر لمحمد بن هود ؛ ومما اشتهر من شعره ، قوله الذى كُتب على ما سلبه الله النصر من تلك البنود :

[مجزوء الرمل]

قُل لمن يشهد حرفا   تحت رايات ابن هودِ
ثم لا يُقدم فيها   مثل إقدام الأسود
يُحرم الحظ من الد   نيا ومن دار الخلود

وله — وقوله فى وادى بوجة :

[متقارب]

أيا نهرُ عذرا فكم لى بما   حوتْ جانباك بحيث النعيمْ
أميل كأغصانك الناعما   ت وأغدو إليك غدوَّ النسيم[1]

كمل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

---

(1) إلى هنا آخر السقط من ت.

دليل فهرست

اختصار القدح المعلى

صفحة

فهرست أول للتراجم

وفق ورودها فى الكتاب

فهرست ثان للتراجم

مرتب على حروف الهجاء

فهرست الأعلام

فهرست القبائل

فهرست الشعراء

فهرست الأماكن

فهرست الكتب

فهرست القوافي

فهرست الأنصاف والموشحات